أجة تمل قوران

@ketab_n
4.1.2015

أصوات الموز

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

منشورات الجمل

رواية

أجة تمل قوران

أصوات الموز

@ketab_n

روايـة

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

ناجة تمل فوران، أصوات الموز، رواية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اجة تمل قوران. درست الحقوق في جامعة أنقرة، وتخرجت فيها عام ١٩٩٥. بدأت العمل الصحافي في جريدة جمهوريت عام ١٩٩٣، وعملت حول مواضيع الحركات النسائية والمعتقلين السياسيين وقضية جنوب شرق تركيا. نشرت كتابها الأول **عقول النساء كلها ملخبطة** عام ١٩٩٦. وفي العام نفسه اختارتها الحكومة الألمانية صحفية العام، وعملت بحثاً حول الحركة النسائية في ألمانيا، وفي عام ١٩٩٧ نشرت كتاباً بحثياً بعنوان: **ابني، ابنتي، دولتي - أمهات معتقلات من البيوت والأزقة.** حازت على جائزة غرفة الأطباء عن بحثها المعنون: **فحص البكارة للنساء جريمة.** بحثت حول الحركة الشعبية التي نشبت إثر الأزمة الاقتصادية الأرجنتينية.

في عام ٢٠٠٥ نشرت مقالاتها الصحفية في كتاب بعنوان: **من الخارج والداخل.** حازت على جائزة قلم السلام، وجوائز كثيرة للسلام بسبب كتاباتها المناهضة للحرب.

قضت وقتها في السنوات الأخيرة بين اسطنبول وبيروت وأكسفورد.

أجة تمل قوران: **أصوات الموز**، رواية،

ترجمة: عبد القادر عبد اللي، الطبعة الأولى

كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية

محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٢

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Ece Temelkuran, *Muz Sesleri*, roman

© 2009, Ece Temelkuran

© *Al-Kamel Verlag* 2012

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

الكتاب الثالث

غبار

Twitter: @ketab_n

كانت القصة في الغبار، رأيتها. . .

فتحتُ النافذة. كانت الريح المنسابة إلى بيتي كأنها أيدي خريفَ عام ألفين وستة التي لا تُحصى. وكان سربُ طيورٍ متردد وراء ظهري: طارت أوراق الدفتر التي ألصقتها على الجدران دون أن أترك أي فراغ، ملأت بها الأرضية ووضعت عليها حصى. ومع تدحرج الحصى بدا وكأن قصة مالت إلى الأرض مع كل أشخاصها.

لم يعد البيت سوى قصة.

لم تعد تناسبني هذه الكنزة الصفراء، ولا البنطال الأسود. . . فقد ارتديت قصة شخصية مختلفة تماماً عني. وصرتُ واحدة من الحصى التي تُدحرجها الريح.

إلى الغبار. . يمكن أن أعود.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب الأول

أنتم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

شمس حزيران/ يونيو المرتفعة تُبهر أعين بيروت متملّصة من بين يدي تمثال العذراء الأبيض العملاق في قمة حريصا، والعذراء التي يُعتقد أنها كانت تدير ظهرها للمدينة باكية في أيام الحرب الأهلية الأشد دموية، وتضحك في أوقات وقف إطلاق النار القصيرة، وتظهر من جبل المتن. وعندما تبدأ مدن العالم الأخرى تشبه أفلاماً أخرى كان نوم عيون المدينة المصابة بالرمض ينقطع ثلاث أو أربع مرّات في أفلام السبعينيات الوثائقية. البيروتيون الذين يُنشدون سكرة نوم صباح الأحد يسدلون ستارات شرفات بيوتهم الخارجية، ويُنزلون أبواب محلاتهم. والمياه في الخزانات الاحتياطية شبيهة الفناجين على أسطح الأبنية تبدأ بالسخونة دون أن تصدر أي صوت. تشاركها الصمت نفسه نساءٌ دخلن سنّ اليأس في ذلك العام، أي ألفين وستة، ويرمين بأنفسهن إلى الشرفات من أجل التماس برودة الصباح. ورجال الوحدة ليلة الأحد ينطلقون في الشوارع خوفاً من مضاجعات دون عشق. ومع ضوء الصباح الذي تجمعه لوحة إعلانية معدنية عملاقة وسط المدينة لفرش «سليب كومفورت» خرجت من الحرب الداخلية كلها بما يشبه المزاح وكأن النوم المريح ممكن في هذه المدينة ثمة امرأة لم يعرفها بعد أحدٌ في بيروت كانت واقفة وحدها في مدخل بناء مليء بقصص أناس غريبي الأطوار يقع في أعلى نزلة الجعيتاوي التي تنحدر على

Twitter: @ketab_n

طرف حي الأشرفية في الجزء الشرقي من المدينة. كل شيء بدأ مع إغلاق عنيف لباب. . .

* * *

«أنت اليوم حرة! يا الله!»

أُغلق الباب وراءها. نصف جملة السيدة زينب انحشرت في الباب. وكلمتها الأخيرة سقطت في منورة البناء المجاور لمستشفى الجعيتاوي في أعلى النزلة في حي الأشرفية من بيروت الشرقية:

«يا الله!»

بقيت تستمع لتلاشي صوت الباب متموّجاً في صمت الصباح حتى سمعت أنفاسها. . .

أرادت أن تعود إلى البيت، إلى مسح الأرض، وتنظيف المطبخ، وفرك الحمام، وتحضير الطعام، وجلب الماء للسيد هادي وعنبرية الكرز للسيدة زينب، والبكاء ليلاً على الشرفة، والعمل دون كلل أو ملل على مدى شهر، والعودة إلى الجلوس بجانب طاولة المطبخ جامدة عندما لا يكون لديها عمل، والاستماع للأصوات العربية المنبعثة من التلفاز ولا تفهم معناها، والنظر شاردة إلى غطاء الطاولة من النايلون الأزرق، والنظر، والنظر مثل مخلوق لا روح فيه حتى تُنادى. صار البيت المكوّن من أوامر فقط أدفأ من الحرية الآن.

انتفخ صوت قلبها في بلعومها. ونزلت الدرج وهي تقلع قدميها قلعاً عن الأرض في كل خطوة تخطوها. ليس ثمة من يقول لها: «لا تخافي» بلغتها في هذه المدينة.

قالت لنفسها: «احذري أن تخافي». تعلّمت عدم الخوف بالحديث مع نفسها قبل أسبوعين. فهمت هذا قبل أسبوع. عندما يعاني الإنسان الوحدة الشديدة، يتولد في داخله صوت يقول له مرة أخرى: «لا تخف».

Twitter: @ketab_n

«بما أنك استطعتِ المجيء من مانيلا إلى هنا يمكنك قضاء يوم أحد وحدك.. يمكنك أن تنجحي.»

نزلت أربعة طوابق دون أن تصدر صوتاً خوفاً من أن يفتح الجيران أحد الأبواب على وقع أقدامها. انتصبت كتمثال لم يكتمل بعد وراء سيارة أجرة مرسيدس مهلهلة. ليس ثمة من يراقبها في الشارع. قالت لنفسها: «لا تستعجلي! لا داعيَ لأن تعملي شيئاً. تستطيعين الوقوف هنا الآن.»

ضغطت على الحقيبة البلاستيكية البيضاء في كتفها. سمعت حفيف الورق المنبعث من داخل الحقيبة. حسنٌ أن تكون الأصوات كلها أعلى مما هي عندما تكون وحدها. ضغطت على حقيبتها أكثر. تعرّقت كفّها. سالت قطرة عرق صغيرة من معصمها وسقطت على الأرض. «إذا لم يمر أحد، لعلها بعد أن تنتظر طويلاً يمكن أن تعود إلى البيت...»

بعدها قطرة أخرى، وبعدها قطرة أخرى...

«أحوو أحم!»

سعال يشبه الزئير ترددت أصداؤه في بيت الدرج منتشراً حتى ملأ الفراغ كله. نزل السعال مع وقع أقدام إلى الأسفل. حين رأى وقع الأقدام ظلاً أمام الباب، توقف:

«أحو، أحم.. هل يلزمك سيارة أجرة عزيزتي؟»

حين أرادت العودة من صوتها الداخلي ولغتها إلى الإنكليزية صدر من فمها صوت يشبه صوت فتح غطاء محشور. وحين أرادت أن تفعل ما يشبه الابتسامة انتبض وجهها وفمها كأنه من حجر. وقبل أن تمر كتلة الدفء الثقيلة التي يبلعها الإنسان عندما يصمت طويلاً:

«نعم! أنت الفلْيبينية التي تعمل عند الست زينب. ذكريني باسمك؟»

Twitter: @ketab_n

تابع ناصر وهو يحرك حاجبيه لأنه مثل سكان الشرق الأوسط كلهم يعتقد أنه إذا لفظ كلماته واحدة واحدة، وحرّك حاجبيه ويديه يُفهم كلامه بشكل أفضل. تعمقت أخاديد وجهه المتوسط العمر وبرز عظمه بتأثير الشمس وهو يهجّئ كلامه:

«أنا ناصر. جاركم تحت. السائق ناصر. أنت، ما اسمك أنت عزيزتي؟»

قالت: «فليبينا» وسقطت من فمها كهمسة.

«فليبينا؟ ما هذا الاسم يا هذه؟ فليبينا من الفليبين! ها ها ها!...»

ألانت ثرثرة ناصر المشفقة وجه فليبينا المتحجر. حتى إنها ابتسمت.

«قولي الآن، إلى أين أنت ذاهبة يا فليبينا الفليبينية؟»

تجعّد جبين فيلبينا، وتقطب حاجباها، وزُمت شفتاها، وتجمد وجهها على حالة قبيل البكاء. لم يكن بيد ناصر سوى تجاهل هذا الوجه:

«انتظري، انتظري، انتظري! طبعاً إلى شارع الحمراء! جماعتك يذهبون إلى كنيسة القديس فرانسيس هناك. أيام الأحد البنات الفيليبينيات يغلين هناك غلياناً. صحيح؟ إلى الحمراء؟»

أطرقت فليبينا برأسها. هذا ليس الوقت المناسب لتقول له إنها لا تؤمن بأي إله.

خجل ناصر من حشريته. ومع خجله ازداد تلبكه وفشله. بدا له أنه إذا تكلم كثيراً سيبدد حزن الفتاة الذي يقطر من وجهها قطرة قطرة كصوت يتبدد في الضجة.

«إيه، اركبي إذاً. من حسن حظك أنني ذاهب إلى هناك. ولكنني بداية سأملأ الخزان بالمازوت من برج حمود. أكيد لم تذهبي إلى برج

Twitter: @ketab_n

حمود. يعني حي الأرمن. حرام ياه! لا يخرجونك من البيت، أليس كذلك؟» لمس فليبينا لمسة خفيفة على كتفها، ووجّهها نحو المقعد الأمامي. اليد نفسها فتحت باب السيارة. «آه من هؤلاء الناس! كم دولاراً تقبضين في الشهر أنت؟ مائتان؟ وأغلبها تذهب إلى أولاد الذين لا أدري من هم تسديداً لدين جلبك إلى هنا. فوق هذا ألا يسمّون أنفسهم وكالة عمال أجانب؟ كلهم تجار رقيق أولاد القحبة! كانوا قديماً يجلبون مصريات. الآن الدور عليكم». انتظرَ فليبينا لتسحب طرف تنورتها البيضاء من عند الباب. أغلق الباب. «تفوه، الله يلعنهم. عزيزتي، أنتم أيضاً عبيد الشرق الأوسط! يعني منحوسو المنحوسين. رغم هذا أنت محظوظة. السيدة زينب... إيه، هي على أي حال امرأة عندها رحمة.»

ركب السيارة ضاغطاً بثقله على مقعد السائق. فتح نافذته. أخرج علبة سجائره. وضع واحدة في فمه، وضيّف فليبينا. رفعت فليبينا حاجبيها فقط.

«كم أنت ناعمة! كم عمرك أنت؟ عدم المؤاخذة، أنتم لا تظهرون أعماركم! اسمعي، سأقول لك شيئاً، احمدي ربك. السيرلانكيات يقبضن أقل منكن. الأثيوبيات يعملن بِلُقمتهن تقريباً.»

أنزل مكبح اليد، ومد يده إلى المذياع. يكاد ينتهي كلامه، وفليبينا لا يبدو عليها أنها ستتكلم:

«إنهم الآن يجلبون بناتاً من النيبال، هل تعرفين هذا؟ انتظري وسترين، إلى أين يذهب أولئك؟ بما أنهم بوذيات... ترى هل يوجد معبد بوذي في هذه المدينة؟ كل خراء موجود في هذه المدينة. في هذه المدينة...»

ارتاحت فليبينا لِصخب هذا الرجل المتوسط العمر، بسعاله المجلجل، وجسمه الضخم الذي يدخل في قميصه بصعوبة. وكما

Twitter: @ketab_n

ينسى الأطفال الباكون بكاءهم عندما يرون أشياء ملونة وصاخبة نسيت فليبينا خوفها. كانت تنظر إلى بوصلات كثيرة ترتجف في طبون السيارة. حينما وجد ناصر في الراديو أخباراً رفع أنفه في الهواء مثل حيوان شمّ رائحة دم، وزمّ عينيه:

«يقول أنور البالغ من العمر أربعة عشر عاماً إنه يكسب أكثر من الأولاد الآخرين الذين يعملون اثنتي عشرة ساعة مقابل ثلاثين دولاراً. أنور، واحد من مئات يعملون في أنفاق التهريب المفتوحة من غزة على مصر، وعندما كان يشرح لنا كيف مات اثنان من رفاقه نتيجة إلقاء السلطات المصرية قنابل غاز في الأنفاق ضد المهربين...»

مع استمرار الخبر، خلع ناصر قميصه المرح كما يغيّر الإنسان هندامه، وخرج من تحته رجلٌ آخر. الشخص الذي على وشك أن يقتل مثل الذي على وشك أن يُقتل! نظرت عيناه إلى مكان آخر، كأنه كامن، كأنه وقع في كمين. أطلق رصاصة عبر السبطانة على قلب محارب قديم يعرف من هو، ولكنه لن يخبر أحداً. عين، شعب، شعيرة... صوّب غضبه إلى مكان فارغ. حين رأى وجهه في المرآة العاكسة، عاد. التفت إلى فليبينا الشاردة في عشرات البوصلات التي على الطبون:

«هل أعجبتك؟»

قالت فليبينا: «ما أكثر البوصلات؟» لأنها لم تعرف ماذا تقول.

هذه أول مرة يعود فيها ناصر إلى عمره. بلع صوته الثرثار. كان ثمة صوت حقيقي، منهار، مظلم جداً، تحدث به. قال: «أشرح لك يا رفيقة!» كأن صوته انبعث من أنفاق غزة:

«وهذه أشرحها لك. لنخرج إلى الطريق أولاً.»

غيّر ناصر إبرة الراديو وأوقفها على موسيقى دربكّة ودف، وقال: «هيا لنر، أهلاً بك في بيروت رفيقة فليبينا!»

قالت فليبينا وهي تبلع ريقها: «أنا... ليس إلى الكنيسة...»

Twitter: @ketab_n

نظرت إلى وجه ناصر لأول مرة. تكلمت بنبرة صوتها الأشد حزماً:

«أنا يجب أن أذهب إلى مخيّم شاتيلا.»

التفت ناصر بطريقة جعلت إبر البوصلات التي في الطبون كلها ترتجف قبل أن يدير محرك السيارة.

Twitter: @ketab_n

٢

«طق، طق، طق! سيداتي وسادتي المحترمين! بدأت خدمة العشاء.»

حين نقر الوكيل بالعكاز الضخم على الأرض ثلاث نقرات اقترب الرجال والنساء ذوو الجباب السود من الطاولة الخشبية الضخمة متثاقلين لأنهم يعطون أولوية لتعارفهم. كان كل منهم ينظر إلى اللوحات الاسمية للجلوس ويبدأ عقله بتحضير «قائمة مداخلات» ليطرحها على الجالس بجانبه خلال وجبة «المائدة السامية». حمّل الذي سيجلس بجانب «رئيس مركز الشؤون الأوربية فيليب سميثمون» ذاكرته آخر مقالة قرأها حول توسيع الاتحاد الأوربي. وكان عقل الذي صادف جلوسه بجانب الأستاذ الأكاديمي الإسلامي المصري الزائر لمركز شؤون الشرق الأوسط يحضّر أعقد الأسئلة التي يعرف أجوبتها أفضل من الجميع حول الأخوان المسلمين. كان وضع الذين وقع جلوسهم بجانب المشاركين في ندوة «النظرة إلى الإسلام في أوربا» لذلك اليوم هو الأصعب. بدا عليهم بوضوح أنهم أطلقوا العنان لعقولهم لتحديد الموضوع الذي تحدّث فيه كلٌ منهم. كانت المواضيع الأكاديمية النخبوية المتعلقة بـ«موائد أكسفورد المملة» مصفوفة في عقولهم بجانب النكت التي امتحنوا رزانتها من خلال تقديمها عشرات المرات. وكان المشغولون بقائمة الطعام لهذا المساء هم الذين يصادف جلوسهم بجوار أشخاص ليس لهم أي فاعلية من ناحية الموقع.

Twitter: @ketab_n

مع تأخر إشارة العميد لكي «يتفضلوا»، ضغط الواقفون بجوار كراسيهم على أنفسهم من أجل إطالة الحديث التافه لأن كل انفعال واستعجال على المائدة يعتبر قلة تهذيب. أخيراً صدر الأمر، وتم التنفيذ. قُدّمت التراجيديا الأولى للمطبخ الإنكليزي بأصناف مزيّنة جداً تثبت أنها تريد أن تغطي على طعمها. يدور نبيذ لا يناسب هذه العظمة الأكاديمية أبداً بين أيدي نادلين متوسطي العمر يبدو عليهم أنهم حاصلون على ثلاث شهادات دكتوراه على الأقل، ويميلون القناني لعرض الماركة، ويصبّون قليلاً منها لتذوّق طعمه معطين جواً فرنسياً وكأن هناك خياراً آخر.

لا يحضر هذه المائدة غير المدعوين، وسيتحدث عنها المدعوون أول مرة في ما بعد بسخرية مفتعلة ولكن بعظمة أكبر مما هي عليه بالتأكيد، ويتناول الجميع كل شيء بالسرعة نفسها، ويبذلون جهودهم لشرب رشفات متساوية الحجم. ولا ينقّط أي شيء على الطاولات البيضاء الكبيرة حتى تأتي الوجبة الرئيسة. يساهم الضوء المتضاعفة قوته بواسطة الثريات المعلقة في السقف العالي في إظهار السكاكين والشوَك والملاعق الفضية أكثر مما هي عليه من أجل إخفاء تواضع قائمة الطعام.

حفظت دنيز ما يجب أن تعمله في أمسيات كهذه كما كانت تحفظ الأدعية العربية في صغرها دون أن تفهمها. لأن من تربية أكسفورد المهمة جداً تناول الناس طعاماً في جلسة طويلة إلى هذا الحد، وشربهم بجانبه كل هذا النبيذ دون أن يتحدثوا بشي عن أنفسهم، وحتى دون أن يتحدثوا عن شيء أبداً بالمعنى الحقيقي. لقد جربت كل الطرق على مدى سنين لتكون مثلهم، وأدركت وهي تعذّب قلبها في هذا الطريق وتضع بؤبؤي عينيها في مكان ما من السقف لتراقب كل شيء أن عليها أن تستوعب الأمر كما هو مثل سجادة قديمة. فلا أحد يتوقع أن يكون هناك بكل كيانه أصلاً.

Twitter: @ketab_n

ولا أحد ينتظر من أحد حقيقة أو حكاية حقيقية.

هؤلاء الناس جميعاً يعرفون أنهم في أفضل الاحتمالات يستطيعون إضافة جملة واحدة على كوم المعلومات الذي كبر بحيث لم تعد الإنسانية تستطيع تحمّله، وثمة احتمال كبير أن يموتوا قبل أن يقولوا هذه الجملة. خطر ببال دنيز أحياناً أنهم لا يتبيّنون أن قصة منسوبي أكسفورد الحقيقة هي اللف والدوران بالحديث ثم العودة إلى هذه التراجيدية. ولكنها لم تعد تُفكر في أمورٍ كهذه منذ فترة، حتى إنها كانت على وشك فقدان عينيها اللتين وضعتهما في مكان ما من السقف.

أثناء تذكرها الأخبار التي قرأتها حول موضوع بناء الجامع الذي أثار جدلاً واسعاً في أكسفورد من أجل إكمال الحديث مع رئيس مركز الشؤون الإسلامية هنري ستيفنسن كانت في الوقت ذاته تتذكر كيف كانت تلفّق كلمات أغاني مايكل جاكسون وهي صغيرة قبل أن تتعلم الإنكليزية. وسبب هذه الفكرة العبثية هو الأكاديمي اليوناني الذي يجلس إلى يسارها، واستماعه لما يقولونه كما استمعت لـ«بيلي جين» دون معرفتها الإنكليزية في ذلك الوقت:

«I and oven! I and oven!»(*)

تعتقد أنها لم تستطع بأي حال سماع كلمات الأغنية الأساسية بعد تعلمها الإنكليزية، وأنها هزمت أمام ما حفظته عندما كانت صغيرة. وتتغلب محفوظة «أنا والفرن» حتى على إنكليزية أكسفورد.

لم يكن شرح ستيفنسن بلهجة بروكلين حول مرور المسلم دون تفتيش لحيته وحقائبه بشكل «عشوائي» منسجماً، ولم يُشعر دنيزَ بمسلم يتحدث بقضايا إسلامية.

«. . . أعتقد بأن نقاشاً دار حول ضرورة ألا يرتفع بناء الجامع أكثر

(*) كلمات أغنية «بيلي جين» الأساسية لمايكل جاكسون هي: «I am the one»

Twitter: @ketab_n

من برج «غولج». يقول النبي محمد - صلّى الله عليه وسلّم - حديثاً حول هذا الموضوع أعتقد أنه سيشد اهتمامكم...»

عندما كان ستيفنسن ينقل الحديث، ويصلّي على النبي بعد ذكر اسمه كما يفعل المؤمنون، شعرت دنيز بأنه «سائح أميركي في عقيدتها». تعلق عقلها بضرورة كتابة مقالة - ولكنها مقالة أكاديمية بالتأكيد - عن حالة السائح التي يعيشها هؤلاء المسلمون الغربيون، واعتبارهم الإسلام كالبوذية دين الطيّعين بعد أن يقرؤوا المولوية، وعن سحبِ الغربيين الإسلامَ من السُّمْرِ وجعله دين البيض، و«ضياع حزم الإيمان الإسلامي بالترجمة» في بعض الأماكن.

قالت بلكنة إنكليزية ملمّعة: «في بلدي أيضاً» ثم التفتت، وأجرت على عبارتها تعديلاً أكاديمياً صغيراً، وبدأت الحديث من جديد:

«معكم حق...»

بعد أن قدمت إشارة التصالح المقدس كأي منتسب لأكسفورد راجح العقل، عادت جملتها مسعورة:

«في بلدي أيضاً يُبدون اهتماماً أقصى لكي لا تتجاوز النُصب الدنيوية ارتفاع المآذن. حتى إنه لهذه الغاية تم إنشاء نُصبٍ لأتاتورك ببشاعة لم يُر نظيرٌ لها لمجرد أن تلقي بظلها على مآذن جوامع عمرها قرون.»

لم يطلق ستيفنسن قهقهة صغيرة مكبوتة إلا بعد تقديم صنف الطعام الرئيس إذ تكون القهقهة حينئذ جائزة. و بعد قهقهته، سأل:

«حضرتك تركية أليس كذلك؟»

«دعنا لا نقول تركية» وابتسمت دنيز تاركة لحظة صمت: «النقل من تركيا».

كان ستيفنسون يمشط الحقيقة التي تأتي تحت عنوان تركيا في ما

Twitter: @ketab_n

وراء عينيه المزججتين. قال: «ها. نعم، أعتقد أن تركيا تعيش أزمة هوية قومية كما في ألمانيا. هل أنا مخطئ؟»

أخرجت دنيز من محفوظات ذاكرتها مقالاً صغيراً قرأته على الأجانب عدة مرات من قبل، وبسّطته بشكل كوني تحت عنوان «جدل نخبة تركيا حول القومية»، وطرحته على الطاولة بنفسٍ واحد:

«أنتم على حق. يفضّل المثقفون الأتراك أن يقولوا عن أنفسهم من تركيا بدلاً من تركي للتعبير عن رفض العناصر القومية التي نشأت مع تأسيس الدولة، وكردة فعلٍ على سياسة الإلغاء القومية المفروضة على المجموعات المختلفة القوميات.»

أسند ستيفنسن مرفقيه إلى الطاولة من أجل أن يعيد حركة أكاديمية كثيرة الاستخدام، وشابك بأصابعه أمام وجهه، ورفع حاجبيه، ونظر إلى دنيز بانتباه، وهز برأسه طويلاً أثناء مضغه اللقمة بمعنى: «نعم، مفهوم، غريب». بالطبع لم يجدها غريبة، وبالطبع سيقول شيئاً يردّ فيه باللباقة نفسها:

«ما رأي حضرتك بالدور الموحِّد الذي يمكن أن يلعبه الإسلام في حالة كهذه؟ حسب ما فهمت من مداخلتك اليوم أنك حاولت ربط الحركات الإسلامية في الشرق الأوسط بالفقر. ربطتِ نهوض الإسلام بالفقر. طبعاً غريب».

هناك ثلاثة أنواع من «الغرابة» في أكسفورد. الأول بمعنى: «ليس غريباً إلى هذا الحد، ولكننا مضطرون إلى طرحه الآن، وسنفعل حسناً إن تصرفنا بشكل جيد إزاء بعضنا البعض». الثاني يأتي بمعنى: «لم أفهم شيئاً أبداً»، وهذه لا يشعر بها إلا المضطرون إلى شرح أطروحة دكتوراه لساقي بارات أكسفورد. أما الثالث فيأتي بمعنى: «كلامكم هراء بكل معنى الكلمة، ولكنني لم أجنّ إلى درجة إعطائكم انطباعاً بأنني لا أمتلك الآداب الأكاديمية». ومن المؤكد أن ستيفنسن من المجموعة

Twitter: @ketab_n

الثالثة. ولم تشعر دنيز خلال حياتها في أكسفورد لمدة ثلاثة أعوام ونصف أنها استخدمت كلمة «غرابة» بمعناها الحقيقي قط.

«بالتأكيد أنني ما زلت في مرحلة كتابة الأطروحة. ولكنني أعتقد بأن مفهوم «الإرهاب الإسلامي» أخرج عامل الفقر من هذه «الحركة الاجتماعية» تماماً. كما أنني على قناعة بأن الأكاديميين الأوربيين وضعوا يدهم على هذا المفهوم الذي أُنتج في الولايات المتحدة لأسباب سياسية. أنا أرى أن هناك تجاهلاً للمقولات المناهضة لليبرالية الجديدة التي يمكن أن تنتجها أو تحاول إنتاجها الحركة الإسلامية. حتى إن الإسلام المعتدل أُنتج بوصفه أداة سياسية من أجل إبطال تأثير ثقافة المقاومة هذه...»

عاد ستيفنسن إلى طعامه، ولكنه يهز رأسه وينظر إلى دنيز أحياناً ليظهر لها أنه يستمع إليها، وفي الوقت نفسه يرفع حاجبيه إزاء اللحم المقلي الجاف جداً في طبقه مبدياً عدم موافقته على ما يسمعه بشكل ظريف. بدأت دنيز تحرك يديها، وعندما التقطتهما كانت قد تأخرت كثيراً. وبالرغم من أن هذا أمر غير متوقع منها، إلا أنها استمرت بالحديث. والشخصية الوحيدة التي كانت في الحالة نفسها على الطاولة هي فرانسيسكا التي انفصلت عن زوجها، وزادت في الشهر الأخير سبعة كيلوات، وتفرط في شرب النبيذ، ونسيت أن سبب وجودها الوحيد هنا غياب ضيف مركز الشؤون الأوربية، وتعطي طالبها الفلسطيني في الدكتوراه أحكامها حول الرجال. أسبلت دنيز يديها إلى حضنها، ونجحت على الأقل في أن تردّ بما يناسب آداب الطعام:

«ما رأي حضرتكم في هذا الموضوع؟»

ترك ستيفنسن شوكته وسكينه بثقل رجل دين أكثر مما هو أكاديمي، وأصلح ياقة جبّته الأكاديمية، والتفت نحو دنيز:

«هل أنت مؤمنة يا دنيز؟»

Twitter: @ketab_n

جاء السؤال مع الحركة التي أحدثها على الطاولة تقديم الكريما بالفريز، وكلمة «شكر» العميد المزينة بكثير من الطرائف الموزونة وأجّلها حتى تراخت الطاولة. دهشت دنيز بشدة إزاء هذا السؤال الخارج حقيقة عن آداب أكسفورد، ولم يكن أمامها سوى أن تكشّر عن أسنانها عندما يضحك الجميع أثناء كلمة العميد. ولابد أن ستيفنسن خشي من وقوعه في شبكة القيل والقال بسبب سؤاله البعيد عن «اللباقة السياسية» ويشكل بلية على رأسه في هيئة القوميات الجامعية، فلم يفعل شيئاً يشعره بأنه ينتظر جواباً.

خلطت دنيز الكريما، وشكّلتها بسكينها، ونقلت الفريز من طرف الطبق هذا إلى طرفه ذاك. وبينما كانت تتذكر إله طفولتها الملتحي السمين والمسلّي من خلال التعليم الديني الذي أخذته من جدتها، تسلل إلى داخلها شعور دافئ بالبكاء لا علاقة له بالحالة التي تعيشها أبداً. أخذت نفساً، والتفت إلى ستيفنسن الذي لم يعد يستمع إليها:

«كنت أرغب كثيراً أن أؤمن بإله يا سيد ستيفنسن. يرغب الإنسان في المغفرة أحياناً.»

أسند ستيفنسون مرفقيه إلى الطاولة، وشابك أصابعه. ولحظة حضّر نفسه لقول «غريب» كان قد بدأ بهز رأسه. وشعرت دنيز بفخر مؤلم بنفسها لأنها استطاعت البقاء متوازنة إلى حد أنها بلعت بقية جملتها:

«لأنني يا سيد ستيفنسون أجهضتُ ولداً مع أنني لم أرغب القيام بذلك أبداً.»

Twitter: @ketab_n

٧ تموز/يوليو ١٩٨٢، مخيّم شاتيلا، بيروت.

فليبينا، ابنتي الحلوة؛

بدأت بكتابة هذه الرسالة يوم قررت إرسالك إلى الفليبين عند جدتك. فأنا أكتب للبعيد والقادم لاحقاً حتى لو كنتِ الآن نائمة في السرير بجانب طاولتي.

أنتِ الآن مسلية جداً ويشبّهك الجميع في المخيم بدرويش الكبّة، ويحبونك كما يحبون الكبة. ولكنني أعرف أنك ستكونين امرأة حنونة وحلوة. لأنك تشبهين أمك، وعيناك تشبهان فلسطين. ذات يوم ستدهشين حتى أنت من عينيك.

إنني أقطع قطعة من لحمي بإرسالك. ولا أرسلك وحدك إلى ما وراء البحار، بل أرسل معك كل ذكرياتي التي لجأت إليها وسط الحرب. لأن الناس هنا يموتون مثل الغلطة. أنت جميلة إلى درجة لن أجعلك غلطة.

ليس لدي غير قصة أستطيع تقديمها لك. إذا لعنتِ الدنيا لمجيئك إليها ذات يوم، ولم أكن بجانبك في ذلك اليوم، اعلمي أن لديك قصة. لأن الناس لا يتركون وراءهم غير القصص. تعلمتُ هذا لكثرة ما رأيت موتَ أناس رائعين. مهما فعلنا لن نترك وراءنا غير قصة. حين نرويها تبدو كذبة كأنها لم تقع أبداً.

Twitter: @ketab_n

فليبيناي، كبّتي الحلوة؛

جاءت أمك إلى هذا البلد في شتاء ١٩٧٩. هناك عشرات الناس يشرحون لك سبب مجيئها وكيف جاءت. أنا في الحقيقة لا أعرف قصتها بالضبط. كنا عاشقين، وتتدفق قصتنا بسرعة بحيث لم يكن لدينا وقت للأمس. لهذا سأروي لك قصتها التي لن يعرفها أحد غيرنا أنا وأنت، سأروي لك قصتنا.

ابنتي العطرة الرائحة؛

جاءت أمك إلى هنا مثل كثيرين من أجل العمل. أعتقد أنها كانت خادمة لدى أسرة مسيحية. قالت لي ذات مرة: «كنت أعتقد أن النقود هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن آخذه معي من هذا البلد. حلمت بتأسيس حياة كالجميع». مع أن أمك لم تكن كالجميع. من يعلم، لعل هذه المدينة حوّلتها إلى بطلة رواية كما فعلت بنا جميعاً. لهذا السبب الجميع يحبون هذه المدينة يا فليبيناي. بيروت تجعل الجميع أبطالاً أكثر مما هم عليه.

عندما جاءت كانت المدينة مقسّمة إلى قسمين منذ زمن طويل، بيروت الشرقية والغربية. في بيروت الشرقية المسيحيون وعالمهم الزجاجي. أما في الشرقية، أرضنا، فثمة حرب. إذا رأيتِ بيروت في خريطة العالم كنقطة صغيرة على ساحل البحر المتوسط عندما تكبرين، لعلك لن تفهمي كيف انقسمت إلى قسمين. هذا ليس مهماً، اعرفي أن أحداً لم يفهم ما حدث.

بانقسام المدينة إلى قسمين حدث لنا ما حدث يا فليبينا. الألم يُخرج الناس خارج أجسادهم. أثناء انتظار الناس خروج الألم منهم يخسرون لحمهم، ومنهم من لا يعود أبداً. الغريب في الأمر، رغم أن تاريخ هذه الأرض من أوله إلى آخره على هذا النحو، لا أحد يعلّم

Twitter: @ketab_n

أولاده أن هذا يمكن أن يحدث لهم. مع أن الروح هكذا تعلن حدادها، بمغادرتها الجسد. وتعود الروح يوماً ما ليس لأن فجيعتها قد زالت بل لأنه ليس لها مكان آخر تذهب إليه. مع أن أهل شاتيلا ليس لديهم بيت أو وطن يذهبون إليه غير لحومهم.

نحن هنا جميعاً نشاهد الذين يمرون من حول بشرتنا وفوقها. نشاهد نهوضنا صباحاً، ودهن اللبنة على الخبز، وانتشار زيت الزيتون على اللبنة بقعة صفراء مضيئة، ومضغنا الخبز، وأنفسنا. بعدئذ يحدث صخب. نشاهد ذهابنا إلى الملاجئ، ونتابع أنفسنا باستغراب. أحياناً حتى أحلامنا نشاهدها من بعيد. نحن أناس نغطي صمتنا بصراخنا لأننا استهلكنا آخر جملة يمكن أن تسلي أجسادنا.

ولكن أمك جاءت ذات يوم...

حين جلبوا أمكِ إلى مخيّم شاتيلا كانت ترتدي صدرية خادمة زهرية ملوّثة بالدم. أول شيء أذكره فيها نظرتها بعينين تبرقان بالخوف طالبة من النساء شيئاً تلبسه. كرهت الصدرية، وأعتقدُ أنها أحبت مخيم شاتيلا المشفق والظالم لأنه خلّصها من تلك الصدرية. كان الرجل الذي جلبها أطول من الكلاشنكوف بقليل، ولكن غضبه يكفي سكان شاتيلا كلهم. رشوا العائلة الانعزالية عدوة الفلسطينيين اللدودة عند المتحف على نقطة تفتيش البربير، وعزل أمك واحدٌ من جماعتنا قائلاً: «الشعوب المسحوقة أخوة»، وأركبها، وجلبها إلى المخيم.

لدى الأغنياء عادات غريبة كهذه يا فليبينا. يغطّون الفقر بألبسة خاصة. أعتقد أن فكرةَ امتلاكهم عبيداً تؤرقهم. لهذا يحاولون أن يدخلوا عبيدهم في شكل آخر. هذا ما يفيد به اللباس الموحّد، واحذري من لبس اللباس الموحّد.

كنتُ غاضباً من هذه الحرب وهذه المدينة. هذا ما يجعلني الآن أقول لك هذا، وأخبرك بكل شيء.

Twitter: @ketab_n

أنا أرسلت روحي بعيداً جداً. اضطرت روحي إلى الذهاب أبعد من الجميع لكي أستطيع مداواة جروح الناس في هذا المخيم، وأمارس عملي في الطب. لعلني أنادي نفسي لترجع وأنا أكتب لك هذه الرسالة.

يستغرب الناس كيف أغلق على نفسي المستوصف وأكتب بعض الأمور وسط هذه الحرب. أعتقد أن كتابة رسالة لك تفيدني بتأسيس بيتٍ لروحي خارج جسدي، بيتٍ نظيفٍ دون جروح. لأنني لم أعد أريد أن أكون جزءاً من أي شيء. لا حرب، ولا أمل. لا شعب، ولا تاريخ. لا مفاتيح بيوتنا في بلدنا السابق التي نحتفظ بها، ولا هذه الطقطقة التي لا تنتهي. الحرب انتهت بالنسبة إليّ يا فليبينا. سأشرح لك كيف حدث هذا.

فليبيناي؛

ما زلتِ صغيرة جداً على هذه القصة المليئة بالموت. ولكن ليكن بعلمك أن الموت ليس مخيفاً إلى هذه الدرجة. حتى إنه يصبح تافهاً لكثرة رؤيتنا له. حتى موتك يغدو تافهاً. تقولين لنفسك: «ما دام الجميع يفعل ذلك فأنا أيضاً أستطيع أن أفعله». تعلّمتُ هذا من أمك. حين بدأتِ تدفعين لحمها بالمخاض، قالت: «بما أن كل هؤلاء الناس ولدوا من بعضهم البعض، أنا أيضاً أستطيع عمل هذا». استمدت القوة من النظر إلى الناس، في ولادتك، وأثناء موتها أيضاً. كانت محقة.

فليبيناي، كبتي اللذيذة، قصتي، وقصة أمك، وقصتك أيضاً في ما بعد بدأت في مخيم شاتيلا. مخيم اللاجئين هذا المتشكلة جدرانه من لحم، وأزقته من أطفال رقابهم رفيعة، وبيوته من التشرد، هو بيتك الأول.

Twitter: @ketab_n

٣

لديه خبرةٌ عميقة بتشققات البناء الواقع أعلى نزلة الجعيتاوي على طرف الأشرفية مثل الملايين أمثاله التي تعيش في بيروت وتعرف الأحشاء الحديدية والإسمنتية للأبنية التي تعيش فيها وتغدو علامة المدينة الفارقة في أشهر الصيف. لهذا فإن انتظاره وهو يعبر من ثقب إلى آخر ليس بسبب تردده في الطريق.

تحوّل إلى هوائي حتى عرف أن أحداً لا يلاحقه. ولكنه عندما اقتنع بأن أحداً لا يلاحقه عاد للسير باتجاه اجتماعه السري. حين وصل إلى الثقب الذي سيدخل فيه توقف فجأة. توقف قلقاً وجسمه البدين يرجف. تلفّت من جديد إلى اليمين وإلى اليسار. هدّأ نفسه بصعوبة بالغة، وطرد خوفه. انتظر مدّة نفس عميق، وضاع في الشق الذي دس فيه نفسه متلوياً.

من المؤكد أن أحداً سيسمع رأيه في موضوع «الإستراتيجية الدفاعية الوطنية» التي يفكر فيها منذ الليل حتى الآن في اجتماع القرار من أجل العملية الكبرى التي ستنفّذ هذا الصيف. وضع هذا في عقله؛ إذا لم يسمعه أحد فسيستخدم مكانته وأفضلية عمره ليفرض نفسه. مهما يحدث، ففي هذا الصيف على الأقل لا بد من قول لا لرخاوة حشرة الكرة التي لا شخصية لها وهمجية النمل الخالي من الإحساس. وقد سمع هذا من صرصار حمّام منذ فترة!

Twitter: @ketab_n

سيقول: «كل واحد سيقوم بما عليه! ولكن من منكم يضمن ألا نذهب ضحية مجزرة جماعية كما حصل في الصيف الماضي إذا خرجنا كلنا معاً؟!»

لنرَ من سيجيب عن هذا السؤال. وفي لحظة الصمت تلك، يخطط لقول هذه العبارة مخاطباً قلوب الصراصير كلها:

«أما سال دمٌ كفاية؟ أنا أسألكم: أما كفانا تقديم ضحايا؟»

ماذا لو استمروا في الصخب؟ مجرد التفكير في هذا يُرجف هوائياته. هذه المرّة سيرفع صوته بالتأكيد:

«لن نكون بعد الآن ضحايا اختلافنا وحرصنا على السلطة!»

أي أنهم سيفعلون حسناً لو فهموا توازنات القوة. بما أن الفئران اختفت منذ مجيء القط الملعون إلى البيت، صارت الصراصير هي الأقدم، وصاحبة الكلمة الفصل. إذا انتبهت الصراصير لهذا الأمر فهذا يعني أنني لن أستطيع عمل أي شيء لها. مع أنه يجب أن يفرض ثقله على النحو التالي:

«افهموا! في شقة البواب مروان مكان يتسع لكم جميعاً!»

* * *

حين ملأ صخب سعال سيارة ناصر المرسيدس - من بقايا الحرب الأهلية - المسلول قدام البناء أولاً، ثم النزلة كلها، لم يكن مروان قد نهض من سريره، وكان يجول بخيالاته السوداء التي ركّبها على هوائيي الصرصار في السقف. حين اندسّ دانتيل طحالب الرطوبة الأخضر في نظره كثيراً صار يشبه هضاب سهل البقاع في طفولته. أثناء غطسه في بحر صمت الزقاق وخروجه كان عقله يتردد بين اجتماع الصراصير والأخبار السياسية التي قرأها قبل النوم. سكرة النوم تجعل خلطَ الأمرين ممكناً. كانت أنواع الصراصير الكثيرة في البيت تجوب على

Twitter: @ketab_n

المجموعات السياسية في بيروت. عندما بدأ يضحك مع نفسه نظر إلى تعكير عقله هذا بانتباه شديد.

طبعاً يا عزيزي، صرصار الحمّام بِقِدمه وقدرته يجب أن يكون الجنرال عون ممثل المسيحيين. وإذا أخذنا نظام النمل الفاشي بعين الاعتبار فمن المناسب أن تمثل أتباع سمير جعجع. وبالطبع - انفرجت ابتسامته النائمة تماماً - فإن دودة الكرة الكسولة التي إذا لمستها تتكور على نفسها تشبه أتباع الحريري وتيارهم. لن يعذّب نفسه ليجد تشبيهات للمجموعات القومية والدينية والسياسية لبيروت الأغنى من تنوّع الحشرات كلها. ولكن في هذه الحالة، ونتيجة محاسبة غير منطقية لا يمكن أن يكون حزب الله سوى قط مروان الإيراني. يلعب حزب الله مع الحشرات، ولكنه دائماً يتركها دون أن يقتلها.

فكر مروان: «يلزم هؤلاء قصف إسرائيلي!» حين مال للصحوة من نومه دخل حلمه حالة أكثر جدية: «يجب أن أستدعي شركة رش المبيد قبل أن يشتد الصيف». وبينما كانت الابتسامة تعرض على شفتيه: «لعل الحشرات وقتئذ تفهم مثل شعب بيروت أن هذا أفضل ما يمكن أن يحل بقطيّ الأهبل.»

وأخذ لنفسه دورَ واحد من السوريين الذين أعلن البيروتيون كلهم كرههم لهم بعد أن انتهت فترة الاحتلال السوري التي دامت سنوات:

«أنا في هذه الحالة أمثل سورية من خلال شقة البواب هذه المستمرة بتأثيرها في لبنان.»

زحل عنه غطاء الفراش الأبيض المائل نحو الرمادي بسبب تساقط شعر صدره ورجليه وتكوّم في منتصف السرير بفعل نوم قلق، فلفّه على ساقيه الرفيعتين السمراوين، ثم نفخ نفسه بجدية دبلوماسية تشعره أنه أكثر دول الشرق الأوسط كتماناً وإيماناً. ما زال وجهه على المخدة يبحث عن طرف حلم جميل يستمر فيه بسلطنته عدة دقائق أخرى.

Twitter: @ketab_n

كانت مقطورات الحلم تتجه في اتجاهين أمام عينيه، ولم يستطع القفز إلى الحلم الصحيح في الوقت المناسب، ولا التملص من ضوء الشمس الذي بدأ يتسلل إلى شقة البواب.

حين نوى، وقفز إلى مقطورة حلم فيها أشياء تتعلق بطفولته، نطّ القط على سريره. وحين نظر إلى وجه مروان نظرة شديدة الخواء مثل نظرات القطط كلها صرخ فيه مروان خائفاً: «الله يبعث لك البلاء يا شيعي! إرهابي مجنون! فدائي أهبل! ماذا يوجد في هذا الصباح الباكر؟!»

حين هدأ ونظر إلى القط دارت في عقله حالة لم يكن متأكداً إذا ما كانت حالة نوم أم يقظة، سعادة أم كدر. وفور إغماض عينيه والقط تحت يده، وجد تحت جفنيه الجملة التي نوّمها بيده ليلاً:

«يا ليتها تنظر إليّ هكذا أيضاً!»

كان مشهد البارحة صباحاً يتضح في سواد عينيه. كان صاعداً الدرج من أجل جلب القط الذي يموء بجنون وهو يصعد إلى الطابق الأعلى ويقول: «قط مجنون! مثل الشيعة الذين يضربون صدورهم في عاشوراء! كأنهم يأخذون روحك يا ساقط!» ثم عرف فتح باب بيت الست زينب من صريره، فتوقف فجأة، وأكمل صعود الدرج دون إصدار أي صوت. كان يسمع قلبه. منذ أسبوعين وهو ينتظر هذه اللحظة.

* * *

كانت براعم الياسمين على الشرفة قد بدأت تتصاعد مثل أدعية تخلت عن أمنياتها ولم تؤمن بنفسها. لعل الله موجود! وإلا لماذا يقف مروان في تلك اللحظة في الزقاق وينظر إلى الأعلى؟ ها هو قد نظر، ومن بين ظلال الياسمين رآها خيالاً أنعم من الياسمين أول مرة. كان بكاؤها يظهر من جبينها أولاً، ثم من شعرها المنطلق من الشرفة إلى

Twitter: @ketab_n

أقسى نزلة في الأشرفية، حيث يتلاشى في الظلام. رأى مروان الفليبينية أول مرة في تلك الليلة.

كان وجه الفتاة في الظلام مقطباً ومقسّماً مثل كلمات متقاطعة نصفها لم تجد إجابات على أسئلتها. في الليلة التالية صعد بناءً في حال الإنشاء مقابلهم بقرار لم يستطع صياغة جملته بالكلمات، وأطفأ سيجارته الرابعة فور خروج الفتاة إلى الشرفة بمعلومة حربية بقيت لديه من الطفولة.

بكت الفتاة أيضاً. وعندما انتهى بكاؤها، سَرَبَت أوراق الياسمين اليابسة. منذ كم ليلة والفتاة تسرب الأوراق كلما انتهت من البكاء. كان وجه الفتاة لغزاً يظهر منه كل ليلة طرف، ولكنه لا يظهر كله، وكل ليلة يظهر بشكل مختلف بإضاءة الزقاق. وضعها مروان في عقله. لأن يديها نحيلتان ومعصماها أسوأ. وجهها أبيض، هذا أكيد. وترتدي ملابس ناصعة البياض.

مروان أسمر داكن وقبيح قليلاً. يداه ضخمتان وذراعاه أيضاً، ولا يمكن تقدير عرض صدره بسبب ما يلبسه. ثمة أشياء كثيرة في رأسه يرويها ولكن من غير الممكن أن يسمح شعره بخروجها لكثرة الدهن فيه. يفهم المرأة وسلوان المرأة، ولكن من لا يفهمه يعتقد أنه تحرش، ولا يوجد أحد يتعلق بشفته السفلى المتشققة. ليس لديه سوى العينين. ليس لدى مروان شيء غير العينين.

وضعها مروان في عقله:

«تُرى، عيناها مرفوعتان من الطرفين كثيراً؟»

أخيراً تحيّن ليلة مقمرة. وأخيراً أطفأ سيجارته أيضاً. لم تبكِ الفتاة أبداً في تلك الليلة. أشعلت سيجارة فقط. «هذا يعني أنها لا تعرف كيف تدخن أيضاً. حرام». وقال في داخله: «حرام!».

Twitter: @ketab_n

أطفأت الفتاة السيجارة من منتصفها، ونظرت إلى أضواء الكورنيش، وأخيراً إلى ظلام البناء قيد الإنشاء... نظرة خاوية كأنها تنظر إلى مرآة. جمعت شعرها، ولفّته، ولمّته إلى الداخل، وربطته عند رقبتها. وقف مروان خاوياً كالمرآة. ظهر تحت إبطي الفتاة لون أبيض، أبيض. في تلك الليلة بدأ حلم مروان:

«عيناها ليستا مرفوعتين من الطرفين!»

* * *

كان مروان يصعد الدرج بصمت، حيث لا يمكن لفليبينا أن تراه عندما يقف وينظر إليها. انحنت فليبينا إلى القط الذي يصرخ ويموء عند الباب. جلست، ونظرت إلى القط. ونظر القط إليها نظرة كأن لديه همّاً، وكأنها ستفهم همّه دون أن يشرحه. كأن الدواء عندها بالتأكيد وشفاءه على يدها. نظرت كأنها تنظر إلى داخل القط.

كأنها تفعل أي شيء لأجله، وتعمل ما يمكن من أجل أن تضعه في حضنها، وتلفّه، وتحميه من كل شيء. كأن حرارتك ارتفعت وستسهر أمك عليك طوال الليل، وستبرّد المناشفُ المبلولة بالخلّ رسغَيْ قدميك في جحيم ظلام الليل، من هذا ستعرف أمك، وستضعك بيديها في حلم أكثر شفقة وهي تجسّ جبينك، وستهمس في أذنك لأنها ستجدك صباحاً حيث تركتك دون شك... تنظر إليك بشكل يجعلك تشفى بالتأكيد صباحاً. سوف تستيقظ متعرِّقاً، ومتضائلاً، وخفيفاً، لتفرح أمك عندما تفتح عينيك، وترى وجهها المحني عليك، وتقول أنت: «حسنٌ أنني مرضت» وتعود لتغطّ في نوم خفيف خالٍ من الهموم.

هناك في بيت الدرج، عرف مروان أن جملة خرجت من صميم قلبه، ومن داخل لحمه مثل شريط نحاسي:

«يا ليتها تنظر إليّ هكذا أيضاً...»

Twitter: @ketab_n

هذا الصباح كان الصباح الأول بعد تلك الجملة. وبينما كان مروان يبحث عن حلم برائحة الطحين الطازج لكي لا يستيقظ على خشخشة الحشرات في شقة البواب، المحوّلة من ملجأ يعود لأيام الحرب الأهلية، كان صوت الست زينب قد تدحرج من الأعلى نازلاً وطرق بابه:

«مروان! شجرة الخبز!»

Twitter: @ketab_n

٤

صارت دنيز في بيتها.

هذا الصباح أيضاً فعلت كل شيء بالتسلسل نفسه. بعد خروج «طونتش» من الباب، وتأكدها أنها وحدها، نهضت من السرير. لا ضرورة لتغيير ثيابها، منذ أسبوع تنام وتقعد بالبيجاما نفسها، وتشعر بنفسها خفيفة مثل طعم المهلبية المحمّضة المرمية في خزّانات مياه توازن السفينة لتخلّصها من عالم الألبسة المعقّد. بحركة واحدة جمعت شعرها بالمطاط الذي جعلته في معصمها قبل أن تنام. تناولت فنجان القهوة الموضوع من أمس على الطاولة. نظرت إلى خطوط القهوة التي ارتسمت ببطء طوال الليل، وتعمقت نحو النصف الثاني المظلم من الحياة. الخطوط الباقية من الأيام السابقة تتجه طبقات نحو الأسفل. خضّت الفنجان بالماء، وملأته بقهوة غطت على كل خطوطه. تناولت غطاءي المقعدين الكبيرين الأشد خضرة من أي مستشفى لسكن الجامعة الداخلي وأخذتهما إلى المطبخ، وفتحتهما إلى جانبي الطاولة المسنودة إلى الجدار. جلبت ورقاً أبيض غير مسطر وقلم حبر أخضر. وضعت كل شيء تحت الطاولة، وجثت على ركبتيها، ووضعت يديها فوقهما. ولكي تدخل إلى البيت الصغير الذي أسسته تحت الطاولة تحركت حركات مقطعة، وحَبَتْ، ولفّت، وزحفت وصغرت. صارت داخل بيتها. وبدأت الكتابة...

Twitter: @ketab_n

«عزيزتي صلا،

لكل علاقة مقبرة سرّية. إذا بدأ أحد الطرفين بزيارة المقبرة وحده فهذا يعني أن تلك المقبرة ستكون استراحة هذه العلاقة الأبدية.»

ينبغي ألا يكتب الإنسان رسالة كهذه لأخته التي على أبواب الزواج. ولكن الرسالة التي بدأتها قبل أسبوع، وحوّلتها إلى هدية غريبة بإلصاق صور الطفولة على حوافها وزواياها، تطول، وتتشعب، وتنحني، وتتلوّى متحوّلة تلقائياً إلى سجلّ حِداد. وتطول الرسالة كثيراً لتصبح وثيقة تثبت إفلاس العقل الأكاديمي التي تربّت عليه سنوات.

«احذري من الذهاب إلى المقبرة وحدك. مهما حدث جرّي معك الرجل الذي معك. وإلا...»

وإلا ماذا؟ تجلّى في وعيها الملوّن ما فعلته مع طونتش مثل فقاعات تظهر ثم تختفي، وانتهى صوتهما بالمسح بعد اليأس والملل، ومناقشات لا تنجح حتى بالشجار. لاحظت أنها هي التي تبقى في البيت كل مرة يأتي فيها طونتش ويذهب، وبعد الأحاديث عن أمور مختلفة تماماً تحاول مسح السجلات المشتركة بينهما.

«وإلا فإنك تبقين وحدك في المقبرة ذات يوم.»

لأن كل جدل يقتل المخططات المشتركة خطة تلو أخرى، يغدو البيت مقبرة غير مرئية لخزينة «أجمل الأيام، وأجمل الليالي» التي تمنحهما الطمأنينة في لحظات ترددهما، وسُجّلت في تاريخهما المشترك، وغدت كثيرة الاستذكار في الفترة الأخيرة، لهذا أسّست «البيت الداخلي» تحت طاولة المطبخ. لن تحكي هذا لصلا.

«ألا تذكرين البيوت التي بنيتها لك يا صلا؟ كم بنينا من البيوت عندما كنا طفلتين وُضعتا تحت حماية جدتينا غير السياسيتين بسبب اختفاء والدينا في لهاثهما وراء الطموحات السياسية. يا إلهي! أتذكر تلك السنوات من حياتنا بصفتها «مرحلة مأكولات العجين الشديدة

Twitter: @ketab_n

الكثافة»، وكلما صادفت اليسار التركي في أي واجهة عرض بوركي العريض ألعنه. تصوّري، انهار جدار برلين، وانهار الاتحاد السوفياتي، ولكن بليتنا السياسية بالهيدروكربونات ذات المضمون السياسي ما زالت شامخة سليمة!

كلانا مدانتان بعرض وركَيْنا لليأس الذي تشعر فيه جدّتانا إزاءنا بوصفنا طفلتين تربّتا دون أبوين، وصنعهما الكيك والبرك دون توقف، وبالتالي فإننا مدانتان لانقلاب ١٩٨٠ العسكري. وأسّسنا تلك البيوت لكي نحمي أنفسنا من الطرفين.

الآن أتذكر كم كنت أرتبك بشكل مخيف. ينبغي أن أؤسس لك بيتاً بسرعة. ينبغي عليّ أن أنجز هذا الأمر بسرعة لأنني أكبر منك، وأنظّف حياتنا بلعبة تقليد حياة البيت. أعتقد بأنني لم أستطع تأسيس بيت بسبب كثرة تلك البيوت. أساساً أنت التي تستطيعين تأسيس بيت حقيقي بيننا. ومنذ البداية. أتذكر جيداً أنك لم تخلطي في الأدوار الخيالية للأشياء التي نحوّلها إلى مفروشات قائلة: هذا هنا، وذلك هناك! وكم كنا نصغّر أنفسنا، ونطوي أذرعنا وركبنا وأصواتنا لكي نصغر بمقاس لعبة البيوت، وكم كنا صغاراً أصلاً.

احذري أن تحني نفسك معتقدة أن بيتاً سيتسع لك.»

أمسكت الجملة الأخيرة من منتصفها، وشطبتها. ليس من الضرورة أن تعكر هذه الرسالة بمخاوفها الذاتية أكثر من ذلك.

«أنا أتذكر اليوم الذي كبرتِ فيه، هل تعرفين هذا؟ أنت كبرت حين خبأت الشكولا التي أعطتك إياها جدتك، وملأتِ بها كنزتك، وأخذتها إلى زيارة أمي المفتوحة - أم أبي يا ترى؟ - ونجحت بإدخال الشكولا الذائبة إلى الزيارة:

- انظري يا أمي! الشرطة لم تفتشني!

في ذلك اليوم أثبتِ رشدك السياسي يا أختي الحبيبة!

Twitter: @ketab_n

وأنا أُعتبر أني تعرّضت للتعذيب ولم أعترف يوم أكلت صفعة العقيد الفاشي نيازي الساكن في الطابق الخامس بوصفي مؤسِّسة «منظمة الأطفال التقدميين». إذا أردت رأيي، لا أحد ينتقدنا لأننا وضعنا نقطة في نهاية عملنا السياسي الفعال في تلك الأيام!

ليتني لم أتصل بأمي منذ شهر، ولكنني أفكر فيها كثيراً في الأيام الأخيرة.»

أنهت دنيز الجملة التي كتبت نفسها بنفسها تقريباً على الورقة، وتوقفت. ابتلعت شعورها بالبكاء المتصاعد من بطنها إلى الأعلى. منذ شهر وأي شيء تريد قوله لأمها فقط ولا تستطيع قوله يتكور مثل كرة ويقف في بلعومها. هذه أول مرة تخطر ببالها السيجارة التي لم تدخنها منذ سنة. أبعدت بيدها دخان السيجارة المتراكم أمام وجهها.

«لن تنتهي أبداً قصص تلك المرأة، وكلانا نعرف هذا. أليس كذلك؟ أنا واثقة أنك في هذه الأيام تريدين أن تكلّميها، وهي ستردّ عليك بقصص أكثر أهمية وإثارة. بلغت الستين من عمرها، وحتى الآن عندما أريد أن أروي لها شيئاً على الهاتف، تقول لي: «هات من الآخر!» لم تتخلص من أمراض الصحافة.

ما أفكر فيه هو:

تُرى، هل فكرتُ في أن أكون أكاديمية لكي لا أكون مجنونة ومبتلية قصص مثلها؟ إذا أردتِ رأيي، فهي أحبت القصص أكثر منا دائماً. لقد تركتنا دائماً من أجل القصص أو بسببها. ترى، لأنني غاضبة من هذا أغلقت على نفسي السجن المسمّى «أكاديمية» ولا أحد فيه يستمع لقصة أحد، ولا أحد يروي قصته لأحد؟ أم أنني أجد لنفسي مبرراً مشروعاً لردة فعلي على قول: «لا يمكن أن تكوني أكاديمية»؟ هذا أيضاً ممكن.

أثناء تفكيري بهذا في ذلك اليوم اتصل أبي. منذ قرر والدي خردة

Twitter: @ketab_n

الاشتراكية يا عزيزتي صلا أن يكون هبّياً - أعتقد بأن مرض القيادة لا شفاء منه - يعتقد نفسه الدالاي لاما! يصرخ دائماً بأغنية ينع يانغ نفسها بشكل دائم. يقول: «جف منبع حياتي، ينبغي أن أعيد تدفقه». أخيراً قيّم الصحوة الإسلامية في الشرق الأوسط باعتبارها «انقطاعاً من الجذور» وعندما قال: «طاقة أفغانستان سيئة» فكرت أنه لا يمكن أن يكون هناك أسوأ من هذا، فقال:

«أنا أداوي مرض حياتي السابقة.»

يعتقد والدنا يا صلا أنه يستطيع حل مشاكل اليسار العالمي عبر: معالجة مرض الحياة السابقة!

أعتقد أن هذا مرضنا العائلي يا صلا. كلنا ما عداك نعطي قصصنا أهمية. تفعلين حسناً بأنك ستتزوجين. على الأقل تؤسسين لنفسك حالة مرضية جديدة جداً! أمزح!

اعتقدت أنها نقلت ألمها الداخلي إلى الرسالة، وأن مزاحها المتثاقل تدريجياً سيزعج صلا. ولحظة تفكيرها في حذف هذا المقطع من الرسالة التي تجاوزت العشرين صفحة، رنّ الهاتف. حينما رفعت السماعة، بدأت صديقتها الفلسطينية ريما بالصراخ على الفور:

«أما رأيت الجِمال؟ الجِمال الملعونة وسط أكسفورد!»

حين تطاولت دنيز إلى الهاتف انهار الغطاءان نتيجة تحركهما من مكانهما. بدأ الجو يُظلم.

Twitter: @ketab_n

١٥ تموز/يوليو ١٩٨٢، مخيّم شاتيلا

فليبيناي، كبّتي الحلوة؛

يعشق الإنسان عندما يرى في إنسان آخر باب حياة جديدة. أي سعادة، وأي ألم مشتهى تذوقه في الطرف الآخر. هذا ما يُسمّى العشق: إنسان يرى في إنسان آخر بيتاً غير مسجلّ. أنا رأيت في أمك بابا وبيتاً كهذا.

أنا حمزة. أُعرف في مخيّم شاتيلا باسم الدكتور حمزة. لا تنخدعي باسمي، فأنا دائماً رجل ضئيل. هيكل عظمي جاف! أما أمك فكأنها طفلة ألقيت من بطن أمها باكراً وقت نموّها. هذا يعني أن الإنسان يحب الجرح الذي يناسب جرحه.

سألني الفدائي الذي جلبها بداية:

«دكتور حمزة، ماذا نفعل بهذه الفتاة؟»

كانت تشخر.

على الرجل أن يعرف متى ينبغي أن يقف بعيداً عن امرأة. أنا أعرف. هناك أوقات يجب أن لا يمس المرأة غير المرأة. تعلّمتها. لهذا استدعيت النساء. كنّ نساء أخريات. نصَبْن حول أمك شبكة من التمتمة. من واحدة إلى أخرى، ومن الأخرى إلى أخرى، مشّيْنَها بأيديهن ببطء، وزحلقنها، ودحرجنها، وطيّرنها، وجلبنها.

بداية غسّلْنَها. خلّصْنَ شعرها الملتصق خُصلاتٍ بالدم. رغَيْن

Twitter: @ketab_n

صابون زيت الزيتون على يديها، ونقَلْن الرغوة بأيديهنّ إلى جسمها وغسّلْنه جزءاً جزءاً. نظّفْنَها كما يُنظفن أولادهنّ. أخَذْن من الماء، وصبَبْن على الماء. أشفَقْن عليها، وأحبَبْنها، وأضحَكْنها بلغة لا تفهمها. أدخَلْنها باب حياة آخر للحياة بصب الماء عليها. تحوّلن جميعاً إلى جسد واحد ضخم البنية، وحوّلن أمّك وأرجَعنها، استدعَيْنها إلى الحياة.

كانت أمك مثل حصاة صوّان، حصاة صوّان لم ير أحد مثلها في المخيم من قبل. كانت متجمدة. حتى دمها كان متجمداً. النساء يفهمن بهذا الأمر، سخنّ دمها بأيديهن، وأجْروه من جديد في عروقها. النساء لا يتعلمن هذا، يولدن وفي راحة أكفّهن هذه المعلومات. لهذا تبحث الفتيات الصغار عمّن يداوينه دائماً.

بعد ذلك، مشّطوا شعرها. أعتقد بأن النساء يشفين بعضهنّ بعضاً من شعرهنّ يا فليبينا. شكّلن دائرة شفاء شعرة شعرة، وطرفاً طرفاً. تفرّجت عليهن. مشطنَ شعر أمك الأسود الطويل وخلّصنه خُصلة خُصلة كأنهن يسحبن ما في عقلها ويخلّصنَها منه. لعل هذا ما يجعل النساء اللواتي يُردن إزالة نساء أخريات عبر التاريخ يحلقنَ لهنّ شعرهنّ في البداية. لأنهنّ يعرفنَ أن امرأة بلا شعر ليس لها ممسك تتمسك به، ولن تستطيع أن تفعل شيئاً.

أعطينها بنطلوناً أسود لفتاة ماتت حديثاً، وكنزتها الصفراء الفائحين برائحة الصابون. لم يملأ وركها البنطلون، وكان طرف من الكنزة طويلاً وطرف قصيراً. ليس ثمة ما يشهّي التقبيل أكثر من امرأة مُشط شعرها الطويل المنساب على طرفي وجهها المنوّر بالصابون وهو رطب. رأيتها في ذلك اليوم. وفي ذلك اليوم عرفت كم أنا متعب من الحرب التي أشاهدها من مستوصفي الذي يحتاج إلى ألف شاهد ليُسمّى مستوصفاً.

Twitter: @ketab_n

في المستشفى تفهمين الحرب يا فليبينا. هذه ليست حرباً، بل جبهة الرجال الخاسرين. ليست جبهة رجال، بل بقايا رجال. المشهد مؤلم لأنه لم يعد أحد يحارب. ليس بسبب الجروح، ولا بسبب الدم، وليس من اليأس والجروح المخيطة دون مسكّن. الرجال الذين تركوا الحرب مخيفون أكثر من المحاربين. عُريهم، وحَفْيهم، وأحلامهم المخيفة التي تتدفق خلف أعينهم المغمضة تجعل المستشفيات من أفظع الجبهات. يبدو لي دائماً أنهم إذا لبسوا أبواطهم وماتوا وهم لابسوها سيكونون منتصرين أكثر. هذه الجبهة التي تسمح بعيش الألم هي الجبهة الأكثر دموية في الحرب. لا تريدين رؤيتها.

في هذه الجبهة التي يحاول فيها الجميع أن يشفى يصرخ الرجال أكثر من الجبهة التي يقتل الكلُّ فيها الكلَّ. أنا كنت قائد هذه الجبهة: القائد الدكتور حمزة! والذين تحت أمري إما فاقدو الأرجل أو مقطّعو الأيدي.

حين وقفت أمك في اليوم التالي بباب هذه الجبهة الضيق، وقالت: «صباح الخير» جاءتني الضحكة. لأن أمك تتكلم الإنكليزية مثل الفلسطينيين يا فليبينا. هي أيضاً تعلّمت الإنكليزية لتعبّر عن همّها مثلنا، وابنة شعب لم يستطع أن يعبّر عن همّه أبداً. لهذا كانت تبدو دائماً غاضبة قليلاً وهي تتكلم الإنكليزية. كان سبب ظهورها بمظهر غير محبّب كثيراً حين وقفت في اليوم التالي بباب المستوصف وقالت «صباح الخير» هو: «أعطني عملاً!»

نحن الشعوب المهمومة لا نعرف الكلمات الإنكليزية الظريفة الراقية المختارة بعناية. لهذا فإننا يجب أن نحب الشعب المهموم مثلنا على الأقل لأنه يفهم الكلمات التي لا نعرف قولها وتبدو فظة، والفراغات اليتيمة التي نملؤها بالسعال.

كلّفتها بعمل لفّ الضمادات المعقّمة. طوال اليوم لم ترفع رأسها

Twitter: @ketab_n

وتنظر إليّ سوى مرّة واحدة. وأنا فهمت من ابتسامتها للضمادات المعقمة أنها رأت فيّ باب حياة آخر أيضاً.

ابتسمت أمك للضمادات المعقمة. وأنا خفت مثل أي شرق أوسطي يفكر في الوقت الذي سيفقد فيه الشيء الجميل في لحظة إيجاده. عندما نضحك كثيراً يا فليبينا نفكر ونحن نضحك أننا سنبكي قريباً، لذلك نقلب وجوهنا فوراً. أنت لن تكوني هكذا، لأن أمك ليست مثلي. ولكنها أحبّت رجلاً مثلي. أنا، حمزة أبو شعر. المعروف باسم الدكتور حمزة في مخيّم شاتيلا. الهيكل العظمي الجافّ!

...

Twitter: @ketab_n

٥

خارج البيروتيين المحظوظين الذين يستطيعون النهوض قبل موعد انقطاع الكهرباء، ويشغّلون المكيّف قبيل انتهاء برودة الصباح، ويرتاحون حين يتذكرون وجود مازوت في المولّد لحظة غطيطهم في الحلم، هناك من يبحث عن نافذتين في بيته تمرران تياراً ليفتحهما، وواحدة من تينك النافذتين في الطابق الأعلى من البناء الواقع أعلى نزلة الجعيتاوي، وتتدلى منها أغنية نصفها إنكليزي ونصفها الآخر عربي...

«Punk Arabs/ بونك(*) أربس!»

حين تجمّدت صورة النساء الشابات والرجال بألبسة غريبة وتعابير وجه أغرب على الشاشة، ترددت الكلمات عدّة مرّات:

«بونك... بونك... أربس... أربس...»

شباب ببنطلونات تستر قليلاً، وصدور عارية ملمّعة بالزيت، وفتيات بارزات الأثداء اللامعة في الشمس، مندفعة من شبه حمالات صدر يرقصن حول مدفع هاون، ويصرخون في الأغنية:

«نحن لسنا إرهابيين! نحن عرب البونك!»

مع تعاقب مشاهد انتقال القنابل اليدوية من يد إلى أخرى، وحكّ سبطانات الكلاشنكوف بين الأفخاذ صعوداً ونزولاً، والقفز من فوق

(*) البونك تقليعة جاءت بعد الهييز، وتشبهها... م.

Twitter: @ketab_n

مدفع الهاون، تختلط الأمور تماماً في عقل السيد هادي. بصعوبة كبيرة يرفع جفنيه المتاقلين بسبب التجاعيد الكثيرة، ويحاول أن يفهم. اعتقد أن الحرب قد بدأت من جديد، ثم ارتاح عندما رأى الأثداء، ونسي ما فكر فيه. وعندما رأى الكلاشنكوف مرة ثانية نظر إلى يديه ليتذكر الزمن الحاضر، فتذكر أن الحرب قد انتهت، حينئذ أطلق نَفَسه العجوز الذي حبسه سارحاً، وعاد قلبه إلى الخفقان مع أصوات الكلاشنكوف الصادرة عن الكليب. كانت قناة الموسيقى الشائعة التي فتحتها الست زينب من أجل التسلية تظهر وتختفي، وتمر على صدر السيد هادي ككابوس. تتسرع دقات قلبه وتتباطأ. ولا يتذكر السيد هادي أنه نسي كيف يغلق التلفاز. يخاف، ثم ينسى هذا أيضاً.

«لا نريد الحرب/ جنس ورقص/ هذا ما نريده/ نحن عرب جنسيّون!»

حين يَعرض الكليب شوارع بيروت، ينتبه إلى أن الاستغراب يذوب داخله مثل سكّرة قبل أن يصل إلى وجهه على شكل ابتسامة، ويذهب طعم الإحساس مثل حلم أفلت طرفه من يده. ما يعرضه الكليب يزيله بسرعة أكبر من سرعة نسيان السيد هادي. هل هذه التي يراها بيروت؟ أم أنه تذكر شيئاً ما أول مرة بعد كل هذه الأيام؟

«تعالوا إلى هنا وشاهدوا.../ كيف تلهو الفتيات كالمجانين.../ ولا نسأل أحداً منكم عن هويته.../ لأننا بونك، بونك، بونك.../ نحن العرب الجذابون!»

مر في الكليب شباب بالكوفيّات ركبوا سيارة جيب بالأسود والأبيض. كانوا قديمين جداً ببنطالاتهم الشارلستون، وأحزمتهم العريضة، وقمصانهم الضيقة ذات ياقة أذن الجَدي، وشواربهم وأعينهم، وشارات النصر التي يرفعونها. عندما يعود عرب البونك المائلون إلى السُّمرة كثيراً تحت الشمس باللون البرتقالي إلى الرقص

Twitter: @ketab_n

مرة أخرى يأتي سؤال: «ماذا يفعل هؤلاء الأمريكيون وسط الحرب؟» كأنه يتفرج على خيال طائر يحط ثم يطير.

لم يكن ما يثير عواطف السيد هادي هو نسيانه شبه خط الضوء المنتقل من ظلمة إلى ظلمة، بل لحظة التذكر التي تجعل الإنسان طفلاً وتُخجله. النسيان ظلمة خفيفة فاترة. أما التذكر فهو استراحة بائسة يقطعها مصباح نيون أبيض يُشعل فجأة فيقطع نوماً ظليلاً. ينتظر السيد هادي انطفاء هذا المصباح وغيابه. الفتيات يرقصن تحت كرة مرايا صالات الرقص وهن يلففن الكوفيات الملوّنة فوق حمّالات الصدر. وحينما يفقد السيد هادي بصره بسبب لمعان المرايا الصغيرة لكرة صالة الرقص التي تكبر مع قربها من الشاشة تظهر كتابة تجعل عينيه تحظيان ببؤبؤيهما:

«كل الذين أخذوا أدواراً في هذا الكليب هم عرب!»

بعد ذلك، ظهرت كتابات باللغة الإنكليزية وعلامات مسجلة.

اعتقد السيد هادي بأن منظمة التحرير الفلسطينية بعد إخراجها من لبنان أُسكنت في أمريكا. حين تذكر ركوب عرفات السفينة من ميناء بيروت نسي من هو عرفات. حين خطر بباله طرف ابتسامة ملتحية وكوفية ولباس كاكي، فقد كانت تخطر كلها معاً، اعتقد أن قنبلة قد انفجرت. بدأ كليب آخر.

نهض عن مقعده لكي يسأل الست زينب ما إذا كانت الحرب مستمرة، ولكنه نسي السؤال من لحظة نهوضه. من انتصر، هل انتصر أحد؟

مرّ من أمام المرآة دون أن ينظر إلى نفسه.

رأى الباب مفتوحاً. سار نحو الباب لأنه مفتوح. لأنه رأى سترته على العلاّقة - سترة - الخارج - هذا يعني سترة - زر - حذاء - لأن الخارج - كرم - ارتدى - حذاءه - الثاني - ببطء. لأنه رأى الدرج،

Twitter: @ketab_n

بدأ بالنزول. لأنه سمع باب الطابق السفلي قد فُتح وأُغلق نزل أكثر إلى الأسفل. ولأنه وصل إلى مدخل البناء خرج إلى الزقاق، ولأنه خرج إلى الزقاق بدأ يمشي.

أما كان الشباب أصحاب الأسنان البيض واضعو الكوفيات الذين مروا راكبين الجيب هنا قبل قليل؟ ترى هل كان مرور أولئك الشباب بعد معركة الفنادق، أم قبل حرب المخيمات؟ لا يمكن أن يكون هذه المرّة مخطئاً، فكل شيء حدث قبل قليل. يجب أن يكون هناك من يقول له إن ابنه على قيد الحياة. لأنه رأى كل شيء حدث قبل قليل. ماذا لو كان وحده يتذكر كل شيء؟ ولكن هناك ثقوب رصاص على الجدران، هذا يعني أن كل شيء حدث قبل قليل. كان الجميع سارحين في الزقاق، نعم نعم. هذا يعني أن الحرب مستمرة. يجب أن يذهب إلى الخط الأخضر. إذا استطاع العبور إلى بيروت الشرقية... أم أنه الآن في الشرقية؟ هذا يعني أن الحرب ينبغي أن تكون قد انتهت. وإلا كيف يسمح المسيحيون لواحد شيعي مثله أن يسكن في بيروت الشرقية؟ ولكن يمكن... نعم، نعم، عليه أن يتابع الخط الأخضر الذي يقسم بيروت إلى قسمين. إذا ذهب متابعاً خطاً معيّناً يستطيع الوصول إلى الخلف، إلى قبل قليل، إلى الحقيقة. لأن كل شيء حدث قبل قليل. إنه بحاجة إلى خط. خط يفصل بين الآن وما قبل، هنا وهناك، القديم والجديد، يشير أين يبدأ كل شيء وأين ينتهي. إنه بحاجة إلى خط من أجل التذكر والنسيان. حد يفصل بين خجله الأبيض البكر والعتمة الخفيفة الفاترة. إذا استطاع السير على خط يمكن أن يفصل بين الأثداء والكلاشنكوفات، وبين الكوفية وكرة صالة الرقص، ويعيد كل شيء من جديد إلى مكانه الحقيقي.

لم يعرف إن كان قد مشى كثيراً أم قليلاً. دائماً يحدث الأمر نفسه. لحظة يكون قلبه على وشك التوقف يصل إلى حيث يريد. هذا

Twitter: @ketab_n

أسوأ جانب في تذكّر الوقت. الجسد ينسى الوقت، ولأنه لا يذكره ببطء العجوز، كان يمشي بسرعة تذكره بساقَي الزمن الماضي. كانت ساقاه تقودانه دائماً إلى المكان نفسه. توقّف أمام المتحف.

أين الزمن؟ نظر إلى يديه. كان «الآن» هنا، وبالشبر. ولكن أين الزمن؟

«ولكن الجدران...» كان صوت إطلاق النار من طرفي الخط الأخضر على جدران المتحف في أذنيه. ولكن أين ثقوب الرصاص؟ نسي شيئاً مرة أخرى؟ هل يتذكر شيئاً نسيه الجميع؟ أم أنه نسي شيئاً يتذكره الجميع. ألا يذكر أحد أن بناء الذاكرة الحجري هذا كان مثقباً؟

«ولكن أين ثقوب الرصاص؟ أين خبّأوها؟»

هل صدر هذا الصوت العجوز منه. نظر إلى يديه. نعم، إنه صوته الحالي. الآن، هنا، يقف على يديه، في أخاديد يديه المتعمقة والمنفتحة على الألم.

صعد لأنه رأى الدرج. دخل لأنه رأى الباب. ومشى لأن أحد لم يوقفه. عَبَرَ الباب الداخلي بخفية الرجال المنسيّين الصامتين.

«لمن كانت هذه؟ هذه الحجارة والقبور والتماثيل... لمن هذه؟»

هل هذا صوته؟ نظر إلى يديه. نعم، له. «سيّد هادي، هاتان اليدان لك. أنت ما زلت هنا، وتصعد إلى الطابق الثاني لأنك ترى الدرج. هل يعرف أحد أنك هنا؟». عَبَرَ صدرَه احتمالُ ذاكرة كجناح طائر مكسور. ذاب الطائر.

ما أبرد الدرابزين الحجري، وما أملسه! كيف يتلوّى بانحناءات ظريفة نازلاً إلى الأسفل؟ توقف، ويبدو أنه فكر في هذا طويلاً، وتلمّس الدرابزين. حين رأى يده على الدرابزين تذكرت ساقاه صعود الدرج من جديد. وصل إلى الطابق الثاني. لم ينظر إلى حُرز المحاربين

Twitter: @ketab_n

المحمية حتى أذرعها الرفيعة بشكل كامل والباقية من عصر الفينيقيين أو المصكوكات الفضية المدموغة أو البلطات الذهبية أو السيّاح الذين يخرّبون الزمن القديم بشورتاتهم. انصبّ في الصناديق الزجاجية بوعي الأشباح المنزلقة. في الصندوق الزجاجي. أسند يديه إلى طرفي الصندوق الزجاجي.

تمثال صغير لآلهة متفحّمة... عاشت الحرب الأهلية...

قنّينة بقيت من قبل التاريخ وذاب زجاجها... ما بين عامي ١٩٧٩-١٩٩٢...

أدوات خليط من زجاج ومعدن وفخّار لا شكل لها انتفخت وبرزت، وخمدت وانسحقت... تأذت هذه الأدوات بسبب الحرارة المرتفعة التي أوجدها القصف العنيف...

أسند خده إلى الزجاج. فتح ذراعيه تدريجياً، واحتضنه... كان يعرف هذا الهمس المتضيّق عليه كالهمّ، ووَقْع الأقدام تلك، ونهايتي البنطال الكحلي القادمتين نحوه...

«عم هادي.. هيا.. هيا لِنرَ، يكفي هذا اليوم. اترك لنر. اترك يا حاج...»

بما أن حارس المتحف ينظر إليه بمزيد من الشفقة فهذا يعني أن عليه أن ينسى أكثر فأكثر... أم أنه سيغضب؟ ها هو يغضب الآن:

«طيّب، أين ثقوب الرصاص؟»

يجيب حارس المتحف عن السؤال نفسه في كل مرّة بالملل ذاته.

وبينما كانت يدا السيد هادي تنزلقان على الدرابزين الحجري البارد، ويشرد في يديه، كان الصوت يتطاير مبتعداً عن أذنه:

«هيا يا عم، المرّة الماضية أيضاً قلت لك. لقد أصلحوا المتحف ولم يعد هناك آثار رصاص.»

Twitter: @ketab_n

حين كان الحارس يقترب من الباب ممسكاً بيده كان ظل مروان الذي ظهر بالباب يتخلص من الضوء، ويتضح تدريجياً، ومع بسطه ذراعيه على وسعهما يعرّض جذعه، ويتحوّل إلى ظلِ حنون.

أثناء اقتراب السيد هادي من مروان اعتقد هذا أنه يقصد البيت، ولكن السيد هادي قال: «أرجعني» فقط.

Twitter: @ketab_n

٦

«هل يحمل كل شخص على ظهره قدر أرضه؟ أم أن هذه لعنتنا فقط؟»

أغلقت دنيز الهاتف الذي قال لها: «الجِمال! . . اركضي، تعالي!»، وذهبت إلى المكان الذي حددته لها ريما. كانت واقفة في زاوية فتحة زقاق كورن ماركت على شارع برود. تحدثت بوجه لا يحمل أي تعابير لشدة السخرية من وجود جملَيْن في هذه النقطة التي تُعدّ وسط أكسفورد بالضبط. عينا ريما الخضراوان واسعتان في الأيام العادية، ولكنهما اليوم أوسع بصورة مخيفة.

لم تستطع دنيز أن تقول سوى: «لا تضايقي نفسك». نظرت إلى كتفي ريما الهابطتين كأنهما سيخرجان من مكانهما. لم تر فلسطين بلد أبويها غير مرة واحدة في حياتها، وهذه كانت رحلة لمدة أسبوع في السنة الماضية. وهي تقف الآن أمام جملين جلبهما الطلاب الإسرائيليون إلى أكسفورد غير عابئين بالنفقات والإجراءات البيروقراطية التي تستغرق شهوراً من أجل الاحتفال بذكرى تحرير بلدهم كما يقولون، وكأنها تحمل كل تلك الأرض على ظهرها. ومثل كل طفل يعرف وطنه من أبويه الباقيين دون وطن، تحمِل هذا الوطن في ثقب من قلبها لا تعرف مكانه.

«هل تعرفين؟ يحتفلون بتحرير إسرائيل بالحمّص وبدلات رقص

Twitter: @ketab_n

شرقي تلبسها الفتيات. الحمّص لنا! الجميع يعرف هذا! الحمّص لنا!»

حين انتبهت لنفسها كيف تضرب على صدرها، وتحملق بعينيها، وتصرخ من أجل الحمّص المجلوب من مطعم لبناني يقدم مأكولات بيروتية كأنها تزيل عنه التراب، بدأت تضحك:

«يا إلهي، كل شيء عبث شديد!»

قالت دنيز: «حقيقة هكذا» وأشارت برأسها إلى مجموعة الطلاب العرب والأتراك القادمين. كانوا يحملون لافتة أُعدّت مساء أمس كُتب عليها:

«جِمال في أكسفورد! ماذا عن الفلسطينيين في فلسطين؟»

نظرتا إلى القادمين، وتنهدتا، ودسّتا أيديهما في جيوبهما.

قالت دنيز: «على الأقل عُرف سبب التظاهرة. الجِمال الصهيونية الغدّارة!»

قطّبت ريما حاجبيها، وزمّت شفتيها بجدّية، وسحقتهما قبل أن تنفرجا عن ابتسامة. بعد أن تبادلتا التحية مع المجموعة بالعربية والتركية والإنكليزية، وعبّرتا عن الكره المشترك لعملية الجمال، ودخلت بعض الجمل التي استخدمت فيها كلمات «خلص! طيب! بس!» وسارتا، بدأت الهتافات:

“Palestine! Palestine! Occupation is a crime!” / «فلسطين، فلسطين! الاحتلال جريمة!»

تحاول دنيز الاعتياد على صوتها الذي لم يطلق الهتافات منذ سنوات طويلة. التظاهرة مستمرة، وهي تلعب بدرجات صوتها. انتبهت أنها عندما تصرخ بصوت خفيض تسمعه بشكل أفضل، ولكنها إذا صرخت كالباقين فإن صوتها يضيع مع بقية الأصوات. هذه هي رياضيات الصوت إذاً.

ولكنها عندما تصرخ بأعلى صوتها لا يزعج صوتها أحداً، الصوت

Twitter: @ketab_n

يكون حلواً حين يذوب بين أصوات الآخرين. بعد فترة لم يعد لما تقوله ولا لتفكيرها في معنى الهتافات التي تصرخ بها أية أهمية. شيء ما يُفرغ من قلب الإنسان. وعندما يكاد وجهها يتشقق من الصراخ تتخلى عن متابعة نفسها. شعرت بأنها خفّت، وذابت بين الآخرين، واختفت. وعندما أفلتت نفسها لهذا الدفق الذي يمنح الطمأنينة قالت:

«ماذا يحدث لك يا بنت؟!»

حين لمستها ريما من ذراعها، انتبهت دنيز كم كانت فاقدة وعيها:

«ماذا جرى، ألستُ شرق أوسطية أيضاً؟»

«الله الله، هذا يعني أن الآنسة المحترمة قررت اليوم أن تكون شرق أوسطية. حسنٌ إذاً، خذي هذه المنشورات، وابدئي بتوزيعها لِنرَ.»

دسّت بيد دنيز منشورات طُبعت على ورق زهري وأزرق وأخضر وتشرح «للذين بدؤوا حديثاً» كيف سرق الإسرائيليون أراضي الفلسطينيين. أغلق الطلاب الإسرائيليون شارع بورد كله، ومن يجرؤ على التسلل من بين الفلسطينيين ويصل إلى الشارع، يقدمون له، أو يبيعونه، أو يعرضون عليه، أموراً كثيراً من المعقود إلى الأدلة السياحية، ومن الكتب السياسية إلى النارجيلة من منصّات عرض منصوبة على طرفي الشارع. مكان الاحتفال الذي أسّسوه بابتسامة عملاقة مشتركة مصطنعة يتحوّل إلى توتّر مع صراخ المحتجين الواقفين في بداية الشارع. وبموجب اتفاق تم بين الطرفين يقطع الفلسطينيون هتافاتهم حين تغني الفرقة الموسيقية المجلوبة من إسرائيل، وحين يهتف الفلسطينيون يكتفي الموسيقيون بدَوْزنة آلاتهم الموسيقية.

خجلت دنيز بداية مثل كل إنسان لم يوزع منشورات من قبل، ثم تحوّل خجلها إلى غضب، وبعد نصف ساعة إذا لم يأخذ كل مار منشوراً تنظر إليه نظرة توحي بأنها تحمّله ذنباً عظيماً. بعد فترة طارت

Twitter: @ketab_n

هذه الفكرة من رأسها، وهي أنها تبذل هذا الجهد من أجل القضية الفلسطينية رغم أنها لم تشارك في أي تظاهرة حتى الآن من أجل بلدها، وصار وجهها يشبه وجوه العربيات والتركيات الأخريات اللواتي يوزعن المنشورات.

«ماذا تفعلين أنت هنا؟»

تناثرت المنشورات الزهرية والزرقاء والخضراء من يدها برعشة صوت كأنه يأتي من عالم آخر. كان طونتش فاتحاً ذراعيه، وينظر إليها نظرة تتردد بين الدهشة والسخرية.

قالت دنيز وهي تجمع المنشورات: «ساعدني».

همس لها طونتش: «أراك لاحقة العرب والجرب» من جديد. وتناثرت الأوراق من ملفّ كان يحمله حين انحنى ليساعدها.

«... الحركات الإسلامية المؤيدة للعنف...»

رأت دنيز عدة كلمات مكتوبة بحروف داكنة على الأوراق.

«ما هذا؟ هل بدأت جمعيتكم الفكرية الترويج للإسلام المعتدل؟»

حين قال طونتش: «لا تبدئي الآن يا دنيز. ليس هنا المكان المناسب» تلفت حوله. ابتسم لريما، ولوّح لها بيده.

بعد أن جمعا أوراقهما بسرعة، ونهضا، تبادلا نظرات سأم وتحدٍ.

كان طونتش يتمتم:

«جلبت هذه لك. دعوة من اجتماع باريس... لعلها تجذب...»

تَعِبَ طونتش من أنفاسه، فترك جملته ناقصة. وحين انحنى بالسأم نفسه ليقبّل دنيز، مد يده إلى خصرها...

«لا تلمس خصري!»

«خير؟»

«أشعر بنفسي سمينة... يعني سمنت... لا علاقة لك أنت.»

قال طونتش: «حسنٌ، كثرت الأماكن التي تُحب فيك» على أمل

Twitter: @ketab_n

أن يتذكر ابتسامة قديمة، ويستدعي ابتسامة من الماضي لوجه دنيز. لم يحدث شيء من هذا.

«أنا ذاهب إلى البيت إذاً. ترينها في البيت.»

قالت دنيز: «حسنٌ». وتبادلا قبلة من أطراف الشفاه، وانفصلا. تحولت المنشورات بيد دنيز إلى كدس ورق أهبل وطفولي. ألمّ بها شعور بالضيق ناجم عن إحساسها بأن الجميع ينظرون إليها.

«دنيز! تعالي إلى هنا! اركضي!»

كانت ريما تصرخ وتكاد عيناها تخرجان من محجريهما. أثناء جمع دنيز للمنشورات، دخلت مجموعة من الفلسطينيين بسيارات فيها شباب وأولاد يحملون لوحات ولافتات، ومن المحتمل أنهم جاؤوا من أحد أحياء أكسفورد المتطرفة، وبدؤوا يهتفون: «الموت لإسرائيل!». كانت لباقة التظاهرة على وشك أن تترك مكانها لتوتّر شرق أوسطي حقيقي. وبسرعة فائقة كانت الشرطة الإنكليزية قد اصطفت في مدخل شارع برود بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وخلف الفلسطينيين. أشارت ريما إلى طرف الإسرائيليين. وبينما كانت تكز على أسنانها مطلقة الشتائم، قالت دنيز: «يا ربي دخلك، لا يمكن أن تكون هذه حقيقة» قالتها ثلاث مرّات.

أقام الطلاب الإسرائيليون في أكسفورد لأنفسهم شريطاً أمنياً خلف الشرطة. كانوا يضعون نظارات شمسية زجاجها مرآة من النوع الذي يفضّله عناصر الجيش الإسرائيلي، وفي آذانهم سماعات بأشرطة بلون البشرة من النوع الذي تستخدمه الشركات الأمنية الخاصة. وكلهم عاقدون أيديهم على صدورهم، ينظرون إلى نقطة واحدة، ومُنتصبين كأنهم من حجارة معطين التدريب العسكري الذي تلقوه حقه.

لم تكن ريما تستطيع إخفاء مزيج الدهشة والغضب في صوتها:

«هؤلاء جميعاً فيهم شيء من الموساد يا أختي!»

Twitter: @ketab_n

قالت دنيز ويداها في جيبيها:

«هذا يعني أن كل شخص فيه شيء من قدره يا أختي الحبيبة!»

تلفّتت دنيز يميناً ويساراً. الشارع كله إسرائيليون، وأول الشارع وآخره إسرائيليون، ومجموعة فلسطينيين محاصرين في ساحة صغيرة بالشرطة. أومأت برأسها إلى ريما نحو المشهد الذي رأته.

قالت ريما: «نعم. وسط أكسفورد قطاع غزة ملعون!»

الاثنتان لم تضحكا. حين سئمت ريما مما رأته إلى الحد الكافي، انحنت على أذن دنيز، وهمست لها ضاحكة وسط الهتافات:

«ماذا حدث؟ هل قررت أين ستدفنينه؟»

Twitter: @ketab_n

٢٧ تموز/يوليو ١٩٨٢، شاتيلا

فليبيناي، كبّتي اللذيذة؛

يجب أن أصف لك مخيّم شاتيلا الذي وجدته أمك حين أتت. لأنك عندما تكبرين قد لا تجدين أحداً يتذكر هذا المكان. وإذا استمرت الحرب بهذه الشدة فلن يبقى من يتذكره.

هكذا هي هذه الأرض يا فليبيناي الحلوة. الذكريات من أجل أن تُنسى. الكل ينسون ذنوبهم، ولكن لا أحد ينسى ثأره. والشرق الأوسط - ليس مصادفة أن تكون الآلهة كلّها وجِدت فيه - مبنيّ بالذنوب. وبعدد الأسلحة هنا توجد تواريخ. تضيعين في قصصها إذا حاولت فهمها. هذه لعنة الشرق الأوسط: لعنة عدم فهم الذين خارجه، ولعنة اعتقاد من يدخله أن كل شيء في العالم سراب لا أهمية له.

هناك شيء واحد ينبغي أن تعرفيه عن هذا البلد الحبيب الذي ترينه في خريطة العالم صغيراً بقدر خطأ مطبعي: الجميع قتل الجميع. وأعتقد أن هذا تاريخنا الوحيد الذي نتفق عليه جميعنا.

ولكنك حين تنظرين إلى هذه الأرض من داخل فظاعتها لا ترين هذا يا بنتي الحلوة. لهذا سأحكي لك عن محلّة شاتيلا التي رأيتها، عن بيروتي.

كبّتي الصغيرة؛

يوجد هنا أبنية متشابكة كسيقان الذين يدبكون متكاتفين، بيوت تتماسك تماسك الناس الباكين على ميت.

Twitter: @ketab_n

تُبنى البيوت بشغب. طينها مزيج غضب وتذمّر وصخب. زفتها حر، وطين جدرانها جشع. ليست كأبنية الغرب الهادئة الملتفتة نحو المستقبل غير المهمومة، واللّيّنة العريكة. هذه الأبنية تنظر إلى بعضها البعض، وإلى ما هي محرومة منه، وحظها الذي لن يضحك لها مهما فعلت. تعرف هذه البيوت منذ إنشائها أن هؤلاء الناس المضروبين كثيراً سيحبونها كما يحبون أولادهم المعاقين، بحزن وأحلام باءت بالفشل.

تمتلئ تلك البيوت وعتبات أبوابها بالأحذية بسرعة كبيرة، أحذية مغبرّة ومكسورة الكعاب، مخلوعة على عجل دائماً. مع كثرة الأحذية يزداد البناء فقراً، وتفوح رائحة الناس. تُغلق الأبواب أمام الأحذية، وأثناء الحديث تُسمع أصوات تركب بعضها بعضاً تارة، وتنقطع تارة. عندما تُوارب الأبواب تُفرغ الأصوات المتروكة خلفاً في بيت درج البناء. ولحظة انهيار تلك الأصوات بكارثة يختفي حذاء من بين الأحذية. تُسحق الأحذية الأخرى، وتنطلق تحت الأقدام في طريق الثأر. تعود الأحذية في ما بعد صامتة، وتُضجع على جنب، وأحدها فوق الآخر منهكة باصطفاف جديد. في الحقيقة تستطيعين مشاهدة فقر حياة مَن في الداخل مِن أحذيتهم.

أنت وُلدت فقيرة يا فليبيناي. كما قلت لك، ليس لديك سوى قصة. ولكن احذري أن تنسي، الفقر كالحرب. لا يظهر الأذى الذي يتسبب به إلا عند النظر إليه من الخارج. لهذا احذري من الابتعاد عن الفقراء. أنا هكذا تغلبت على الحرب، بعدم خروجي خارجها. بقيت داخلها لكي لا أُجنّ.

عرفت أن الأطفال أسرع من ينسى الحرب والفقر يا فليبيناي. وفي شاتيلا قطع أرضٍ صغيرة يملؤها الأطفال. تلك فراغات لم تُطلق عليها تسمية. لا يمكنك أن تري قطع أرضٍ كهذه في مدن أوربا المنتخبة. وهذه موجودة في الشرق الأوسط كله، وموجودة منذ زمن بعيد. ولابد

Twitter: @ketab_n

من وجود خربات في تلك الأراضي. تتحول الخربة إلى إشارة اسم يذكّر بذلك الفراغ، وبالأطفال الذين يضجون بالحركة حول الخربة تشبه أنقاض سفينة. يشكل الأطفال حياة حولها، وكما تبدأ حياة مع السفن الغريقة تحت البحر تشكل هذه الخرابات حياةً مع الأولاد. يؤسس الأطفال أعشاشاً كالأسماك، ويتحول المكان إلى ملجأ يبيضون فيه ألعاباً واختراعاتٍ مختلفةً. ويتجمّل، ثم يغدو هذا الشكل الخرب والمكسور بعين الناس الذين يعيشون داخله شكلاً مصمّماً مسبقاً، وما يجب أن يكون عليه. أطفال الشرق الأوسط يا فليبيناي يحبون بلدانهم المجروحة كما يحبون تلك الخرابات. ويتعلمون الحب في تلك الخرابات. لهذا فهم لا يستطيعون أن يحبوا سوى الناس المجروحة قلوبهم.

يركض الأولاد الذين يرون في الطين رجلاً، والخربة جنة، بين هذه البيوت التي تتراصّ في ما بينها أكثر مع الزمن ليحموا جدرانها من الالتصاق. الأزقة الضيقة بين الأبنية مثل السحاب، عندما تبقى وحدها تغلق، ولكنها تفتح مع صوت اللحم العاري الذي تصدره أقدام الأطفال الراكضين.

يا بنتي ذات العينين الفلسطينيتين، لا الحرب ولا الخرابات سيئة إلى هذا الحد. سأشرح لك هذا. سأحكي لك عن أمك وعن الحرب. ولماذا بقيتُ هنا. ولكن اعلمي هذا: كل من يعيش في بيروت لا بد أن يشبهها في النهاية. هناك شيء واحد تحاول نسيانه، ولا تستطيع أن تخرجه من بالها.

...

Twitter: @ketab_n

٧

من استيقظ صباح ذلك الأحد إلى درجة التخطيط ليولم لنفسه إفطاراً شهياً يتخيّل كنافة بين شريحتي خبز همبرغر، مما هو مستغرب في البلدان التي لا تُستهلك فيها الكنافة إلا كحلويات بعد الطعام. ولكن فم جان المنحني على نافذة الطابق الأول من بناء نزلة الجعيتاوي مُلئ منذ زمن بطين السجائر، وفقد مزاجه إلى حد يستحيل أن يتخيل معه إفطاراً شهياً.

لم يكن في وضع يمكّنه من إخبار الست زينب بخروج السيد هادي من البيت ماشياً كشبح. حين مد رأسه من النافذة لابساً سروالاً داخلياً ماركة كالفين كلاين وأشعل السيجارة الثانية من الأولى كان رأسه مشغولاً بتذكر اسم المرأة المتمددة الآن عارية على سريره. يتذكر أنها واحدة من الصحفيين الأمريكيين الذين يشكلون جزءاً من الصحفيين القادمين إلى بيروت بسياحة حزب الله، وأنها أغوته في كافتيريا براغ لمجرد أن تستمع منه لقصص الكتائب في الحرب الأهلية، وأنها تلتذ باحتساء مشروب العرق بالكرز الحامض التافه، ولكن ليس لها اسم في سجلاته. أطلق نَفَسه من أنفه، وضحك ضحكة انزعاج.

«ماذا تكون لك؟»

يجب أن يكون قد خطر بباله هذا السؤال الذي سمعه عشرات المرات في فترة الحرب وهو ينظر إلى الفتاة الممددة على السرير بسبب

Twitter: @ketab_n

روايته طوال الليل قصص الحرب الأهلية. في الحقيقة لم تكن له أية علاقة مع أي من الفتيات اللواتي كنّ يرافقنه أثناء عبوره من بيروت الشرقية إلى الغربية في الثمانينيات عندما كان الجنود يتأملونهن من فروقهن إلى أقدامهن. ولكن الجنود كانوا يسألونه هذا السؤال لمعرفة ما إذا كانت امرأة يمكن النوم معها أم لا:

«ماذا تكون لك؟»

«أنا أحاول النوم مع الفتيات لكي لا أفكر في الرجال. كفى! تأخر الوقت كثيراً على قول الحقيقة».

لو حدث هذا اليوم لما قالها. ما زال الوقتُ متأخراً كثيراً على قول الحقيقة. لم يكن يستطيع قول الحقيقة حتى في صالة الفن المعاصر، أو في مقهى براغ، أو بين عناصر تصميم بيته على طراز «Caviar de gauche/ يساريّ الكافيار». من يقول إن الحرب انتهت؟ ما زال مضطراً للمحافظة على «الموقف»، كما كان مضطراً لحماية نقطة التفتيش المحاطة بأكياس الرمل التي وضعوه فيها بعد أن سلّموه سلاحاً وهو في الخامسة عشرة من عمره. ومن يوم تطبيقه تدريبه الكتائبي الذي خضع له في الجبل في ميدان الحياة الحقيقية، وبدأ يحرس حاملاً السلاح خلف أكياس الرمل، استمرت الحياة الحقيقية، وعليه دائماً أن «يحافظ على الموقف» في الحياة الحقيقية.

توتّرت أعصابه بسبب عودته إلى ذكريات الحرب هذا الصباح الباكر بسبب هذه الأمريكية الساذجة. رتّب حاجبيه كما يفعل دائماً عندما تتوتّر أعصابه. تناهت إلى أنفه رائحة تلك الأيام. زبالة وخوف، معدن ورطوبة... انتبه أن الرائحة تأتي من مزبلة الكرنتينا شمال المدينة، فارتاح. هذا يعني أنه لم يشرد كثيراً. حين تناهت أصوات ممارسة الجنس من الطابق الذي فوقه صحا رأسه:

مرّر في ذهنه شتيمة: «الأرمنية المسعورة سيتانيك المنيوكة».

Twitter: @ketab_n

سيكون جيداً أن تستيقظ هذه الأمريكية وتذهب في أسرع وقت. ولكن النساء يردن أن يتحدثن. وبالتأكيد سترغب في الكلام. كان يكره كل الأجانب الذين يأتون إلى هنا من أجل القصص، وعندما يرون أن القصص معقدة جداً يفلتون أنفسهم لحياة بيروت الليلية. ماذا قالت الفتاة:

«أنا منفية. مشرّدة الزمن المعاصر! كأن بيروت تأسست من أجلي! أليس الجميع هنا مشرّدين تقريباً؟»

بدلاً من أن يقول لها: «طبعاً حبيبتي، دعينا نرَ ماذا ستقولين عندما تنتفك هذه المدينة، وتجعلك بلهاء»، تذكر أنه فضّل أن يقول لها: «نحن كلنا مثلك حبيبتي». تتضاعف المرأة في المرآة التي تغطي الجدار مقابله، وتتضاعف حرقة معدته أيضاً. حتى الآن ليس للفتاة اسم في عقله.

لأنه قال لنفسه: «أين تأخر هذا الرجل، لو يظهر قبل أن تستيقظ هذه الفتاة...» رتّب حاجبيه من جديد. لم تتحرك ورقة في الزقاق منذ أن ركّب ناصر فليبينية الست زينب في سيارته. خرج السيد هادي من البناء ليضيع كما في كل مرّة. عليه أن يصرف الفتاة فور استيقاظها.

خرج مروان إلى أمام البناء حاملاً أكياس نايلون. كأن بمسيره فقط تموّج الهواء تحت شجرة البرتقال فتناهت رائحة زهره إلى أنف جان. فتش بأنفه متوقعاً إيجاد رائحة مروان وسط الرائحة المتصاعدة إلى الأعلى.

«صباح الخير جان!»

نهض كأن رصاصة أصابته في ظهره بعد أن دخلت من فتحة في أكياس الرمل وهو يحرس في نقطة التفتيش وعمره خمسة عشر عاماً. استيقظت الفتاة. امتلأ البيت بصوت إذاعي بلكنة أمريكية رهيبة كأن قناة «الاستعراض الكوميدي/ Show Comedy» بقيت مفتوحة. بما أنها

Twitter: @ketab_n

بدأت من الآن بتحبب الحديث بالعربية، يبدو أن هذا الصباح سيطول كثيراً. رتّب حاجبيه، وقال بإنكليزية كالثلج:

«صباح الخير!»

«ديبرا!»

«ماذا؟»

دسّت المرأة اسمها في الرد الذي يجب أن تتلقاه بأظرف حالاتها وأكثرها تحمّلاً:

«صباح الخير ديبرا!»

التفت جان إلى الخلف، إلى مروان دون أن يقول شيئاً. سمع صمت الفتاة الذي قرر ما يجب أن يفعله، ورأى تصميمها على الاستمرار بلعبة التحبب، وترددها بضيق حول ما إذا كانت ستفيد اللعبة أم لا. إنها تلف نفسها بغطاء الفرشة بالتأكيد. ترى هل تفكر في ما يجب أن تفعل كما في الأفلام الفرنسية؟ بالتأكيد، إنها تكرر فيلماً في رأسها مثل أي امرأة. مثل أي إنسان يائس.

«آآ؟ ماذا يفعل هذا الرجل؟ ما هذا؟»

مدّت نفسها ديبرا نحو الوراء، وتجرأت حتى على سحب السيجارة من يده. رتّب مروان حاجبيه، وابتعد عن النافذة، وحين نظر إلى الأعلى من أجل صوت المرأة لم يردها أن تراه:

«إنه يحضّر شجرة الخبز»

«يعني؟»

فكر أنه يمكن أن يخنق الفتاة. هؤلاء الأجانب الذين قرؤوا عن بيروت في الكتب الإنكليزية، وحفظوا من الكتب ذاتها الكلمات التي يعتقدون جازمين أنها تكفيهم للعيش في بيروت كم يجدون أنفسهم خارج السرب: يعني، خلص، إن شاء الله، حبيبي...

Twitter: @ketab_n

«انظري يا عنبر. . .»

فجأة تشكل في وجه الفتاة وجه فتاة ميتة. فتاة عالمية بالضبط، دون عثرة. انسحب جان بفراغ الزمن، وقُذف إلى سنين طويلة مضت.

كانوا ثلاثة. ثلاثة أصدقاء في السادسة عشرة من أعمارهم. إدوارد، شادي، جان. ثلاثة صبيان. حين اشتدت الحرب هاجرت عائلاتهم إلى الجبل مؤقتاً. كانوا في الكورة، في الأعلى. كانت الكتائب تسيطر على ميناء بيروت. وكل شيء يباع في الميناء. «بالتأكيد يوجد غيتار، بالتأكيد!» سيجد لهم أحد المسؤولين في الكتائب غيتاراً بالتأكيد. قرروا أن يذهبوا في الخامسة من ذلك الصباح. كانت أسوأ أيام الحرب. يجب أن يكون عام ١٩٧٥. بالتأكيد عام ١٩٧٥. لعله عام ١٩٧٦. سيشكلون فرقة موسيقية. كان جان عاشقاً بشكل رهيب لشادي، لهذا كان يحاول إغواء فتاة. ما اسم تلك الفتاة؟

في الخامسة صباحاً أتى إدوارد، ولكن شادي لم يأتِ. كانوا سيسمون الفرقة «No Name/ بلا اسم» ولكن شادي ليس هنا. مع أن جان يعشق شادي من يوم رآه يستمني على أجزاء من فيلم «Melita» الذي كان يعرض في سينما ستي بلاس.

حين قال لإدوارد: «لا تهتم أخي! الفلسطينيون يطلقون النار على الكتائب في الميناء. لن يدخلونا. أنا تراجعت. لن أذهب» كان وجهه هكذا بالتأكيد.

«انظري يا عنبر. . .»

«لست عنبر. ديبرا. . .» تشتت صوت المرأة مثل زئبق ميزان حرارة. تراكضت قطع الصوت الصغيرة وهربت إلى تحت الموبيليا.

«Sorry! ديبرا، أنا عليّ أن أذهب إلى الشغل. إذا أمكن. . .»

في أثناء قوله الجملة كانت الفتاة قد ارتدت سروالها الداخلي وحمّالة صدرها وتلبست حركات امرأة لا تهتم لوجود رجل. حين

Twitter: @ketab_n

بدأت تقول مترددة ومتوترة: «ولكن البارحة ليلاً. . .» فنص جان هذه الجملة براحة كأنه قنّاص في نقطة مراقبة خلف أكياس الرمل يسدد على سيارة تقف على الضوء الأحمر:

«أهلاً بك في بيروت يا عنبر. . ديبرا! هنا لا تجدين أي شيء كما تركتِه ليلاً!»

حين صفعت الفتاة الباب، وخرجت، انحنى على النافذة، وأشعل سيجارة أخرى. شعر بالضيق لأنه أقدم على هذا الظلم.

خطر بباله يوم وفاة شادي. كان متمدداً وفي مخ ابن السادسة عشرة رصاصة بجانب بندقيته في مراسم تشييع الشهداء في بيت الكتائب، وجان يشعر بالراحة. ارتاح قلبه لأن الشاب الذي يعشقه مات - الموت للفلسطينيين الذين يريدون سلبنا لبنان والخونة الذين يدعمونهم -. دفن ذنوبه وأخطاءه في بئر الحرب المظلم. الظلم يتخمر منذ كان في السادسة عشرة من عمره، وأثناء نموّه كالورم يأكل لحمه.

حين نزلت عنبر أو ديبرا إلى الأسفل بخطى صاخبة رمقها مروان وهو يحمل أكياس النايلون من رأسها إلى قدمها، ومن قدمها إلى رأسها. رجلٌ سافل! يجب أن تكون الفتاة قد سألته «إلى الحمرا. . يعني. . كيف؟ يعني تكسي؟» لتعرف كيف ستنقذ نفسها من الأشرفية، كان مروان يمسح الفتاة بأشعته عندما أشار بأصبعه إلى الشارع، ودلها إلى الجهة التي يجب أن تذهب فيها. حينما كانت الفتاة تلوّح بطرف فستانها نحو اليمين ونحو اليسار نظر مروان إلى الأعلى. لأن جان أمسك به قبل أن يبتعد عن النافذة حرّك يده بإشارة مترددة ومسكينة. وبابتسامة بدرجة المسكنة نفسها تكسّرت في فمه عبارة: «صباح الخير»، وذابت داخله. رد مروان بنظرة من أقذر ما يمكن. حين عاد لربط أفواه الأكياس كان جان في الأعلى قد ابتعد عن النافذة، ويرتب حاجبيه.

Twitter: @ketab_n

قال لنفسه: «لم ينس السوري الوسخ! لم ينس ذلك اليوم بأي شكل» وكأنه يبصق في داخله. وضع في المسجلة سي دي لسعاد ماسي. وسيتصرف كأن شيئاً لم يكن، كما يفعل دائماً.

Twitter: @ketab_n

٨

«ما ضرورة القول للمخبول بيتر؟»

غضبت من نفسها إلى حد أن أحشاءها الداخلية انخلعت من أمكنتها وتصادمت في ما بينها. الخجل الممزوج بالغضب يهز جسمها كريح تصفع وجه راكب دراجة نارية يقود بسرعة.

«أوه! سلام دنيز! إلى أين هكذا؟»

يمكنها القول إلى «المكتبة» مثلاً. يمكنها القول إلى «الكلية». لم يكن التقاطها على حين غرّة، ولا فشل الأطفال المتربين تربية جيدة إلى حد الملل بالكذب بشكل فجائي، سبب عدم بصقها الحقيقة. وبما أنها تعلمت أخذ لحظة صمت لتصوغ الجملة المناسبة التي يجب أن تقولها بدلاً من الإجابة فوراً... فهذه حالة قبض بالتلبّس لا معنى لها.

بدأ عقلها المهتز بالغضب يستدعي بقية الغضب الذي يلفّها. لأن كل الأمور التي تُتلف أعصابها يجب أن تتطاير في عقلها معاً! لأن هذا كان «عقلها الشرقي». لأن المشرفة على أطروحتها السيدة طرابلسي - حين خطر ببالها هذا الاسم تصادمت أحشاؤها الداخلية مرة أخرى - شخّصت الوضع على النحو التالي:

«نعم يا عزيزتي دنيز، جمْع كل الأشياء معاً وجعلها مثل كبّة خيوط، ثم البحث عن مخرج هو طريقة تفكير شرقية. العقل الغربي يتجه للفصل بين أجزاء المشكلة. الشرقيون لا يفكرون من أجل الحل.

Twitter: @ketab_n

الغربيون يفكرون من أجل الحل. الحياة بالنسبة إلى الشرقيين لا تتطلب حلاً، بل تُترك لمجراها.»

عندما تابعت المشي أغمضت عينيها، وهزت رأسها بقوة إلى الجانبين مغيّرةً مواقع شياطين الكابوس داخل عينيها. حين بدأت تمشي، أضيفت شدة تحمّلها لطونتش الليلة الماضية إلى بيتر والسيدة طرابلسي.

«دنيز، إذا كانت حالتك حتى الآن هكذا بسبب العملية يمكن أن نتكلم.»

في لحظة انتبهت كيف قسّم طونتش مشكلة كلمة «العملية» إلى «أجزاء غربية». جسمها، طفل محتمل، علاقتها... واختار طونتش أن يسحب من بين كل هذه «الأجزاء» الجزء المسمّى «عملية». كان الحديث يأتي ويذهب في عقلها مثل شارة إذاعة ضعيفة:

«دنيز، إذا كانت العملية المشكلة...»

«لا تفتح هذا الموضوع كل فترة. أنا أريد أن أنسى.»

«ولكن النسيان...»

«النسيان ماذا! أنت أيضاً إنسَ، ولا تذكرني أبداً.»

ما الداعي لإخبار بيتر عليه اللعنة! أرادت أن تلقي حبل السُّرّة الجاف والملفوف بشاش معقّم في جيبها في أي صفيحة زبالة في زقاق ليتل كليرندن. ولكنها تخلت عن رمي حبل السرة الذي دسّته أمها في جيبها قبل أشهر في المطار، ونسيت لأي ولد هو أو بنت من الجيران كما تخلت عدة مرات، واستمرت بالمسير في اتجاه مركز الشؤون الأوربية لتدفنه. سيدفن حبل سره في أكسفورد من أجل أن يصبح ذا شأن في المستقبل، ولأن الفرع أو الكلية لم تُحدد لها، وقع على عاتقها هذا القرار المهم: بما أن والديه أرادا لولدها أن يتخلص من خراء الشرق الأوسط، ويعيش حياة أوربية نظيفة، لابد أن مركز الشؤون

Twitter: @ketab_n

الأوربية هو المكان الأنسب. غير هذا، مجرد كلمة «أكسفورد» تكفي للذين في اسطنبول. وهكذا ستنتهي الأسئلة الممزوجة بالمزاح على الهاتف منذ أشهر: «هل دفنت الحبل السرّي دنيز؟» وستُنقذ حياة شرق أوسطي آخر! ولكن ما الضرورة لقول كل هذا لبيتر؟

وكلما فكرت في طرح هذه المسألة التافهة والسخيفة محمّلة بشهادات جدية، ومدعومة بمراجع تاريخية في اجتماع الشاي الذي تعدّه السيدة طرابلسي لطلابها في الدكتوراه، ترغب في الجلوس في منتصف الطريق. سيبحث بيتر بترهة «الحبل السرّي» هذه بالتأكيد:

«هذا يعني أنهم يؤمنون بأن للجسد ذاكرة. إنه إرث وثني. هكذا بالتأكيد. لأنه حسب نتائج بحثي لا يوجد أمر كهذا في الإسلام. هل يعتقدون بأن الحبل السرّي سيناديهم من جديد يا دنيز؟ أم أن هناك سبباً آخر؟..»

كان وجهُ بيتر الباحث خلف كؤوس الشاي التي ستوضع قيد الانتظار، ومناديل الشاي على حافة الطبق ممتصة قطرة الشاي المسكوبة، وقطع الخبز الباقية من السندوتش المثلثي المقضوم من منتصفه، ورائحة الحليب المذكرة برياض الأطفال، وفناجين القهوة التي تعتقد أنها لم تنظف جيداً، وأوضاع الحليب كلها... حين وقف بيتر في منتصف الزقاق، ووضع يداً على ذقنه، وأخرى على خصره، وسأل: «ترى هل هناك من كتب عن هذا الموضوع؟» مرت هذه الأمور من عقل دنيز بسرعة الضوء.

تمنّت أن تنجح. أن تنجح في أن تشعر بالاشمئزاز من توقّع كونها كبة خيوط من أنواع الغرابات الضخمة القادمة من الشرق، وأشياء محببة قادمة من أمكنة بعيدة بالنسبة إلى أوساط أكسفور...

قالت دنيز: «نعم يا بيتر، هكذا بالضبط. هيا، أتمنى لك أياماً سعيدة.»

Twitter: @ketab_n

كانت هذه العبارة الدرامية لوحة الختام لمسرحية لباقة أكسفورد التي تابعت زوالها مشهداً تلو مشهد. حين ارتعدت من هذا، وهزت برأسها من جديد، كان طونتش داخل عينيها.

«ما الذي يقلقك بالضبط في النسيان. . .»

«الجميع في هذه المدينة مشغولون بتذكر بعض الأمور. لا يُسمح لأحد في هذا البلد الملعون أن ينسى شيئاً. ما هذه الجرأة! أنا أسألك يا سيد طونتش!»

«لم أفهم عن ماذا تسألين! عن ماذا نتكلم الآن؟»

«نتكلم عن البلوك».

«بلوك ماذا؟»

«كل البلوك. خاصة بلوك القرميد. وضعت كلها واحدة تلو الأخرى بعضها فوق بعضه، على مدى قرون، وبصبر يُتلِف الأعصاب، بإيمان حازم أنها لن تغيّر أمكنتها. وإلا لِمَ الصبر! من أين يعرفون؟ كيف يجرؤون على الإيمان بأن أحداً لن يحرّك أي شيء مما وضعوه في مكانه؟ أنا أريد أن أفهم هذا يا طونتش أفندي!»

«ما الذي يضايقك؟. . لماذا تتحدثين عن هذا الآن؟»

«لا تهتم!»

«برأيي، فكّري بأمر باريس.»

تابعت ذهابه بطرف عينها بسرعة سيرها بجانب وجوه بلوك القرميد وهي منهارة من غضبها.

كانت غاضبة من هذه المدينة، «عاصمة الأسئلة» التي يعشق الجميع جوها الغائم الكريه، التي تخبئ أناسها المقدّسين لأبنيتها وكتبها وفضولها عن بقية العالم.

وكانت غاضبة من خُضار هذه المدينة العشوائية التي لا تصلح لصنع أي طعام، ونسائها الشابات بأحذيتهن الأكبر من أقدامهن دائماً،

Twitter: @ketab_n

ونسائها كلهن اللواتي يصبحن بلا معنى بلحومهن، ورجالها الذين يَخصون أنفسهم لكي لا يُقبض عليهم وهم ينظرون إلى امرأة، ومشرّديها الأكابر الذي يقولون عند أول الشارع: «يومك سعيد» ويسامحونك على عدم شرائك مجلة «Big Issue» ولا يبقون شيئاً من غضبهم الطبقي، وسيّاحها اليابانيين الذين يبحثون عن «كلية التاريخ» التي صُوّرت فيها أفلام هاري بوتر حاملين الخرائط بأيديهم، وطلابها العرب الذين يدورون مجموعات بأحذية جديدة غالية وأحدث موديلات الهواتف النقالة، وأكاديمييها الذين يلبسون ثياباً لا طعم لها، وطالباتها القادمات من الشرق الأقصى الماشيات دائماً كأنهن مذنبات، وكلمات السيدة طرابلسي مشرفة الأطروحة التي تلطشها بها في كل لقاء، وحفلاتها التي يسكر فيها الجميع دون أن يستمتع أحد، ونسيانها أسماء الجميع رغم عدم نسيان أحد اسم الآخر، والهوامش، والسير الذاتية المطوّلة بالكذب، والدعايات الإنكليزية المزدانة «بالدعابة» كلها دون استثناء، وثقة السيدة طرابلسي بنفسها التي تضاهي بناء «كنيسة المسيح»، والنساء الإنكليزيات اللواتي لا يلبّسن أولادهن جيداً في الشتاء والشرق أوسطيات اللواتي يمرضن أولادهن بتقليدهن، وسندوتش الموزوريلا والبندورة المجففة، وقلب السيدة طرابلسي شفتيها وقولها: «هكذا إذاً؟» إزاء كل حديث، وملء شوارع المدينة بكلمات الشكر والأسف، وفريق طلابها للتجديف وكأنه خارج من مجلات الصحة الأمريكية، وطلابها الأمريكيين الذي يحاولون إصلاح لهجتهم المائعة لأنهم قدموا إلى إنكلترا، وعشب الكلية الذي يُرعى بأسلوب مرضي ولا يُداس عليه، والجميع الذين يتظاهرون بأنهم لا يفكرون بشيء من هذا لضرورة اللباقة السياسية. . . حسنٌ، لماذا هي حتى الآن هنا رغم كل هذا الغضب؟. . .

البقاء في أكسفورد أمر لا يمكن تفسيره بالاضطرار فقط. فهذه

Twitter: @ketab_n

المدينة مؤلفة من قواعد أكثر اعتدالاً من تلك غير المتناهية التي في الخارج.

توقفت. كأن شيئاً تراه، ونسيته عينها منذ فترة طويلة. وخرجت جملتها من فمها قبل أن تمر من عقلها:

«ما أجملها!»

الجدران القرميدية الممتدة مثل رقصة إسبانية ممتدة بأهمية لا متناهية تنقطع في نقطة. ظهرت على الطرف الأيسر خربة كجرح جميل في جسم المدينة.

اسم المشروع: Radcliff Observatory Quarter... صاحب المشروع: مجلس مدينة أكسفورد... مسؤول المشروع... رقم هاتف مسؤول المشروع... رقم من ستراجعونه إذا لم تجدوه... وعنوان البريد الإلكتروني الذي ستراسلونه عليه إذا لم تجدوه أيضاً... كتبت في مدخل ساحة البناء التفاصيل كلها لكي لا يعتقد الأكسفورديون أن المدينة ستنهار فوق رؤوسهم، ومعلومات أكثر من اللازم مع ثلاثة أرقام هواتف من أجل أن يزيل أصحاب الفضول العقدي فضولهم.

بالهدم والكسر تغدو الجدران دون شكل كأنها مقصوصة من دليل كوكب آخر، وملصوقة على شارع «وود ستوك». كان هذا الخراب مثيراً للشفقة بجانب الأبنية القوية والخالية من العيوب وكأنها تقول للناس كل يوم نحن شامخات من دونكم أيضاً. الخربة مثل ولد معاق وسط أبنية أكسفورد المشبعة بالإعجاب ينتظر من الإنسان وعينيه إضافة شيء لكي يُحب ويُجمّل حاله المائل الخرب. ولأن المدينة تخجل من الخربة، وتعتبرها خطأ أو فظاظة أو انحرافاً يحتاج إلى تسكير، فقد وضعوا من حولها حواجز غاية في النظافة، وفي مدخل ساحة البناء محرسين قابلين للنقل مع إعلان:

«أيها الماشون والراكبون! الرجاء إبراز بطاقة الدخول.»

Twitter: @ketab_n

تفقدت دنيز المحرسين. يجب أن يكونوا في استراحة الغداء. قدماها تمشيان على أرض وعرة تذكرها بشيء خلف حلم سعيد لم يبق منه سوى ستارة إحساس غربولية. تذكرت يداها الحركات التي كانت تتحركها منذ زمن طويل جداً، عندما كانت طفلة، وحكها بشكل لذيذ مكان الخدوش التي أصيبت فيها ركبتيها بشكل متكرر وشفيت، وأثناء نبش التراب المغبرّ دخل الغبار أول مرة تحت أظافرها. كانت خارج المدينة، وفي مكان عائد لها في داخلها، وفجأة.

دفنت الحبل السري في الخربة، ودعت في داخلها دعاء غير منتظم ومعقداً بحيث لن تستطيع تكراره مرة أخرى. دعاء يتعلق بالخرابات، وأن يكون الإنسان كما هو، ويتعلق بالقدر والنسيان! كان دعاء على شكل فتات وأنقاض.

نهضت بكبرياء قيامها بعمل بطولي وطبيعي، ونثرت عشرات آلاف ذرّات الغبار في ضوء الشمس حين صفقت يديها إحداهما بالأخرى.

يبدو الغبار مادة غريبة جاءت من مدينة أخرى، وكوكب آخر. مادة كيميائية جاءت من كوكب الغبار بالخطأ إلى كوكب آخر في هذه الجهة من الأرض. كأن الغبار الذي يلخبط العقول، ويجعل الوجوه غير معروفة، ويغلقها، ويخلط بين الأسماء، ويري أن كل شيء يحدث بعيداً، وبعيداً جداً - كأن الغبار - رسالة مرسلة إلى دنيز من كوكبها. . . وكأنه تعكيرٌ يظهر كل شيء بوضوح.

دسّت يديها بغبارهما في جيبيها ومشت، ثم توقفت. عادت إلى النقطة نفسها. أخرجت من جيبها ورقة صغيرة مربعة. نظرت. انحنت رقبتها إلى الأمام بزاوية لا يمكن أن تلاحظ إلا بتدقيق النظر. جعلكت الورقة، ونبشت المكان الذي دفنت فيه الحبل السري مجدداً، ووضعتها فيه. وحين ردّت التراب ثانية، كانت على يديها نقط سوداء دقيقة لآثار حبر صورة التقطت لداخل ظلمات بطنها. نظّفت الآثار التي تركتها

Twitter: @ketab_n

صورة الرنين المغناطيسي على يديها بالغبار من معلومة عرفتها منذ القدم، وأقدم من طفولتها دون تفكير. فركت يديها حتى أزال الغبار كل الآثار التي تركها الحبر على رؤوس أصابعها وكفيها. أزال الغبار الحبر. لقد نظفها الغبار.

حين رجعت إلى البيت ختمت الرسالة التي كتبتها لصلا على النحو التالي:

«الزمن لا يقطع بالمرأة. احذري أن تثقي بالزمن من أجل أن تشفي ذات يوم.»

يجب أن يقع شيء للإنسان من أجل تغيير قدره المرتبط بحبله السرّي. شيء عجيب. شيء قوي. يرمي كلاّباً إلى حياة أخرى لكي ينزلق على حبل بين حياتين... وبينما كانت تفكر أن السبب في عدم نسيان الجراح في هذه المدينة هو عدم وقوع شيء للإنسان فيها... قُرع الباب.

Twitter: @ketab_n

٣ آب/ أغسطس ١٩٨٢، شاتيلا

فليبيناي، كبّتي الحلوة؛

عليّ أن أحكي لك عن اليوم الذي جعلت بيروت أمك تشبهها. في ذلك اليوم رمى بنفسه ولد في الثانية عشرة من عمره دون ساقين يركض على يديه إلى وسط إطلاق النار. واحد آخر رفسه قدره الذي كتبته له بيروت.

هذا أكثر جوانب الحرب رحمة. تفتح حضنها للذين ينزعون أنفسهم ويرخونها. فالحرب حضن ناعم كالنوم، ودافئ كالدم. فراش غبار مغشى لا يحاسب الذين يريدون أن يذهبوا.

عملُ أبيك يا فليبينا إبقاء الناس في الحياة بالقوة. ولكنني أؤمن بضرورة مراقبة الذين ليس لديهم مكان يذهبون إليه غير الموت، ويقررون ذات يوم الانطلاق في هذه السفرة الدافئة باحترام. حتى لو كان الذاهب طفلاً.

فعلنا الأشياء «الحركات» التي يجب أن نفعلها من أجل أن ننقذه يا فليبينا. كنا مثل لاعبين مخبولين يلعبون لعبة خبل لجمهور مخبول. نتفت النساء شعرهن وبكين، وحرك الرجال أذرعهم وأصواتهم بقوة، وأنا قلّدت دكتوراً يحاول أن يفعل شيئاً بيديه. فتحت الرصاصة جرحاً عميقاً في رقبته من الخلف. في الرقبة الرفيعة جداً. إذا دققت فيها كثيراً تجدين حفرة في منتصفها إلى الأعلى مثل كل الأولاد، تقهر برفعها،

Twitter: @ketab_n

وتبكي بنعومتها، وفيها مزراب مثل وادٍ جاف. لم يكن الولد يفكر في شيء آخر. كانت رقبته تتوسّل نومَ جندي منتهٍ فقط. ويقع دون توقف.

تركنا الطفل للموت بكل سرور يا فليبينا. نحن الذين نعيش على هذه الأرض لا ننجح بفعل أي شيء بصمت. لهذا حدث قليل من الصخب. ولكننا - الميت وأنا - ارتحنا في النهاية.

لم يخطر ببالي اسم الولد بأي شكل يا فليبينا. ولكنني أتذكر من هو. لعلني بصفتي طبيباً يجب أن أتذكر قصة ساقية المفقودتين، ولكنني أعرف قصته المتعلقة بالقسم العلوي من جسده. كان لهذا الطفل عم. وبالطبع لا أتذكر اسمه أيضاً. ولكنني أعتقد أنه من أوائل الذين تركوا فلسطين عام ١٩٤٨. كان الرجل بحاراً. جاء مرة واحدة إلى شاتيلا، وجلب لهذا الطفل لعبة من إسبانيا. دبٌّ من بلاستيك أصفر يقفز على حبل، من اللعب ذات البطاريات.

أنا أكرهها يا فليبينا، ليكن بعلمك. احذري أن ترسلي من بعيد لعباً غالية. لأن الهدايا المرسلة من بعيد، من البلدان الغنية مؤلمة جداً. هدايا من هذا النوع تكسر ذراع بيت الفقير وجناحه. ولأنها تغدو أغلى من كل شيء في البيت، وحتى من كل شخص، يطرق من في البيت رؤوسهم، ويخلقون ضوءاً في رؤوسهم من أجل إطفاء هذا البريق. ويبقى القسم الباقي من البيت أكثر ظلمة. فوق هذا كلما أخذ الطفل اللعبة -ترى هل يحدث هذا على هذه الأرض فقط؟- يغضب أحد منه.

«انتبه! انتبه!»

يقتل الناس بعضهم البعض، وتبقى اللعبة بليّة الله أغلى من كل شيء. لهذا لا أحب اللعب القيّمة. لا تُفقد هذه اللعب الأطفال قيمتهم فحسب، بل تصبح رسالة تذكّر بسوء مصير الأسرة كلها، وكأن الأسرة ليس لديها همّ غير هذا. هل صار هذا مؤلماً جداً؟ ولكن إذا أردت رأيي، فهذا الدب التافه هو الذي قتل الطفل.

Twitter: @ketab_n

كانت قوائم ذلك الدب البلاستيكي قصيرة. ذات مرة جلس على الأرض الحجرية، وأراني إياه، كأنها غير موجودة، مثل أرجل الطفل تماماً. كان مستعجلاً لمعرفته أن أمه تغضب من إخراجه اللعبة خارج البيت. لعله سيجد حجة مشروعة لإخراج هذا الشيء المخبول من البيت إذا أراها للدكتور حمزة. هناك شريط معدني يمر من فوق رأس الدب ثم يذهب إلى تحت قدميه. حين يمر السلك المعدني من تحت القدمين ينط الدب المخبول في الهواء. كان الطفل يحمل الدب داخل قميصه. ولأنه يمشي على يديه، كان يمسحهما قبل أن يلمس الدب. حين دار، وظهرت تلك الابتسامة البلهاء على وجه الدب، مال الولد بنصف جذعه، وأسند خده إلى راحة كفه، وبدأ يتفرج. أنا أيضاً تمددت بجانبه، وكانت ساقاي طويلتان بشكل يدعو إلى الخجل. بعد فترة طويلة، حملق بعينيه كأنه رأى حلماً مخيفاً:

«عندما تنتهي البطاريات؟..»

فليبينا، كبتي الحلوة، لو أعطوا الولد صندوق بطاريات بدل ساقيه... لقبل.

أعتقد أنه عندما فقد ساقيه قال له بالغ انسلّ إلى داخله بأنه «يمكن أن يحل» له قضية البطارية، فأسند الولد خده إلى راحة يده من جديد. ما زال الدبّ يقفز. ولكن نصف الطفل كان يشيخ أمام عيني. ثم قال لي: «أنا...» وصحح:

«نحن لن نستطيع الذهاب أبداً إلى هسبانيا، أليس كذلك؟»

يمكنني أن أكذب على الكبار، ولكن على الأطفال... لا أدري، يبدو لي حراماً. أنا لا أؤمن بالله، بل بالأطفال يا فليبينا.

نظر إليّ كسكين لا تُعرف درجة حدّتها، ثم إلى دبّه. كان الدبّ يضحك مثل بطاقة طائرة لن يركبها. الدب بثر القدر، سحبه إليه، رأيته. غرق، رأيته. حوّل زر القطعة البلاستيكية التي في مؤخرتها إلى

Twitter: @ketab_n

«off». قال له البالغ المتسلل إلى داخله بلغة واضحة إنه لن يستطيع الذهاب إلى هسبانيا في أي وقت.

قال: «أعطني واحدة لوكي سترايك دكتور حمزة!». أقسم أنني كنت سأعطيه، لأننا كنا نحن الثلاثة غاضبين كثيراً. كان الدب مثل برت لانكاستر الذي سقط من بهلوان إلى مهرّج. ونحن، كلانا. . . فلسطينيان.

دس الدب داخل قميصه، وأصلح شعره مطوّلاً. مثل تمشيط الشيوخ لشعرهم في مرحلة عدم وجود شيء يفعلونه. ثم أصلح ما عليه، وأشار - لم أستطع النهوض، ساقاي نمّلتا من الخجل - صامتاً بعينه أنه ذاهب. صار يمشي في كل مرة على يديه وكأن عظم الكتف سيخترق اللحم ويخرج. الدب مخبأ في قميصه، كما يخبئ المتسولون ورماً ليتسوّلوا عليه.

يا كبّتي الحلوة، مات ذلك الولد بسبب الدبّ الذي يمسّ السلك المعدني لحمه فيشعره بقشعريرة تذكره أنه لن يستطيع الذهاب إلى أي مكان. رمى الولد بذلك السلك المعدني الكلاّب إلى حضن الموت الدافئ، وسحب نفسه إلى ذلك النوم.

قالت أمك: «ناجي». كان اسم الولد ناجي، وفهمت أمك أنني نسيت اسمه. الله أعلم كم بدت مندهشة بنظره. وكان الشاش المعقم بيدها - لأنها لم تكن تعرف العمل بغيره بعد - وتتظاهر بأنها تعمل شيئاً كما نفعل جميعاً. حين مات الولد احتضنته. أمسكته كأنها هي التي ولدته، وأخذت نصف الجسد ذلك إلى الحمّام وغسلته. أسنان الولد مكسرة، ومنكمش على نفسه وجاف مثل دودة القز. ذات مرة رأيت دودة قز كهذه. لم تكن تستطيع أكل أوراق التوت عندما كانت الأخريات يسمنّ ويبيضن، انكمشت وتحولت إلى دودة سوداء وماتت.

سرّحت أمك شعر ناجي كما كان يسرّحه تماماً. كشطت بقع الدم

Twitter: @ketab_n

الجاف بأظافرها دون أن تؤلمه. وقبلت جبينه، ولفته بشاش الضماد النظيف المعقم. وضعته في حضن أمه الجالسة على الأرض. كان ناصع البياض، تحوّل الولدُ إلى طردٍ ميت.

في ما بعد، بدأت أمك تبكي. وانهارت. كأن أضلاعها خرجت منها مثل حسك السمك. البكاء في مكان لا تعرف لغته سيّئ جداً. لأنه ليس هناك من يسكتك بلغتك. وعندما يبكي الإنسان على هذا النحو لا يمكن للغة أخرى أن تسكته. لم تسكت.

جاء والد ناجي إلى المستوصف ليلاً. حياني برأسه، وأمسك أمك من ذراعها وأنهضها. كانت كالريشة. ذهبنا إلى بيتهم. أمك بقيت تبكي. طلعنا إلى السطح. كان أبو ناجي رجلاً ضخماً.

وقفنا على السطح. نظرت إلى أضواء المخيم. رحمتنا إلهة، فهوت بطرف ثوب عرسها نحونا، وكأن البَرَق الناعم نُثر على المخيم كله. رفع أبو ناجي عن الأرض المظلمة قطعة كظل. تحولت قطعة الظل مع اقترابها من الضوء إلى كلاشنكوف. ناوله لأمك. قال لها: «أطلقي. ترتاحين» ابتلعت أمك نشيجها مرة أو مرتين، وتناولت البندقية. اشتد معصماها اللذان كنت أعتقد أنهما لا يقويان على حمل الشاش المعقم. علّمها أبو ناجي كيف تطلق النار. وجّهت السبطانة:

«أطلقي الآن إلى الهواء. وأطلقي من أجلي أيضاً!»

وأمك، طاخ، طاخ، طاخ، طاخ، طاخ...

قسمت الشهوة والخوف وجهها إلى قسمين، امتلأت عينيها بِبَرَق شاتيلا. طاخ، طاخ، طاخ، طاخ...

مع تبدد الضجيج في الهواء كان يصل من الأسفل صوتٌ آخر، ناعم، ودافئ... أمك في تلك الليلة شتمت الآلهة بالكلاشنكوف، وقتلتها أيضاً، وتبوّلت فوق هذا. نظرت، ونظر أبو ناجي.

آه، ها هو رجل آخر يبقى اسم ابنه الميت معلقاً به!

Twitter: @ketab_n

حين نزلنا الدرج كان صوت البول يجقجق في حذاء أمك. أمسكت بيدي، ولم أتركها.

لحقت بي، واغتسلت، ونامت بجانبي. في تلك الليلة أول مرة ألمس امرأة قتلت الآلهة من أجلنا جميعاً.

صباح اليوم التالي بدأت أمك تتكلم أول مرة، وإذا أردتِ الحقيقة لم تسكت. تحوّلت من دودة قز مكسورة السنّ إلى فراشة. أصبحت لا أحد في الخرابات. قتلت قدرها بكلاشنكوف.

تجرّئي على أن تكوني لا أحد يا فليبينا. القصص هنا تبدأ. حيث تكسر الأسنان.

Twitter: @ketab_n

٩

مهما كان احتمال وقوع أحداث تتضمّن عنفاً للبيروتيين الذين يعيشون في أحياء لا ينتمون إليها قومياً أو طائفياً أو سياسياً فإن السبب الوحيد الذي يجعل سِتانيك الأرمنية ووسام الفلسطيني السنّي ينامان معاً في البناء الواقع في نزلة الجعيتاوي، وليس في أي مكان آخر من الأشرفية الحي المسيحي، هو أن هذا الشارع القصير هو المكان الوحيد المتعدد القوميات والأديان في المنطقة. ولكن يجب أن ينتبها، يعني بسبب التوتر الجزئي...

حين سمعت سِتانيك صوت الست زينب تنادي مروان فتحت عينيها في السرير:

«يا الله! شجرة الخبز!»

نطّت من السرير، وهرعت إلى المطبخ. حضرّت أكياس النايلون، وبالسرعة نفسها ذهبت عارية إلى الباب. تنصّت إلى بيت الدرج، ليس ثمة أحد بعد. فتحت الباب، ووضعت أكياس النايلون أمامه. لحظة أرادت إغلاق الباب بسرعة رأت نهايتي كُمّي بنطلون السيد هادي المكويين كالشفرة ينزلان بصمت الأشباح. ترددت. أليس من الواجب إعطاء خبر للست زينب؟

قالت في سرّها: «كيفما كان لن يضيع. ليخرج ويتجوّل قليلاً». أغلقت الباب، ورجعت على رؤوس أصابعها إلى السرير. لم تلتقط في

Twitter: @ketab_n

المرآة سوى وركها العاري وهي راكضة، سُرّت بوركها المكتنز.

بحثت عن الحفرة التي أحدثها وركها في الفراش وهي نائمة طوال الليل محتضنة ظهر وسام. أثناء حركتها إلى الأمام والخلف شعرت بشيء مكور. أخرجته، ونظرت. إنه أنف المهرج الأحمر البلاستيكي الذي يستعمل في الفترة الأخيرة في المظاهرات. فقد وصل إلى الفراش بطريقة ما. أمسكت الأنف، وبحركات هادئة جداً ركبته على أنف وسام، وضحكت بصمت. ووسام نائم مريّل الفم، ومقطب الحاجبين بجدية، ولا علم له بالأنف الأحمر. شبكت ستانيك يديها تحت رأسها، وألقت ساقاً على ساق، وبدأت تهز نفسها في السرير بمتعة.

إنها تحب الرجل. وإلى أي حد! وضعت وجهها مقابل وجهه. استرجعت الأنف البلاستيكي الأحمر بحركات خفيفة مثلما وضعته، ونظرت إلى وسام وتذكرت أول مرة أحبته فيها، في مثل هذا اليوم قبل عدة سنوات...

* * *

«هل جُننتِ؟»

نظرت الفرقة كلها النظرة نفسها إلى سِتانيك وكأنها تدرّبت على هذه الحركة من قبل.

«جُننتِ بكل الأحوال، كيف تذهبين؟»

ثقلت على ستانيك نظرات الفرقة النابذة إلى حد أنها وجدت صعوبة في المحافظة على حزمها الذي أبدته في صوتها في البداية:

«يعني أنتم تقبلون تقديم عرض للأطفال في المخيم والضاحية، ولكنكم لا توافقون على الدخول في حياة أولئك الناس، أليس كذلك؟ في هذه الحال ماذا يعني تقديم عرض لهم؟»

قال أحدهم: «ستانيك، إهدئي»، وتابع آخر: «لا نستطيع عمل شيء هناك يا ستانيك». يقلبون جُمَل بعضهم البعض قبل أن يصل

Twitter: @ketab_n

صوتها إلى الأرض، والجميع يحاولون بقلب واحد إقناع ستانيك بعدم الذهاب إلى معتقل الخيام الذي كانت إسرائيل تضع فيه السجناء اللبنانيين، وسيفرغ اليوم بانسحابها من جنوب لبنان.

«يا بنتي، خطر، ألا تفهمين؟ إسرائيل ليست وحدها! عندما غادرت مواقعها تركتها لجيش جنوب لبنان الذي يقوم بأعمالٍ جنونية. البارحة ليلاً قصفوا صور. ثم إننا لا نعرف ماذا سيفعل جماعتك. نصر الله يقول: «إذا قتل كل عنصر من جيش لبنان الجنوبي جندياً إسرائيلياً نؤمن بأنه لم يعد خائناً». سيصفّونهم هناك.»

سُدّ أنف ستانيك من غضبها، وخرجت الكلمات وهي تؤلم بلعومها:

«ألا تعرفون أن كوسيتا أيضاً في المعتقل؟ المعروف إنكم أصدقاء. المسكينة هناك منذ تسعة أشهر. أقول لكم يجب أن نكون هناك. ماذا يعني؟ هل نقوم بهذه الأعمال للمرح؟»

أجاب أحدُ الأصواتِ يائساً رداً على غزارة هذا الغضب كله:

«يوجد تلفزيون، نتابع منه ما يحدث.»

صرخت ستانيك: «تلفزيون؟!» وبسطت ذراعيها على وسعهما: «هل قلت تلفزيون؟»

كانت تنظر إلى الفرقة كالمجنونة. أليس هناك أحد من الفرقة التي تقدم مسرحية «أيدي يورديكا»، ويعشق فيها الجميع، ويعتبرون أنفسهم أخوة، يذهب معها لحضور إطلاق سراح كوسيتا وبقية المقاومين المعتقلين؟

«تلفزيون ماذا؟ وهل نحن في آخر الدنيا؟ وهل هم في نصف الكرة البيروتية الجنوبية؟»

تبادلت الفرقة المؤلفة من عشرة أشخاص النظر فيما بينها مهمومة،

Twitter: @ketab_n

وانتبهت ستانيك أن تسعة منهم يعقدون أذرعهم على صدروهم. فهمت من عقد الأذرع على الصدور كأنه يمين صامتة، وأنها دخلت حرباً خاسرة.

قالت إحداهن بصوت يحاول تلطيف الجو: «انظري يا ستانيك... أنت تبالغين بهذه القضايا. تنجرفين كثيراً. يعني بالنتيجة، نحن...»

لم تعد ستانيك تميّز بين وجوههم:

«أنا لا أصدق موقفكم.»

حين قال أحدهم: «إيه، لا تطوّليها!» لم تستطع ستانيك إمساك الدمع الذي تحبسه منذ ثلاثة أيام، وأفرغته:

«غير معقول. المقاومة تُكسِب هذا البلد أولَ نصر له، وأنتم...»

خرج صوت غير عابئ بدموعها:

«تُكسب الجنوب وليس البلد!»

بعد تلك اللحظة تفرجت على ما عملته فقط:

«واحد مخبول!»

كانت ستانيك تشد شعر حنا، وتتفرج على محاولاتهم لتخليص حنا منها. قالت لنفسها: «بما أنهم تدخّلوا بهذه السرعة، فهذا يعني أنهم يتوقعون مني حركة كهذه». وصرخت ويدها ما زالت ممسكة بشعر حنا:

«يا أهبل، إذا كنت تعتبر لبنان حياً مسيحياً فقط، لماذا تدّعي الحساسية؟ ما هذا؟ وهل نحن نصف الكرة البيروتية الشمالية؟ وهل نحن في سنت جيرمان هذا البلد ولاه!»

حين فكّوا يدها عن شعر حنا، جلست متربعة في مكانها، وبدأت تبكي.

Twitter: @ketab_n

قال أحدهم: «المهم ياه! أنتم اذهبوا إذاً». كان في صوت وسام هدوء عادي كأنهم لم يتفقوا على موضوع الفيلم الذي سيذهبون لرؤيته فقط:

«أنا أدبّر هذه المجنونة. كيفما كان أنا ذاهب. سآخذ أمي. لم تر أختها في الجنوب منذ خمسة عشر عاماً. ثم عندما تخرج كوستا... المهم. أنا آخذها. هيه، ستانيك! بكل الأحوال يعرف الطيارون الإسرائيليون المهابيل أنك أرمنية، أليس كذلك؟ أنا لا يبدو عليّ أنّي فلسطيني، ولكن أولئك الوسخات يعرفوننا من رائحتنا.»

وهكذا أدركت ستانيك التي تمسح مخاطها وهي جالسة على الأرض أنها لم تبق وحدها تماماً، ولم تُجنّ بكل معنى الكلمة:

«إذا لم ترتاحي نحمل أعلام الحزب، وننخرط بينهم. وأنت تضعين غطاء رأس لو سمحتِ، أليس كذلك ستانيك؟ هوب! أنا أتكلم معك. اصحي يا بنت... اذهبوا أنتم الآن.»

ذهبوا في ذلك اليوم إلى الخيام مع مئات الناس. شاهد زملاء كوسيتا من كلية الإعلام خروجها. رأوا في زنزانتها كتابين تقرؤهما «البؤساء» و«محاضرات ومفاهيم» للسيد محمد حسين فضل الله. سجلت ذاكرة ستانيك وضع ذينك الكتابين المتروكين في الزنزانة متجاورين. تجوّلت بين زحام الناس، وتابعت خفقانها من أجل أن تدخل فرح الكبار. كم كانوا هم أيضاً بحاجة إلى هذا الفرح. في ذلك اليوم قررت مع وسام تأسيس فرقة مهرّجين جوّالة من أجل الأطفال.

* * *

عندما كان رأس وسام يتحرك إلى الطرفين كأنه يبحث عن باب الاستيقاظ ورأى وجه ستانيك، تمتم قائلاً:

«متى استيقظت؟»

وحين كان يرف وسام برموش عينيه أرادته ستانيك أن يستيقظ على

Twitter: @ketab_n

وجه السرعة. عندما نظر وسام إلى عينيها الطافحتين بنجوم سَحَر العشق، بدأ يضحك:

«يا بنت، رأيتك مرة أخرى في حلمي مع نصر الله. ما قصة حزب الله هذه التي تدخل أحلامي؟ منذ كم يوم أرى الحلم نفسه.»

ركّبت ستانيك الأنف الأحمر، وحَوَرت عينيها:

«حبيبي يغير عليّ من نصر الله!»

طوّق وسام ذراعي ستانيك قبل أن يفتح عينيه:

«تعالي يا إرهابية كربوجة لأرى!»

«لا تقل لي كربوجة!»

«لأقل إرهابية إذن! سأنقل هذا لرفاقك في الحزب.»

مارسا الحب بشغف، وضحكا كثيراً وهما يمارسانه. لا تعرف ستانيك ما إذا كانت تحب الرجل الذي تضاجعه، أم تحب حياتهما غير المكتوبة في قدرهما. حين طُرق الباب لكماً كانا يلهثان:

«واخ!»

«تأخرنا!»

Twitter: @ketab_n

١٠

«صقور أكسفورد؟»

«نعم يا آنسة.»

حين ابتسمت دنيز وهي تنظر إلى بلاغ الشرطة بدا الارتياح في عيني الشرطي البنيّتين، ذلك الشاب الأسمر الذي تدلّ هيئته على أن أبويه جاءا من أرض ملعونة. حاجباه ذكّرا عينيه بضرورة رجوعهما إلى جدية الشرطي الإنكليزي.

«نقوم بعملية واسعة النطاق ضد المخدرات أيتها الآنسة. إذا رأيت أحداً تشكّين فيه الرجاء إبلاغنا على الرقم المدوّن في أسفل البلاغ.»

نظرت دنيز إلى سترة الشرطي الشاب البرتقالية الفوسفورية، وخوذة الدرّاجة الهوائية التي تجعل جدّية خدّيه المحافظ عليها بالقوة مضحكة أكثر فيما يحاول ضبط توازن الدراجة بيده:

«عملية ها؟ هذا يعني أنها واسعة النطاق.»

ابتسامتها التي على طرف شفتيها أقنعت الشرطي بعدم أخذ الأمور التي تنفذ على أصولها مأخذ الجد، واعتبار التصرفات الأوربية طفولية غير جدية. ضغط الشرطي بلكنته الإنكليزية العميقة على ضحكته الشرقية المكشرة عن أسنانه التي ستظهر لو أرخى قليلاً عموده الفقري المحافظ على انتصابه بواسطة البزة الرسمية:

«نعم عملية! رجاء اتصلي بنا!»

Twitter: @ketab_n

من الواضح أن الابتسامة التي لا يأبه بها رجل محلي قد أغضبته. رجولته السمراء لا تحتمل سخرية امرأة سمراء حتى وراء الدرع السميك للكنته الإنكليزية بقوام الكريما. أدار الدراجة الهوائية إلى الخلف نحو الطريق بحركة حادة. أرادت دنيز أن تقف وقتاً أطول أمام الباب لتتفرج على «مدينة أكسفورد» الراكضة من جريمة إلى أخرى.

حين همّ الشرطي الشاب بالانعطاف من شارع والطون إلى شارع ليتل كلاريندن، مد يده اليمنى - وهو متوتّر من وجود عيني امرأة خلفه تسخر من قواعد هذا البلد الذي يضطر فيه للالتزام بها - وانعطف. تأرجح ونظر فوراً إلى الخلف. نعم، كانت المرأة تراقبه. لوّحت دنيز بيدها له. حين عاد الشرطي للنظر إلى الطريق كان يبتسم وهو يشتم مثل أولاد بلده القادم منه.

لو لم يرن الهاتف لبقيت مستمتعة بجو «حدوث أمر مهم جداً» الذي خُلق على مدى ربع ساعة في حي «مدينة أكسفورد»، وتلهو بالفرجة على جيرانها الواقفين أمام أبواب بيوتهم وهم يتبادلون النظر مفكرين بمن يجب أن يشكّوا.

«ألو!»

«دنيز؟»

«هه؟»

«هل نلتقي عندك، أم تأتي وحدك؟»

إذا أخذتْ صوت طونتش على الهاتف بعين الاعتبار فإنها تأخرت كثيراً على قول: «لو لم آتِ الليلة». ولكن أزرار روحها سمت إلى العشاء الذي سيقدّم في بيت مدير طونتش له ولزملائه في العمل، وكانت بحاجة إلى وقت من أجل أن تكوي جعلكة علاقتها حتى تزول:

«نلتقي هناك، أنا أذهب وحدي.»

«هم.. لا تلبسي هذا...»

Twitter: @ketab_n

«ما الذي لن ألبسه؟»

«من أين لي أن أعرف، البسي ما تشائين.»

«شكراًآ!»

كان طونتش يقصد وجهها المعلّق في المجال الفاصل بين البكاء والضحك أكثر من البيجاما التي لم تخلعها منذ أيام أو شعرها الأجعد الذي تربطه إلى الأعلى. ارتدت الثوب البنفسجي الذي أهداها إياه طونتش بشكل خاص لكي لا يترك الأمر للحظ في ولائم النخبة المكوية تلك، وربطت شعرها الأجعد العنيد إلى الأعلى. عندما التقت طونتش وهو ينتظرها أمام بيت مديره من أجل التفقد الأولي كان ثقب جوربها الذي قطبته من تحت الأصابع قد امتد لما فوق القدم.

«جوربك مثقوب»

«آآآ... هذا يعني أنه ثقب في الطريق.»

من خلال تبادل النظرات القصيرة الحادة فُهم أن الجورب مثقوب منذ البداية، وفكت دنيز عقدة وجهها وخطت خطوتها إلى عشاء التوتر الرسمي الراقي الذي يشعر الجميع فيه بالراحة ما عداها.

كان يدور حوار يمتد من أحوال الطقس إلى الانفجارات الأخيرة في العراق، ومن البناء الذي لا ينتهي بأية طريقة إلى آخر أوضاع بورصة سنغافورة بنفس المسافة، ويتناوبون الكلام بهلع من أجل عدم السقوط في صمت المواضيع. بينما كان زملاء طونتش الذين درسوا جميعاً مثله في جامعات أمريكية وإنكليزية مهمة، وتركوا مكانتهم الأكاديمية ودخلوا مؤسسة فكرية ليحققوا كسباً أكبر، يتحدثون في المواضيع التي يعملون عليها. خلال تلك الفترة تمكنت فران بابيرولوغ زوجة المدير السيد روينسون من جلب اللحم المعد للشواء وسلطة الملفوف التي لا طعْم لها.

«اشترينا هذه حديثاً يا دنيز.»

Twitter: @ketab_n

واضح أن مفاجأة الليلة الرائعة التي يجب أن يشتري كل منهم واحدة منها هي الشوّاية التي تحملها فران كأنها بثقل بورصة سنغافورة والانفجارات التي تحدث في العراق، ويمكن وضعها على الطاولة. يوضع تحتها وقود على شكل جيل. «انظري يا دنيز، اشترينا كمية كبيرة من هذا الوقود أيضاً. نستطيع أن نشوي طوال الصيف، طوال الصيف!» وأثناء تسخين الشواية، كان كل واحد يشوي لحمه بنفسه. «ممتع جداً أليس كذلك يا دنيز؟»

«أوه! غير معقول! هذه شواية رائعة جداً!»

أطلقت دنيز جوابها بنجاح. بعد أن دهش الجميع من هذا الاختراع بالقدر الكافي، وبُدئ بتناول الطعام المؤلف من ثلاث قطع من اللحم. «لم نشتر لحم خنزير لأنكم ستأتون يا دنيز»، «نحن نأكل لحم الخنزير، ولكن شكراً على لبقاتكم». ها، ها، هه، هه... الجميع يستمتعون خائفين من أن تمس قطعهم من اللحم قطع الآخرين، ومن ألا تنضج، ومن نضجها زيادة عن اللزوم، وتطاير الدهن من قطعة إلى أخرى أثناء التقليب، وأخيراً من قلب الشواية...

«حسنٌ يا دنيز، كيف تسير الأطروحة؟»

طرحت فران بابيرولوغ السؤال الوحيد الذي يجعل مشهد فيلم الرعب هذا الذي يضحك منه الجميع أشد رعباً. تكلمت دنيز دون أن ترفع رأسها عن الشواية:

«إي.. هذا... يا الله! لو أستطيع قلب قطعة اللحم... ها، ها... إي، هذا... وصلت إلى آخر جزء من الأطروحة، ولكن...»

أرادت دنيز أن تضغط على تعابير وجه طونتش المكفهر بابتسامة متوترة ربّت الأمهات أولادهن عليها لكي يبتسموا بها عندما يكونون مع آخرين.

«آآآ.. نعم... هذا... ها، ها.. طبعاً، في الحقيقة...»

Twitter: @ketab_n

خرجت قطعة اللحم المغروزة برأس شوكة دنيز بجولة مخجلة على الشواية. الجميع يبتسمون لقطعة لحم دنيز كثيراً، وأحياناً يرفعون رؤوسهم وينظرون إلى دنيز نظرة شفقة. كان طونتش قد غار تحت الأرض منذ زمن بعيد. عندما قال المدير السيد روبنسون: «لو تعملين هكذا. . .» محاولاً مساعدة دنيز، كان الوقت قد تأخر كثيراً. والحل الأمثل لهذه القضية هو التقاط الجميع شوكاتهم للدخول في حالة تعاون تافه.

إنها المرّة الأولى التي ترى فيها دنيز الناس المصطفين حول أزيز اللحم المقلق بطريقة مختلفة. لا تنظر إليهم بغضب واشمئزاز، وتكاد تكون نظرتها محمّلة بالشفقة والألم. كل منهم فرد، وكل منهم يعمل ليكون أكثر فردية. كانوا يحاولون تثبيت أنفسهم في الحياة بوصفهم لصاقات اسمية. يحاولون بكل قوتهم أن يكونوا بطاقة اسمية على الصدر تدعو للمباهاة أولاً، ثم تبعث على القشعريرة. كأنها لو استطاعت سماع أرواحهم لسمعت أزيزاً يشبه أزيز اللحم. وسيُنضجون مكانتهم على نار هادئة إلى حد أنهم ذات يوم سيصبحون مهمين جداً، ويعتبرهم أحفادهم مدى التاريخ أنهم استحقوا هذا الاستثمار الذي استُثمر فيهم.

ثمة خطأ في عملية اعتبار الناس مهمين وذوي مكانة محترمة. عنف يسحق الإنسان. ليس لدى أحد راحة أن يكون لا أحد. الجميع بحالة جامدة إلى حد تنعدم فيه إمكانية الذوبان في الآخرين أو الحياة. لأنهم يقومون بعملية السباق من أجل إطالة عملية التقاط قطع لحم دنيز كلهم معاً. إنهم غير منتبهين إلى متعتهم بهذا العمل لأنهم نسوا أنفسهم، لذلك فهم يبالغون في الأمر. كانوا بحالة تدعو إلى الشفقة.

«أوه! لا! انتبه! أوه! لا!»

انقلبت الشواية التي قاومت ست شوكات مندفعة برفقة صراخ

Twitter: @ketab_n

فران. انتشر وقود الجيل على الطاولة، وبدأت تشتعل. هرعت فران وجلبت اسطوانة إطفاء الحريق، وبخّت حتى غطت الطاولة برغوة لا تتناسب مع النار المشتعلة. في أثناء عملية الإطفاء كانت دنيز ممسكة الشوكة بيدها، ومستمرة بالفرجة. ثمة ابتسامة حمراء على وجوههم. لم يكونوا راغبين في ترك تلك اللحظة. كان الشباب يطيلون العمل بالنار التي لو تركوها لانطفأت تلقائياً، وباندفاع أطفال يعملون على قتل بعوضة. كأنهم متمسكون بالنار. حين انطفأت النار تبادل الجميع النظر من أجل الدخول في سباق لقول: «كم كان الأمر فظيعاً»، ولكنهم بدوا كمن خاب أمله. أرادوا أن تستمر هذه اللحظة قليلاً. لعلهم لم يعرفوا أنهم ابتسموا ابتسامة حمراء كهذه لأنهم نسوا في لحظة من هم، ومن يريدون أن يكونوا.

«أوه! نعومي، هل استيقظت يا حلوة؟»

هكذا عرّف السيد روبنسون الضيوف بابنته نعومي البالغة الثامنة من عمرها النازلة عن درج الطابق الثاني حاملة ضفدعها الضخم. ولكن نعومي تدحرجت بسكرة النوم عن الدرج. قفزت دنيز من مكانها لتنهض الفتاة. أمسكتها فران من ذراعها بلباقة متوترة، وأجلستها مكانها:

«نعومي، هل أنت بخير يا حلوتي؟»

ارتطم رأس الفتاة بالأرض، وكان البكاء يتجمع في وجهها، ولكن:

«لم يحدث لك شيء يا حلوة. هيا، أرينا أنك تنهضين.»

كانت دنيز تتوسل بوجهها لوجه فران طالبة الإذن بعينيها لتقوم وترى رأس الفتاة الصغيرة، ولكن فران كانت تُهدئها بابتسامتها الثمانمائة وثلاث وستين بعد السبعة آلاف.

«دنيز شرق أوسطية جداً في موضوع الأطفال! حتى إنها حاولت

Twitter: @ketab_n

تأنيب الأمهات اللواتي لم يُلبسن أطفالهم جوارب في الشتاء أول قدومها!»

وهكذا استدعى طونتش إلى الطاولة ابتسامةً جديدة ومشتركة. التفت نحو دنيز حين فرغت هذا الطاولة، ووضع يده على ظهرها، وتابع قائلاً:

«الأطفال يسقطون يا حبيبتي. وينبغي أن يتعلموا كيف ينهضون.»

تحوّل طونتش إلى إنسان آخر عندما ابتسم. وخرجت كلمة «حبيبتي» من فمه كإخراج أظافر الناس الطويلة بعد أن يموتوا.

خجلت نعومي من البكاء المتراكم في وجهها فركضت إلى الأعلى. بعد فترة كانوا ينزلون الكريما من صحون الحلويات التي وضعت على الطاولة وكأنهم لم يعرفوا ماذا حدث بالضبط. حين نسي الجميع دنيز كفاية، تناولت قطعة خبز، وقالت: «الحمّامات في الأعلى أليس كذلك؟» وصعدت. تسلقت الدرج دون أن تسمح لقلقها بأن يُسرّع خطواتها. كانت نعومي جالسة وسط سريرها، تفرك رأسها، وتقرأ في كتاب مفتوح في حضنها.

«أوه... أليس في بلاد العجائب!»

تجنّبت دنيز نظرة الطفلة المندهشة والمحسوبة، وجلست بجانبها على السرير:

«أليس كانت تسقط أيضاً، أليسَ كذلك؟ أرني رأسك قليلاً. هم... أقل من أن يُشج بكثير... هل صدمته هنا؟ بالركض خلص الأرنب أليس كذلك؟ منتفخ قليلاً... هل تحبين أليس يا نعومي؟ لا، لا لم ينتفخ كثيراً.»

ألقت إلى فمها قطعة الخبز التي كانت تخبئها. وأثناء شرح نعومي بأن «أليس لم تكن تتألم نهائياً عندما تسقط»، كانت تتعجب من نفسها، ومن سبب عملها هذا، وسبب اختبائها خلف المعالجة بالعجين.

Twitter: @ketab_n

تناهت إلى أنفها رائحة العجين عندما كانت أمها وجدتاها يمضغن الخبز بلعابهن الدافئ ويلصقنه على مكان الورم. فكرة شفاء الطفلة هي أول فكرة جيدة تخطر ببالها منذ زمن طويل. لعل ما كان يشفي انتفاخات رؤوس الأطفال ليس العجين بل المواد الكيميائية التي تخرج مع اللعاب. العجين هو المادة الأكثر إعجازاً في الدنيا، وهذا سحر يتحضر بمزجه مع لعاب النساء. سحر مثل اللحم، مثل القمح. سيطر عليها برهة شعور بحب النوم وسط قطعة عجين خبز أكبر من جسمها ممضوغة بلعاب النساء، واختفى هذا الشعور. عند إخراجها قطعة الخبز من فمها:

«آلمك رأسك كثيراً، أليس كذلك؟ انظري الآن، عندما سألصق هذه فوق الانتفاخ. . .»

فور رؤية نعومي قطعة الخبز الممضوغة تقترب من رأسها:

«مامـ. ـاا!»

في طريق العودة إلى البيت تكلم طونتش مرة واحدة فقط:

«لعل ذهابك إلى باريس يفيدنا معاً يا دنيز.»

اعتقدت دنيز أنها رأت في ظلام طويل ممتد عبر الحقول أرنباً نظر إلى ساعته. لو شُج رأسها لن تهتم. أرادت السقوط. أرادت السقوط في عالم آخر.

Twitter: @ketab_n

٧ آب/ أغسطس ١٩٨٢، شاتيلا

كبّتي اللذيذة؛

عندما تنتهي هذه الليلة لا أعرف ماذا سنفعل. سننتظر ذلك الصباح الذي سيأتي وتنتهي فيه الحرب... نحن جميعاً رجال نفيد بالخروج إلى جزيرة «الحرب» عندما تغرق السفينة المسماة «بلداً». إذا أُنقذنا ذات يوم من جزيرة المصائب هذه فلن يبقى لنا قيمة أبداً.

حين ينتهي هذا الليل لن يبقى لدى الرجال مكان للنوم. لن يبقى لديهم مكان يختبئون فيه ويظهرهم على حق. حين تسحبين الأسلحة والمخاطر من هذه المدينة تغدو مثل الشباب الذين يضاجعون نساءهم، وعندما يصبح الصباح يهربون.

الحرب تظهرنا أكثر وسامة يا فليبينا. إذا انتهت ذات يوم سيتحول الرجال إلى ألعاب مدينة ملاهي مفكوكة، ويظهر بلاستيكنا المتعفن. سنظهر أننا من البلاستيك. يمكن للنساء أن يستيقظن كل صباح ويبدأن حياة جديدة، ولكن الرجال... رجال هذه الأرض مجروحون من مكان يا فليبينا، مهما أحببتِهم لا يشفون.

فكرتُ بهذا عندما كنت أنتظر أمك تفتح عينيها، وأردتُ أن أهرب بكل قوتي وكأن شيئاً لم يكن. لأنك تستطيعين الذهاب إذا كانت هناك حرب. تتصرفين وكأن شيئاً لم يكن. تستطيعين أن تختفي، وأن تكذبي أيضاً.

Twitter: @ketab_n

الجميع يقولون إنهم يكرهون الحرب بسبب الموت. أنا أكرهها لأنها جعلتني رجلاً كهذا، وسمحت لي بأن أكون هكذا. لأن الحرب مكان يناسب الرجال، ويناسب الكسالى والذين لا أصل لهم. ليقولوا ما يقولون. لهذا السبب يحب الرجال كلهم الحرب. تعطينا أسباباً مقدسة لنجرح قلوب النساء. جروح شباب الشرق الأوسط المستعصية على الشفاء لا يشفيها سوى البارود. يخافون النساء كثيراً، ويرغبون فيهن كثيراً... الحرب أفضل ضباب يختبئ فيه الرجل الخوّاف يا فليبينا.

النساء دائماً يستطعن البدء من جديد يا فليبينا. ولكن الرجال... عندما تنتهي الحرب يشبهون حلزونات تجرّ قواقعها. وإذا أخذوا منا قواقعنا لن يبقى إلا مجرد دودة تترك مكان مرورها لعاباً. لعلهم يجب أن يقتلونا جميعاً كما يفعل الأولاد عندما يرشون الملح على الحلزونات. إذا أردتِ رأيي يا كبتي، يجب ألا يترك الرجال الذين شهدوا الحرب في حالة السلم. لأنهم ينوّمون الحرب في أحضانهم. خيال العودة إلى الوسامة ذات يوم جميل جداً إلى حد أنه يجعلك لا تثقين بهم في السلم.

أعرف أنهم يحبون النساء كأنهم يحاربون حتى لو انتهت الحرب. كأنهنّ غنائمهم. لا يستطيعون نهبهنّ إلا بعد أن يسيطروا عليهن.

لهذا تكون النساء تعيسات في هذه الأرض. لأنهنّ يُسلبنَ كل يوم، ومن أجل أن يحمين أنفسهن يزددن قسوة. لديهن شيء له قيمة كبيرة عليه اللعنة، وعندما يضع الرجال أيديهم عليهن يحبسوهن في مكان لأنهم يعرفون أنه لا معنى له. هذا اتفاق متبادل يا فليبينا. كل طرف يعرف جرح الآخر جيداً. ولا يوجد عند طرف شيء يمكن أن يشفي الآخر. كل طرف يحاول تهييج جرح الآخر باستمرار. ولأن الألم أكثر شيء نعرفه نعتقد أن هذا حب. نتعرف إلى بعضنا البعض برفع قواقع

Twitter: @ketab_n

بعضنا البعض وجرح بعضنا البعض، ونمارس الحب، ثم نبقى دون مرهم، ونضرب بعضنا البعض.

في أغلب الأحيان لا أفهم النساء يا فليبينا. إننا نفعل فيهن أشياء تجعلني أستغرب كل يوم يحببنا فيه، ويحتضننا فيه. أعتقد لأننا ننجح في كل مرة بتركهن مثل كلاب مجروحة. لأن النساء يمتن إذا لم يُظهرن حناناً. أعتقد أن هذا هو الذي يجعلهن يقبَلْننا في كل مرة. لو كان الحب قضية تتعلق بنا فقط لهاجرن كلهن دفعة واحدة من هذه الأرض.

هل تعرفين ما هي مشكلتنا يا فليبينا؟ نحن نكبر لكي ننتقم لأمهاتنا. كل يوم يكبر صبي وسط هذه الحرب الملعونة والغبار والتراب. إنهم صبيان يتفرجون على بكاء أمهاتهم بسبب آبائهم. تعشقهم أمهاتهم بشكل يجعلهن لا يرين أن أولادهن كلما كبروا يشبهون آباءهم أكثر. يشيخون كل يوم وهم أطفال بوصفهم أزواجَ أمهاتهم. يكبرون وهم يعتقدون أن امرأة ذات يوم ستأتي. امرأة تقلب كل هذه التوازنات العبثية. ولكنها إذا أتت فليس لنا مكان نأخذها منه. لأننا لا نعرف كيف نحب امرأة لا تبكي مثل أمهاتنا.

نكره أنفسنا لأننا نبكيهن، ولكننا نعتقد أنهنّ لَسْنَ بطيب أمهاتنا حين لا يبكين.

مع أننا بحاجة إلى نساء يضحكن لنا؛ نساء يضحكن لنا، ويكسرن قوقعة الحلزون التي نتعب من جرّها خلفنا. ولكن أكثر ما يخيفنا هو ضحك النساء لنا. نحن تنقطع مراراتنا رعباً من النساء اللواتي يضحكن لنا يا فليبينا. لهذا لا ننجح بأن نُحِب أو نُحَب بفرح وراحة. نعتقد بأن النساء يحببنا بسبب قواقعنا المهيبة. ولا نراهن وهن يبكين كل ليلة على تحملهن هذه القواقع.

للرجال أشياء كثيرة معقدة يا فليبينا، لهذا نشعر بالراحة في الحرب. الصخب والتدافع، الأحاديث والقرارات المهمة، الغبار

Twitter: @ketab_n

والرصاص... لسنا مضطرين لأن نقول شيئاً أبداً. النساء يا فليبينا يحببن الرجال لأنهم على وشك أن يموتوا. ونصبح وسيمين لأننا على أبواب الموت.

استيقظت أمك يا فليبينا، وابتسمت. أنا نويت الهرب. ولكنّ شيئاً حدث بعد ذلك. حدث شيء وهي تتجول بين الغرف، وتصب القهوة، وتسرّح شعرها، وتغني أغنية بلغة لا أعرفها، وهي تنظر إلى المرآة بكنزتها الصفراء التي لا تخلعها أبداً حين لا يكون هناك أي شيء، وحين تمسك ضبة الشعر بفمها وتلتفت إليّ باسمة... حدث شيء. أنير داخل البيت. ليس أمك، بل ذلك الضوء ما لا أستطيع تركه.

نحن مطيعون على هذا النحو، لتأت امرأة إلى بيتنا، ويسقط ضوء صغير، فنذوب فوراً. بقيت في السرير أتفرّج عليها. ولكن شيئاً في داخلي يتمرد. صبي مشاكس في داخلي لا يتوقف عن الرفس، ولا يتركني براحتي. عليّ أن أغضب من شيء وأذهب، وأخرّب هذه المتعة. أنخز نفسي دون توقف. داهمني البكاء. ترى لأنه لم يحدث معي هذا في الأصباح السابقة، أم أنه لن يحدث معي ما حدث في هذا الصباح مرة ثانية، أم لأن مرارتي ستنفجر رعباً من البقاء دودة بصّاقة؟... أستطيع مواجهة الهمّ يا فليبينا، كل ما يحدث على هذه الأرض من مساوئ لا يبكيني. ولكن الجَمال... نُكسر أمامه من وسطنا كأننا فولاذ لم يُسقَ جيداً.

لماذا لم يقتل أحد أحداً في ذلك اليوم، لماذا لم يقتلع أحدٌ عينَ أحدٍ أو يطلق النار أحدٌ على أحد؟ لا أعرف. لم أذهب إلى المستوصف، ولم يطلبني أحد. أظن أنني اعتقدت في سري بأن هذه إشارة تتعلق بأمك. ولكن يجب أن يؤكد غيري هذا الأمر. من هذه الزاوية نُعتبر نحن الرجال مخبولين قليلاً يا فليبينا. أعتقد أن هذا الخبل لا يوجد عند رجال هذه المنطقة من العالم فقط، بل الرجال في كل

Twitter: @ketab_n

مكان هكذا. لا أدري من سيفجر تلك الثورات التي نتحدث عنها يا فليبينا. لأننا نحن الرجال نفرح كثيراً عندما يصبح ما نعيشه مشروعاً، ويلقى القبول. عندما يحب أصدقاؤنا امرأتنا، وتكون علاقة أُمّنا بامرأتنا جيدة، ويقول لنا آباؤنا «أحسنتم». . . إذا أردت رأيي، فإن الثورة إن كانت ستحدث، يجب أن تقوم بها النساء. نحن لا يُوثق بنا نهائياً. فهمت هذا أول مرة ليلة ذلك اليوم.

عندما دعونا «نحن» أي كلانا، إلى بيت على العشاء كنت مع أمك مرتاحاً جداً، واستمتعت بشكل مبالغ فيه لأننا نبدو، أمك وأنا، زوجين محبيين. ضحكت بهبل. انتشيت كالمجانين. شعرت بسعادة واضحة لأن المخيم قبلنا كلينا معاً. أثناء محاولة أمك الأكل بيدها، ووضعها الأرزّ في الخبز دون أن تسقطه، ضحك الجميع مع أمك عندما تسقط الأرز. . . زوّجونا على طاولة طعام دون أن نتكلم أبداً، بالضحك فقط. أي أن أمك صارت زوجتي في تلك الليلة. هكذا صارت فجأة. رأيت مدى متعتي حين أطرقت أمك برأسها وضحكت من حالتي تلك. حين ضحكت أمك رأيتُ نفسي. كانت تلك ذاتي المثيرة للضحك. شربت عرقاً، وضحكت. وكلما شربت، أضحك أكثر. وكلما ضحكت، أشرب أكثر. وفي أغرب لحظة من تلك الليلة قلت بصوت مرتفع:

«هذه المرأة تُعِدّ قهوة رائعة!»

لماذا قلت شيئاً كهذا، وجعلت خدَّي أمك يحمرّان، لا أدري. ولكنني بادلتها الحب في تلك الليلة كأنها زوجتي. كان قلبي مرتاحاً. عيب، أعرف، ولكن ليس لي اليوم من أحكي له هذا غيرك. احتضنت أمك كأنها زوجتي، ونمنا.

كانت الأيام التالية كلها متشابهة يا فليبينا. وجميلة مثل ذلك اليوم أيضاً. حدث تشقق في الحرب. صرت رجلاً مختلفاً. اكتشفت أن

Twitter: @ketab_n

هناك رجلاً آخر في داخلي، رجل ينظر إلى أثر البصاق اللمّاع الذي أتركه ورائي، ويضحك. أحببت كثيراً هذا الرجل الذي وجدته أمك في داخلي وأخرجته بأصابعها. الرجال الأطيبون في داخلنا جميعاً. . .

أفكر كيف استطعنا البقاء منتصبين يا فليبينا. لعل هناك شيئاً في زيت الزيتون أو الزيتون أو الحمّص أو اللبنة أو الطحينة. لابد أنها عندما تجتمع كلها تخلق ملامح تجعل المشرّدين من أوطانهم يبقون منتصبين على مدى الأجيال. لأنني لا أستطيع أن أفسّر كل ما حدث، وهذا المخيم، وما شاهدته في بيروت بقوة مقاومة الإنسان. من يعلم، لعل السبب هو أننا نأكل بأيدينا. لأننا نأكل مع خبزنا كل ما نلمسه بأيدينا، وما يلمسه الآخرون أيضاً. لعل الأطفال يُلقحون هكذا في هذه الحياة. يبدؤون الحرب عندما يأكلون من أيدي الكبار. الكلاشنكوفات، وأكياس الرمل، والخشخاش، وعرق الخوف. هذا اللقاح ينتقل من الأيدي إلى الخبز، ومن الخبز إلى الأطفال، ومن الأطفال إلى الفدائيين، وأفكر، كيف؟ دائماً نلقّح بعضنا البعض، وهكذا نتحمل هذه الحرب.

أمك أيضاً في تلك الليلة أكلت معنا أيدينا، نحن والمخيم كله. وكلما ضحكت احمرّت وجنتاها. أي أننا هكذا تزوّجنا يا فليبينا، إذا سألك أحد ذات يوم عن هذا.

. . .

Twitter: @ketab_n

١١

إذا استبعدنا شباب بيروت الفقراء الذين تمرّدت هرموناتهم إلى حد جعلهم يقفزون فوق الدرابزين على شاطئ البحر، وينزلون ثمانية أمتار إلى الماء بين الصخور، لن يسبح أحد في البحر القذر صباح ذلك الأحد. رغم هذا هناك من سينزل من نزلة الجعيتاوي بعد قليل ويذهب إلى المسابح التي على الشاطئ من أجل أن يسمّر جسده حتى المساء بتصميم. ولكن من المحتمل ألا تسمعهم عائشة التي تسكن في الطابق الثالث من البناء الواقع أعلى النزلة.

تجمدت عائشة أمام الشاشة بشكل جعل فضولها لا يتأجج لمعرفة ماذا حدث بين خروج ناصر وصفقه الباب خلفه، وتشغيل السيارة. حتى إنها لم تكن منتبهة إلى صراخها لنفسها:

«بنت مخبولة! إلى أين أنت ذاهبة؟ إلى كابول؟»

حين رأت يدها المليئة بنمش العجائز ارتفعت لتصفع شاشة الكمبيوتر كفاً، ثم أغلقت الفيس بوك، وفتحت اليوتيب. بحثت عن الشيء الوحيد الذي يهدئ أعصابها. قبل أن تبدأ الموسيقى كانت واقفة، وترقص:

«You are only seventeen... You are the dancing Queen...

You can dance, you can jive»

بعد أن رأت مشاهد فرقة «ABBA» على الشاشة كأنها ترى صور

Twitter: @ketab_n

أصدقائها القدامى فتحت الخزانة، ووقفت أمام المرآة الطويلة. نظرت إلى اهتزاز ثدييها بدون حمالات صدر داخل تي شيرتها الضيق. بَرَق الكتابة على القماش لمع مع ثدييها، ثم انطفأ:

«I know you are hot for me!/ أنا أعرف أنك تتحرقين عليّ!»

صرخت قائلة:

«You are only seventeeeen!»

التفتت إلى جنب، وحاولت سحب المتهدل من بطنها خارج بنطال الجينز. مهما أمسكت بنَفَسِها، فلا تستطيع سحب أكثر من هذا الجزء من بطنها البالغ ستة وأربعين عاماً. عضّت على قسم من خديها من الداخل، ودفعت بشفتيها إلى الأمام. رفعت تهدّل رقبتها بأصابعها ثم تركته.

قالت لنفسها: «بسبب غطاء الرأس». لعلها من الآن فصاعداً يجب أن تربط الإشارب من الأمام تحت ذقنها، وليس من الخلف. أيّ الحالتين تظهرها أصبى؟ يجب أن تذهب إلى الضاحية، وتشتري من رؤوس الأكمام التي تُلبس في الذراع، ولها نهايات دانتيل تنزل إلى الكفين. المنيكور الفرنسي أفضل، ناصر يحب الأحمر، ولكن الأظافر هكذا أنظف، رؤوسها بيضاء. حين ينزل دانتيل الأكمام على يديها ستبدو أجمل.

بعد أن تفقدت كل شيء في جسمها، وجاء الدور على عينيها، غضبت من المرآة:

«يا غرّة متخلفة عقلياً! القاعدة ها! هناك يفرجونك الحرب!»

لم تكن غاضبة لأن ابنة أختها رنا أبلغتها برسالة مشفرة أنها قررت الانضمام إلى القاعدة، ووجدت أن هذه الفكرة عبثية. في السنة الماضية قررت رنا أم نص عقل أن تتعلم التانغو، و«المتخلفة عقلياً» تعتقد أنه لا فرق بين الحالتين.

Twitter: @ketab_n

عقب انتهاء الأغنية سمعت شتائم بالإنكليزية لامرأة من بيت الدرج. استمعت لأصوات رجال ينزلون الدرج متمايلين، ثم ضحكت للمرآة:

«جان المنيوك! حرق نَفَس امرأة أخرى.»

يجب أن تحكي لناصر عندما يحل المساء. أثناء شرب العرق والاستماع لأم كلثوم سيتحدثان عن انحراف «الانعزالي القذر» مرة على الأقل في الأسبوع. وأثناء أداء أم كلثوم أنت عمري، سيتحوّل صوتاهما المهمومان إلى قهقهات، وستنتهي الليلة بابتسامة كرشين عجوزين أحدهما للآخر. قرصها ما بين فخذيها. ولكي تروّح عن بالها ضغطت على زر التشغيل في يوتيب:

«You are the dancing queen...»

إلى متى ستبقى تفعل هذا؟ حين تلتقط يديها، ووركها الذي لم يعد يناسب هذا الرقص، تخجل من نفسها. بلوزات وتي شيرتات صفراء وحمراء وخضراء ومزهرة بألوان صارخة، وبنطلونات جينز ضيقة في الخزانة المفتوحة تتهامس فيما بينها، وتتبادل النميمة حولها مثل نساء بيروت اللواتي يخنقن بعضهن البعض لكثرة مراقبتهن لبعضهن البعض. كأنها تصرخ بالألبسة:

«حسن، من سيحاسب على تلك السنوات؟»

هكذا سأل ناصر عندما تعرفت عليه. كان تبادل حب غريب بينهما. ضحكت عندما تذكرت. كان عليها أن تُفسر حصار مخيم شاتيلا عام ١٩٨٦، وكم تشعر بالذنب. ثم كان عليه أن يقبل بأن الفلسطينيين تحولوا إلى مرتزقة يحاربون بالنيابة عن الآخرين. لم يستطع المحاربان السابقان أن يتحابا إلا هكذا. وفي تلك الليلة تركا كلمات الزمن الماضي، ولم يعد يستخدمها أحد أصلاً. أُغلق الحساب، ومنذ ذلك اليوم وهي تحاول الإبقاء على جسمها البالغ أربعين عاماً شاباً بكل

Twitter: @ketab_n

ما أوتيت من قوة. صحت من سكرة زمن الحرب، وصارت تلبس يومياً جينزات أضيق، وبلوزات تصرخ أثداؤها أكثر منها لكي تحقق العدّ العكسي للزمن. أما غطاء رأسها، والحشمة... دائماً تبقى محتارة ما إذا كانت تلعن ذلك اليوم أم تضحك منه. لأنها عندما تفكر في سببه... كلما خطر ببالها ذلك السر الصغير الذي لا يُحكى لأحد، لأن أحداً لا يمكن أن يصدّقه... حسنٌ أن ذلك السر الصغير موجود. بهذا تعرف أنها «فرد» وأنها تختلف عن أمثالها. حتى لو سخر منها ناصر، فهي هكذا.

نعم يا رنا، هذه الأمور ليست هكذا. القضية ليست بالذهاب، فهناك رجعة. وترجعين بالتأكيد يا حضرة الآنسة! هناك مكان للجميع في الحرب، ولكن عندما تنتهي الحرب... أنت مضطرة لأن تكوني فرداً.

قالت: «أولاد مساكين»، وتحوّل صوتها في داخلها إلى الحنان: «يبحثون عن حرب يذهبون إليها. يبحثون عنها كأنهم يبحثون عن عشق.»

آه يا آنستي الصغيرة! ليس ذنبك أن تكوني ساذجة إلى هذا الحد. هذه الدنيا تفعل الأمر نفسه مع الجميع. لم يبق طرف يُلجأ إليه. أعرف، هذا في دمك، هذه الحرب جرت في دمائنا كلنا. عندما لا تجد مكاناً تتدفق إليه، نبحث عن حرب هكذا بسراج. ولكن لا يا حبيبتي، مضت تلك الأيام.

يجب أن تفتح هذا الموضوع لناصر أيضاً. لعله يتكلم مع الفتاة. حين ذكرت ناصر في داخلها، تذكرت ما ستفعله اليوم. يجب أن تجمع زهر برتقال من أجل ماء الزهر. تمسح فيه ياقات قمصان ناصر، وتغلي منه زهورات. بما أنه لا يوجد زهر برتقال في الضاحية، يمكن أن تؤجل قضية الحديث مع رنا اليوم. تذرعت بقضية زهر البرتقال لتؤجل

Twitter: @ketab_n

الحديث الذي لم ترغب فيه مع هذه الفتاة الساذجة إلى أجل غير مُسمّى. إذا كانت قد اتخذت قرارها فمن يستطيع أن يعيدها عنه؟ لعلنا يجب أن نترك الجميع لسير حياتهم. «ما علاقتي؟ ليذهب من يريد إلى المكان الذي يريد.»

حاولت أن تختار غطاء رأس مناسباً لبلوزتها. ولكنها احتارت وأحست بضيق. عقلها كان في مكان آخر.

حسن يا رنا، فكري هكذا. لنقل إنك ذهبت، ماذا تعتقدين أنه سيحدث؟ بالنتيجة ستصبحين مثلي. ها أنا أقولها لك بصراحة. ماذا أنا الآن؟ المقاتلة البطلة عائشة ماذا تفعل الآن؟ أنا محظوظة لأنني وجدت رجلاً والحمد لله. ماذا كان سيحدث لو لم أصادف رجلاً مخبولاً مثل ناصر؟ ابنتي، إذا لم تكن المرأة هنا زوجة فلان، أو ابنة علاّن لا تستطيع أن تعمل بالسياسة. تجلسين مثلي هكذا في البيت، وتصنعين ماء الزهر! إذا كان هذا ما سيحدث في الآخر لماذا تتعبين نفسك إذاً؟ هل تعتقدين أن الحياة لن تُعاش دون الإيمان بشيء؟ هاكِ، لدينا كلنا مئات المغامرات التي نرويها في هذا البلد. ماذا حدث؟ هل يرويها أحد لأحد؟ لا! لماذا؟ اسألي أباك وأمك، لماذا لا يتكلمان أبداً؟ اسأليهما أين كانا عام ١٩٨٦. يا حضرة الآنسة، هل صرنا هكذا من لاشيء؟ هكذا...

نظرت فجأة إلى المرآة. تزحلقت الإشاربات التي مرت عليها بأصبعها أربع مرات من أولها إلى آخرها، وسحلت إلى الأرض. تناولتها بعصبية، وألقتها على السرير. جلست، وبدأت تطويها واحداً واحداً. كانت تفعل هذا عندما تريد أن تُشفق على نفسها. تطوي بعض الأشياء. أحياناً تُخرج الألبسة الداخلية من الدرج، وتعيد ترتيبها، أحياناً تطوي مناديل السفرة الورقية بالمنديل. الطي جيد. كل شيء يصغر، ويُنظم، ويرتب، وبهذا يرتاح عقلها.

Twitter: @ketab_n

تناهى إلى أذنها صوت رنا وهي في السادسة عشرة من عمرها:

«حسن، لماذا تغطيتِ إذاً يا خالة؟ اشرحي لي هذا إذاً!»

شبهتها بحالتها عندما كانت في السادسة عشرة حين جلست في المطبخ، وسألتها هذا السؤال وهي ترفع ذقنها في الهواء، فاغرورقت عيناها. بالتأكيد لن تبوح لها بهذا السر. ولكنها قالت لها ما يجب أن تعرفه:

«لأنني يا آنسة رنا أريد أن أكون لا أحد. قديماً كان هناك حرب من أجل هذا. ولكن الآن... أريد أن أكون لا أحد. كفى! افهميها كما تشائين!»

نعم، نعم. يجب أن أكلم هذه الفتاة فوراً. ولكن دون صراخ أو عصبية، بشكل ليّن.

حين ضغطت على زر التشغيل في يوتيب، بدأت أغنية أخرى لفرقة «ABBA»:

«Take a chance on me... Baby I'm still free...»

Twitter: @ketab_n

١٢

رجال عراة من الخصر إلى ما فوق، ربطوا أنفسهم من خصورهم في أعلى أغصان الشجرة. شجرة دنيز. شجرة الدلب العملاقة في حديقة لينكولن كولج تُقلَّم، وهذا الوضع ليس إشارة حسنة قُبيل موعدها للقاء المشرفة على أطروحتها السيدة طرابلسي. دنيز من الصباح تلهّي نفسها بالقهوة التي اشترتها من بائع البوظة في ليتل كلاريندن، وباليد الأخرى نسخة الجزء الذي أرسلته للأستاذة من قبل، تجمدت في مكانها وفمها مفتوح. الرجال يدورون حولها كأنهم في ذِكر، وينزلون بسرعة إلى أسفل، ويسحبون الحبل ليرتفعوا من جديد، ويرمون بأنفسهم من غصن إلى آخر وبأيديهم مناشير يصغِّرون الشجرة.

شعرت دنيز بالقص في رجليها وذراعيها. أول يوم جاءت إلى أكسفورد وجدت نفسها في هذه الحديقة، تحت هذه الشجرة، فجلست على المقعد المخصص لشخصين أمامها وكأنها هدية ترحيب بها، وتمنت أمنية. كانت الشجرة بالنسبة إليها إلهة، وهي كبيرة جداً لتكون إلهة. طلبت من الشجرة إشارة لتعرف أن أمنيتها قُبلت، والشجرة حفّت بورقها عشرات المرات مثلما فعلت قبل قليل، واعتبرت دنيز أن هذا جواباً حنوناً. ومنذ ذلك اليوم وعلى مدى سنتين تأتي إلى شجرتها كلما كان لديها لقاء مع أستاذتها، وأحياناً من أجل أن تبكي مساء كلما

Twitter: @ketab_n

انصرف الجميع من الكلية، أو لكي تبدأ بكتابة الأجزاء التي لم تكتبها من أطروحتها، ومن أجل دفع جديد، أو لتشكرها على دفع جديد. ولكنها اليوم عندما رأت إلهتها تُكسّر، وتُحوّل إلى قرعة. . . كانت إشارة إلهية بأن هذا أسوأ وقت للقاء الذي ستجريه بعد قليل.

«نعم آنسة أوزتورك، فاجأتني.»

لم تُنزل السيدة طرابلسي جريدة الأخبار التي كانت تغطي وجهها.

أخذ الصمت يتعمق. كانت دنيز قد أقسمت على ألا تعطي واحدة من الإجابات المسلوقة والخربة. حين طال الصمت أكثر من اللازم، أنزلت السيدة طرابلسي جريدتها. تناولت علبة سجائرها دون أن ترفع عينيها عن عيني دنيز. كان وجهها الأسمر الدقيق يحضّر نفسه لجلسة سخرية لا ترحم مع ظُرف، وإهانة مخمرة جيداً. أمسكت علبة السجائر بحيث تكون الفلترات إلى أسفل، نقرتها على الطاولة ثلاث مرات. فكّت النايلون ببطء، ووضعت سيجارة في المشرب ببطء أيضاً. يختلط لون وجهها بلون طاولة الجوز، والسيدة طرابلسي خلف الطاولة تصبح بنعومتها وظرفها وسمرتها مخيفة أكثر. أصابعها المصفرة من التبغ تتحرك على قسم الأطروحة الذي سلّمتها إياه دنيز مثل أفاعي صابرة. كان في أصبعها الوسطى خاتمٌ ضخم جديد من الخواتم التي تغيّرها كل مرّة. كُتب على الفيروز بالفضة «الله واحد» لم يكن أحد يستطيع عمل شيء لتلك الأفاعي. فيما بعد، توقفت الأصابع:

«سيجارة؟»

رغم أنها منذ سنتين تسأل السؤال نفسه، وتتلقى الجواب نفسه، كانت تريد سماع كلمة دنيز: «تركته»، لتستمتع بتغريبها عنها لأنها تركت التدخين. كان لدى السيدة طرابلسي ألاعيب كثيرة كهذه، وملّت دنيز من كتابة ملايين السيناريوهات في الليل مفكرة في الأجوبة الظريفة والقاسية التي يمكن أن ترد عليها فيها، وتقبلت اليأس والانهيار إزاء

Twitter: @ketab_n

هذه المرأة. ليس لديها طاقة نهائياً لتفكر في ألاعيب السيدة طرابلسي الصحراوية، خاصة اليوم بعقلها المتشتت.

قميصها الفلسطيني الطراز من قماش قطني مطرز ومفتوح إلى مكان معين ما بين الثديين، وتنورتها الضيقة حتى الركبة ولديها منها العشرات، وبشرة ساقيها السمراء اللامعة، ووجهها المستوي تماماً، وحذاءاها بالكعبين الرفيعين جداً، وراحتها النابعة من نعومتها تجعلها جارحة أكثر... مقابلها دنيز ببطنها الفائض من كنزتها الخضراء ذات الياقة المدورة بارز طبقات طبقات عندما تجلس، وبنطلونها الجينز الذي يظهرها أقصر مما هي عليه، وجوربها الأحمر الذي اضطرت للبسه صباحاً داخل حذائها الزحف الأسود، وشعرها الذي «إذا جمعته لا يُجمع، وإذا أفلتته لا يبقى منتظماً» وشعر فوق الشفة الذي تزيله بلصاقات الشمع الجاهز فيبقى مكانه بقعاً سوداء.. تجلسان كأنهما سيدة محترمة وخادمتها. حل على دنيز كل ما في عقلها وجسمها من شعور بانسحاق وغلط وشعور بالذنب ولخبطة حين رأت أن حذاءها غير مصبوغ. وبشعور البطولة الذي يأتي فجأة للناس الذين لم يبق لديهم ما يخسرونه نهضت واقفة، وأخذت سيجارة من علبة السيدة طرابلسي كأنها تأخذها من علبة صديقة لها.

«أوه.. هذا يعني أنك عدت من جديد! مبروك!»

ردت دنيز بلباقة من بين أسنانها:

«سلمتِ.»

رفعت ذقنها متفاجئة بنفسها، وألقت رجلاً فوق رجل، ونفخت الدخان نحو السقف وهي تزمّ شفتيها. أسندت طرابلسي مرفقيها إلى الطاولة، وهزت برأسها، ورفعت حاجبيها وهي تبتسم:

«لا، لا، هذه إشارة جيدة. هذا يعني أن أطروحتك تسير جيداً. هذا يعني أنك حقيقة بدأتِ تكتبين شيئاً ما. يعني أخيراً!»

Twitter: @ketab_n

بقيت شفتا دنيز مزمومتين زمّ التكبر. كان من الواضح أن ضربة سكين نهائية ستأتي ما بين ثدييها بعد ضحكة السيدة طرابلسي السامة. ولكنها لم تعد تستطيع العودة عن الطريق الذي دخلته بعد الآن. ألقت ذراعها على مسند الكرسي، ورفعت أنفها قليلاً بإحساس كاميكاز، وقالت: «آه، هكذا إذن» ومنتبهة تماماً لخواء ما قالته من المعنى. لن تترك طرابلسي ملاحقة هذه الطريدة الصغيرة. تلوّت، وقفزت، وانقضّت بعضّة الموت:

«ولكن بكل الأحوال ما كتبته ليس هذا.»

ارتخت يدا السيدة طرابلسي على الجزء الثالث من أطروحة دنيز كأنها أفاع تريد أن تراقب موت فريستها بعد الهجوم عليها، وأنهت جملتها كأنها تلعق قطعة اللحم الباقية بين أنيابها:

«تلك، يعني إذا كانت موجودة طبعاً، متى نستطيع رؤيتها؟»

أفلتت نفسها دنيز مثل كل الحيوانات التي عرفت أنها ستموت بطريقة أو أخرى، وقررت أن تسلّم نفسها براحة لأنياب مفترستها، فقالت هذه المرّة:

«سيدة طرابلسي...» وابتلعت نَفَساً يسحق صوتها قليلاً: «أنا - إذا قبلت حضرتك - أعتقد بأنني من الأفضل أن أعمل مع مشرف جديد.»

ولكن السيدة طرابلسي كانت أثناء تصريح دنيز التاريخي هذا مسندة ذقنها إلى يدها، وتكز بأسنانها على ظفر أصبعها البنصر، وتنظر إلى الخارج:

«آنسة أوزتورك، هل رأيت أولئك الرجال؟»

طارت جملة دنيز التي اعتقدت أنها كبيرة بحيث لا تتسع لفمها مثل بالون ينفّس مصدراً صوتاً مرحاً، وانكمش في زاوية من الغرفة وضاع. تقدم وقع كعبي السيدة طرابلسي ببطء مصدراً صوتاً تسمعه لينكولن

Twitter: @ketab_n

كولج كلها إلى النافذة. وقفت على رجلٍ واحدة، وسحق كعب الحذاء الذي بقي حراً الأرض بقوة:

«تعالي، تعالي. تعالي إلى جانبي وانظري.»

حين كانت دنيز تعلك لسانها، وتحاول ابتلاع بكائها المتحول إلى كرة، كانت السيدة طرابلسي تنظر عبر النافذة وعلى وجهها ضوء أكسفورد الباهت:

«أنت يا آنسة أوزتورك تشبهين هؤلاء الرجال. تدورون حول شجرة معلومات ضخمة كالمروحة. وتقلّمين شجرة المعلومات دون انقطاع. ولا تستخدمين المعلومات التي في داخلك. تعتقدين أن المعلومة ستكون لك إذا عبدتِها. أنت طالبة رائعة بالنسبة إلى أستاذ يعبد الشجرة ذاتها. ولكن بالنسبة إلي...»

أول مرة تنظر دنيز إلى أعماق عيني طرابلسي، وهي مدركةٌ أنها حيوان له أنياب أيضاً، وشاعرة أول مرة أيضاً أن للكلمة والعين قوة:

«سيدة طرابلسي، حقيقة هل كان هناك ضرورة لهذا الحديث برأيك؟»

أسندت السيدة طرابلسي ظهرها إلى إطار النافذة:

«منذ سنتين وهناك شيء أود قوله لك يا آنسة أوزتورك. بما أنك ستتركينني بكل الأحوال...»

تراجعت دنيز مثل لبوة اندهشت حين وجدت أن لحم الطريدة سيؤلم أنيابها فتركتها حية:

«يعني ليس تركاً بالضبط...»

«لا، اسمعيني. منذ سنتين أنظر إليك، وألاحظ هذا. أنت مثل الماء الذي يخاف من الأحجار التي سيصطدم فيها وهو يجري. تدرسين الشرق الأوسط، ولكنك لا تذهبين إلى الشرق الأوسط. تدرسين الحركات الإسلامية، ولكن عقلك لا يتدخل. تعملين على الفقر،

Twitter: @ketab_n

ولكنك لا تغضبين. لماذا تؤدين دور الغريبة إلى هذا الحد آنسة أوزتورك؟ كأنك أجنبية؟ ما أريد أن تقوليه لي، لماذا أنت تُعدّين هذه الأطروحة؟»

جلست دنيز بجانب طرابلسي دون تكليف، واندسّت بها مثل فرخ حيوان جارح يقترب ليرضع من ثدي أمه الجارحة:

«آنسة أوزتورك... سأناديك دنيز. دنيز، أنت هجينة. هجينة قادمة من منتصف المسافة بين الشرق والغرب بالضبط. لا تبدو حالة الهُجْنة مفيدة، بل عائقاً. شعور الإنسان براحة فرديته يجرّده من أصله بسرعة. كأنك تحاولين أن تنسي أنكِ قادمة من ذلك الطرف من العالم. هل تفهمينني؟»

هزت دنيز برأسها فقط. اللبوة تضربها بمخالبها، ولكن هذه الضربات تقربها من الثدي فقط.

«أنت تعتقدين بأنك إذا عانيت عذاباً معيّناً، لمدة معينة، فسينتهي هذا الأمر. لعله صحيح. ولكن مثلما قلت، بالنسبة إلى أساتذة آخرين. ولكنك أنت اخترتني يا دنيز. كنت تعرفين ما سيحدث لك. أي.. أي أن هذا النص لن ينتهي إذا لم يصبح في وضع لا يمكنك التغلب عليه. لن ينتهي بالنسبة إليّ. يجب أن يكون شيئاً لا تستطيعين التغلب عليه يا دنيز. أنا آسفة. ولكنني هكذا. غير هذا، أنت أيضاً هكذا. غير هذا... أنا تابعت تكوينك يا دنيز. أنت قررت أن تكوني ذات يوم شيئاً رسمته لنفسك. لماذا؟»

كانت عينا دنيز مليئتين بقطرات ماء كبيرة جداً، تمكنت من الضحك والعض على شفتيها فقط. رفعت حاجبيها، ونظرت فقط. تابعت طرابلسي، وكان على شفتيها شبه ابتسامة قررت من خلالها تخفيف الأضرار التي أحدثتها:

«مع أنك كنتِ جيدة في البداية.»

Twitter: @ketab_n

أخذت السيدة طرابلسي منفضة السجائر عن حافة النافذة، ومدتها ناحية سيجارة دنيز التي نسيتها في يدها، ومسّت الرماد منها وأخذته:

«وهناك أيضاً. . . أنا أعرف تركيا يا دنيز، العرقية العربية عميقة بشكل مدهش. ترى أتكون العرقية السرية التي في داخلك من الأمور التي تعوقك؟»

«يوه! ليس إلى هذا الحد! الله الله!»

أول مرّة لم تمسك بنفسها دنيز، وحملقت بعينيها مندهشة من قولها هذه الجملة. بدأت السيدة طرابلسي تضحك:

«أخيراً يا دنيز! أخيراً استطعنا أن نحصل على ردة فعل شرق أوسطية منك. استمر هذا سنتين، ولكننا أخيراً أخرجنا الشرق أوسطية التي في داخلك.»

أدخلت السيدة طرابلسي جزءاً من مشرب السيجارة بين أسنانها، وأبرقت عينيها مثل الأولاد المشاغبين الذين حصلوا على ما يريدون. أول مرة تنظر إلى دنيز بهذه الطريقة، كأخت، كصديقة، كأم، كحنونة، وأكثر شيء كزميلة في لعبة. . .

قرّبت وجهها من وجه دنيز:

«هل تعرفين ما يجب أن تفعليه برأيي؟ يجب أن تذهبي إلى هناك.»

حين اهتز خدّاها بالضحك تدفّقت دموعها، وبينما كان بطن دنيز يرتجف من القهقهة، مسحت مخاطها بطرف كمّها.

«برأيي، اقضي وقتاً في الشرق الأوسط. اذهبي إلى بيروت يا دنيز، بيروت هي الأفضل بالنسبة إليك.»

خرجت كلمة بيروت من صورة قديمة باهتة بالأسود والأبيض فيها شاب وكلاشنكوف، وشخصت أمام عيني دنيز:

«بيروت؟»

Twitter: @ketab_n

أشعلت طرابلسي سيجارة بنشوة:

«نعم بيروت. لأن هذه المدينة هي لاوعي الشرق الأوسط يا دنيز. يمكن أن تري من أي مكان ما يحدث في الشرق الأوسط، ولكن لماذا يحدث... لا يمكن لك أن تري هذا إلا من بيروت. دنيز؟»

«نعم؟»

«أنا منتبهة أنني تجاوزت حدودي، ولكنك.. أنت يا دنيز، بحاجة أن تري لماذا يحدث. ثقي بي، واذهبي. سترين أنك ستفاجئين بنفسك.»

راقبت دنيز المربوطين من خصورهم، وأقدامهم على هذا الغصن وأخرى على ذاك. كم يبدون متقنين عملهم. يطيرون، ثم يحطون على غصن في كل مرة. كلما طاروا، وحطوا، تقرع الشجرة أكثر، وكلما قرعت يبدو الرجال بعين دنيز مثل ديدان تأكل الشجرة. تتحول الشجرة إلى حالة لا يمكن الجلوس تحتها، والأغصان تسقط مع الأمنيات المتعلقة بها على الأعشاب. تتكسر طموحاتها كلها وتسقط إلى الأرض متشتتة. فجأة يبقى فقر مكان الشجرة. مجرد لاشيء، غلط...

«هل تعرفين يا سيدة طرابلسي، لعلني يجب أن أذهب. لعله من الواجب عليّ أن أذهب من هنا بسرعة.»

Twitter: @ketab_n

١٧ آب/ أغسطس ١٩٨٢، شاتيلا

فليبينا؛

كنت أتفرج على استيقاظ أمك حين تخرج سيارات المنظمات في المخيم لتوزيع الخبز قبل شروق الشمس. ونهوضها بسرعة وخروجها لجلب الخبز كأنها تعمل هذا منذ ولادتها. وراقبت استخدامها للماء مثلنا. كانت تغسل يديها على طست، ثم تكب الماء في التواليت. والماء الذي تغسل فيه الخضروات، تمسح فيه الأرض بالتأكيد.

راقبت حفظها للأزقة، وكلما ضاعت في متاهة أزقّة المخيم تُصمّم على البقاء هنا أكثر. تابعت تعلمها العربية، وتكرارها لكل كلمة بصمت. واعتقادها أنها كلما فتحت عينيها أكثر، تمتصّ الصوت أكثر. نظرتُ إلى حفظها أسماء القادة، ومحاولتها حفظ كل ما تسمعه بعقلها. . . لماذا يذهب الإنسان إلى مكان يجرحه أكثر من أي مكان آخر، ولماذا يبقى هناك، فهمت هذا بالنظر إلى وجه أمك.

فهمت نفسي بالنظر إلى أمك. ولماذا رفضتُ الهوية اللبنانية المعطاة للفلسطينيين المسيحيين، ولماذا انتقلتُ من بيت الحمرا إلى المخيم، ولماذا جلستُ في قلب الجرح، ولماذا لم أغادر في كل مرة رغم إمكانيتي المغادرة. . . الجميع يعتقدون بأنني رجعت من أجل أن أداوي «شعبي». مع أنني مثل أمك أنا جئت لأداوي نفسي. بعضنا هكذا، يشفى في وسط الجرح تماماً.

لأن الجرح يا فليبينا أكثر مكان حي في الجسم. هناك الحركة. الروح في الجرح تماماً. نحن، أي بعضنا، مثل الدم. نذهب إلى حيث

Twitter: @ketab_n

الجرح. ولا نعرف كيف نتدفق بطريقة أخرى. هناك الحياة بالنسبة إلينا. العاصمة هي المكان الذي تتألم فيه الدنيا.

أقسمت ألا أفوّت أي تفصيل حول المخيم حين بدأت أكتب لك هذه الرسالة. أعرف أنني يجب أن أحكي لك عن أنابيب المياه الضيقة المارة فوق الأرض، وغرفة العمليات التي بنيناها مع أهل المخيم تحت المستشفى، ومولّد كهربائنا المتحرك على دراجات، وقائد «كتيبة الطلاب» حبيبي الشهم علي، وإي كي ٤٧، وإم ١٦، وآر بي جي، وضيق شاتيلا الذي يفرض قول: «ممكن تبعد قليلاً سأطلق النار!»، وزحمته، وكيف حفّظت الممرضات اللواتي دربتهن في المخيم على تسلسل استخدام «البنسلين ومضاد الكزاز والمسكنات» التي تعلمتها من الطبيب الإيطالي الإنسان الرائع غيانو في جنوب لبنان، وقضية «الطرف الثالث المجهول» الذي تلقى عليه التهمة كلما اشتبك الفلسطينيون والانعزاليون، وريمي الذي فقد يديه وهو يعلّم إخوته كيف يركّبون مخزناً احتياطياً لإي ك ٤٧... يجب أن أكتب لك رسالة طويلة جداً لكي أروي كل هذه الحكايات. مع أن تلك الحكايات لن يكون لها مكان في التاريخ الذي سيدوّن بعد سنين.

أعتقد أن الناس سيحكون كل شيء بعد سنين طويلة كما هو اليوم. أسماء القادة وقرارات مجلس الأمن، موديلات الطائرات والقاذفات وحلفي القاهرة وبغداد، لقاء القادة وضحكهم كلما التقوا وأتباعهم يمسكون بخناق بعضهم البعض... يروي الناس أشياء كثيرة لم تحدث معهم لكي لا يرووا ما حدث لهم. وستعيش القصص في التاريخ مثل الجرح الذي يتحرك فيه النمل دون توقف. وسيعمل التاريخ مثل جسد ضخم على مداواة تلك القصص باستمرار. وستبقى القصص التي لا تشفى المكان الأكثر حيوية في التاريخ. وسيتدفق الدم إليها.

يعتقد الناس يا فليبينا أن القصص التاريخية تبقي الناس واقفين على

Twitter: @ketab_n

أقدامهم. التاريخ الذي حفظوه، وأيمانات الانتقام التي حلفوها ونقلوها من جيل إلى جيل... لعل تلك القصص الصغيرة التي يراها الناس ويعرفونها هي التي تبقيهم منتصبين.

إنهم لا يعرفون هذا يا فليبينا. منذ بداية الحرب، أي منذ ست سنوات، وأنا أرى الناس الذين يحاولون مغادرة بيروت. ومع الوقت صار هناك أناس لا يفكرون بشيء أبداً غير الذهاب من هنا. وأكثرهم غادر. هل تعرفين بماذا أفكر أحياناً؟ أفكر بهذا وأنا أنظر إلى الحرب:

بما أن ضعاف النفوس وغير المحتملين غادروا، فهل الباقون، أي نحن، غلاظ؟ إذا كان التاريخ دائماً هكذا يا كبّتي الحلوة، فلعلنا أسوأ نماذج لنوعنا. أي أنه إذا كان الاصطفاء الطبيعي يقضي على الأضعف، فلعلنا نكون ممثلي النوع الأكثر فظاظة ووحشية. ولكننا نحن - الفظين الوحشيين - نعرف شيئاً يا فليبينا: سيتألم الذاهبون أكثر من الباقين. ستبقى بيروت في قلوبهم، وستبقى نازفة. لأنه لا يوجد أكثر إيلاماً من قصة لم تكتمل.

لن يكون الذاهبون مثلنا يا فليبينا. لعلهم في النهاية هم الذين سيقصّون قصصنا، من يعلم؟ لأن هذا ما يحدث دائماً. لا يستطيع من عاش الشيء أن يرويه، الذاهبون دائماً أدرج لساناً. لأن أكثر ما يعلمنا إياه العيش هو السكوت. العيش مع بعضنا البعض، يعلمنا السكوت مع بعضنا البعض. الصمت، ثم عمل المزاح المؤلم. ونحن هنا هكذا نفهم التاريخ. بالمزاح...

قالت أمك: «أريد أن نصطاد سمكاً». نهضت من السرير منكوشة الشعر، وهكذا قالت:

«علينا أن نصطاد سمكاً!»

ونحن يا فليبينا، في وسط الحرب، عبرنا من هذا التاريخ كله، ومن نقطة تفتيش حكومتنا في الفاكهاني - هكذا نحن نسمّي مركز

Twitter: @ketab_n

قيادتنا الذي تأسس خارج شاتيلا في الطريق الجديدة - محيّين الفدائيين بصنارتينا، وعبرنا.

مشينا إلى الحمرا، ثم نزلنا إلى الكورنيش، إلى البحر. عبرنا من أمام المنارة. قالت لي أمك:

«تشبه حوتاً قاتلاً ضربه البر... حوتاً يقف على ذيله!»

وصلنا إلى «البراميل». كان كل شيء طبيعياً يا فليبينا، ممكن أن نموت. لم أسأل عن «الحالة الأمنية» في ذلك اليوم، مع أننا يجب أن نسأل عن «الحالة الأمنية» كما نسأل عن حالة الطقس والطرقات. علماً أننا يجب أن نستمع إلى القيل والقال في المخيم والمدينة جيداً، ونجمع الأخبار الأوثق، ونمررها من فلتر الغريزة المكتسبة مع الزمن لنحسب ما يمكن أن يحدث. ولكننا كنا مضحكين كثيراً، وطبيعيين أكثر بصنارتينا، فمشينا، وذهبنا. من يعلم، لعل هناك من يحمي العشاق على وجه الأرض. صعدتُ على واحد من البراميل المملوءة بالبيتون داخل البحر، وصعدت على واحد. بقينا هكذا طوال اليوم. اصطادت أمك سمكتين، وأنا واحدة. طوال اليوم لم تنظر أمك إلى وجهي. نظرت إلى البحر فقط، ومن دون أن تتحرك. بعد ذلك حملنا صنارتينا، ورجعنا إلى المخيم. هذا كل شيء، لم يحدث شيء آخر.

ولكن النساء هكذا، لا نعرف متى يضعن في عقولهن أخطر المخططات. عندما نمنا في السرير، مثلما قالت صباحاً «علينا أن نصطاد سمكاً»، قالت بالعينين نفسهما:

«علينا أن نعمل ولداً!»

كانت ليلة الواحد والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر. قررنا عليك في أطول ليلة، وأعتقد أنني في تلك الليلة نجحت بأن أضعك في بطن أمك. لنقلْ نجحنا. أعتقد أن هذا ما حصل. لأن أمك اعتباراً من تلك الليلة صارت أكثر جرأة.

Twitter: @ketab_n

أعتقد أن الحمل عالم آخر يا فليبينا. النساء الحوامل، أو بعضهن على الأقل، يعتقدن أن شيئاً لن يحدث لهن. تطلب مني أن أمسك بطنها عندما تسمع إطلاق النار من بعيد ليلاً فقط. لم تكن تخاف، ولكن كأنها تريد أن تسد أذنيك.

بكت ذات ليلة فقط عندما جلبوا إلى المستشفى جرحى. كان ولد في الخامسة عشرة من عمره، ولأنهم نقلوه على عجل، ولا يعرفون كيف يحملونه، فقد تحركت فقرات الرقبة. بدأت أمك تبكي. أسقطت شاش الضماد. في تلك الليلة قلتُ لها للمرة الأولى: «اذهبي إلى بلدك. ستسوء حالة المكان هنا أكثر. لن تنتهي هذه الحرب، اذهبي.»

قالت: «أنت بيتي» وبكت أكثر.

كانت تتعلم النهوض صباحاً لجلب الخبز مثلنا، واستخدام الماء مرتين، وتتعلّم أن إي ك ٤٧ يمكن أن تنفجر في اليد عند تركيب مخزن إضافي، وأن بيت الناس الوحيد هنا هو أناس آخرون. هكذا هي الحرب يا فليبينا، البيت الوحيد للناس هم الناس الآخرون. عندما تفقدين أحداً، أنت لا تفقدين شخصاً فقط، بل تفقدين بيتك أيضاً.

الذين ذهبوا في تلك الحرب يا فليبينا فقدوا بيوتهم أيضاً. لهذا السبب لم أذهب. لهذا السبب بقيت أمك. القصص المعيشة تبني بيوت الناس لبعضهم البعض.

...

Twitter: @ketab_n

١٣

بعض الأشياء التي تُخبّأ في البيوت لا يمكن أبداً التأكد من أنها لن تلزم، ولكنها تُنسى على هذا الأمل. الأسلحة المخبأة في كل بيت من بيوت بيروت تقريباً ستنظف صباح ذاك الأحد، وتُزيّت، وتُجرّب ما إذا كانت تعمل أم لا. ولكن الست زينب التي تسكن في الطابق الأخير من بناء نزلة الجعيتاوي عجوز تجاوزت الأيام التي تجعلها تفكر بالسلاح، وكانت قليلة خبرة بالمشاكل والتناقضات الداخلة حديثاً إلى حياتها، وتتطلب محاسبة ضمير أكثر مما تتطلب سلاحاً.

«طبعاً يا روحي، من حقها أيضاً أن تتعلم العربية.»

كانت الست زينب متعبة من الصراخ لمروان من أجل «شجرة الخبز» وأقنعت نفسها وهي تحضّر الكبد النيئ ودهن الإلية الذي جلبه المعلم ناجي، ثم وهي تنقي أوراق النعناع الأخضر ورقة ورقة ببطء شديد: يمكن لفلييبنا أن تتعلم العربية إذا أرادت.

«درس واحد في الأسبوع. يوم الأحد طبعاً. أنا معها في البيت أصلاً... ألا نتكلم نحن دائماً؟ تتكلم يا روحي!».

انتبهت كم تمضي وقتاً طويلاً في البيت دون أن تتكلم. صار البيت يُشبه بيت الشيوخ والعجائز. أكياس نايلون تطوى وتوضع في الدرج، كعك لم يرمَ رغم بياته، زيت زيتون في قعر المرطبانات ولم يسفح، ومربّى تين يُزال عنه العفن في كل مرة ليصبح قابلاً للأكل، وصعتر

Twitter: @ketab_n

متكتل لأنه لم يعد يؤكل كما في السابق... مثلما تذهب اللقم من بلعومها بندرة وبطء، صارت الكلمات أيضاً تخرج نحو الأعلى بالندرة والبطء ذاتيهما.

«وفي أقرب وقت «Speed Queen» في أقرب وقت... نعم نعم، يجب أن تقول لناصر كي يأخذها إلى المصلح. في هذه المرّة لا تريد سماع تنفيخ المصلح، وقوله: «ما ماركة هذه السيارة يا ست زينب؟» نعم، نعم. الأفضل أن يأخذها ناصر.»

حين دفنت نفسها في كنبتها، كان الغضب فقط يتدفق من شعرها الأبيض من الأسفل، والأسود من نهاياته. لماذا يسأل كل هذا عن ماركة سيارتها الأنتيكا؟ «ها هو مكتوب على مؤخرها Speed Queen!». تتذكر أنها كلما قالت هذا يضحك أجراء محل الصيانة كلهم. ما هي مشكلة هؤلاء الناس مع هذه السيارة؟ أصلاً لا تستخدمها أبداً. توقفت، وفكرت. متى أخرجت سيارة Speed queen آخر مرة من الأشرفية؟.. ابتسمت مقابل النعناع ابتسامة خضراء طازجة.

«مقاومة مودكا كافيه»

هدأت عصبية شعرها. كم اندهش الشباب المحتجون على افتتاح هذا الذي في الحمرا. ما اسم سلسلة محلات النهب المتعدد الجنسيات الذي فتحوه مكان «مودكا»؟ فارو... فورو... فيرو موضة؟ «ماذا يعني، ألا أستطيع أن آتي أنا؟ ابعد من هنا حبيبي! نحن كنا ننظم احتجاجات في كافتيريا مودكا قبل أن تولد أنت.»

كأن الشرطة التي تحمي منطقة «فيرو موضة» كما تحمي أرض لبنان لم يعصّبها شيء أكثر منها ومن سيارتها Speed Queen التي لم تكن تتقدم في زحمة المواصلات بأي طريقة. ضحكت في سرها. تكلمت مع الشباب كالأبطال. رفعت أصبعها في الهواء:

Twitter: @ketab_n

«إذا كنا نفعل أشياء صغيرة من أجل تغيير العالم فالسبب الوحيد لهذا أن العالم قد صغر، حبيبي! ولسنا نحن!»

وكما كان يدخل الفدائيون إلى بيروت أدخلت سيارة Speed Queen إلى الحمرا. صفير وصراخ! أشعلت سيجارة وسط الشتائم، وأخرجت ذراعها من النافذة، وأشارت بيدها بمعنى: «ماذا حبيبي؟» وعادت إلى الأشرفية في أبهى حالاتها. إلى الصمت... الصمت الذي لا يتذكر السيد هادي ولا مودكا كافيه ولا الفدائيين، ولا يتذكرها، ولا يتذكر بيروت...

«هل يجمع هذا الكسول مروان الأكياس من أمام الأبواب يا ترى؟ هل... فليبينا... لا يا روحي. مروان شاب شريف. ثم ماذا سيفعل بالغريبة المسكينة فليبينا؟ أصلاً البنت واحدة ناعمة.... المهم يا روحي، البنت أيضاً يبدو عليها واحدة ذكية. ماذا تفعل بالسوري المقطوع مروان؟ أثناء الاحتلال السوري، ممكن، ولكن الآن بعد أن انتزعت رُتب مروان كلها...»

خجلت مما فكرت فيه، وتناولت ربطة نعناع جديدة، وبدأت تنتف أوراقها واحدة واحدة.

«لا يهمني ما يفعله أيام الأحد أصلاً. لا يا روحي، لتتعلم العربية إن أرادت. قبل أن تصل إلى التاء المربوطة تكون قد ملت، وتركت.»

أجرت في عقلها حساباً صغيراً. جمعت كل الإيجارات الصغيرة التي تقبضها من البناء كله، وطرحت منها مائتي دولار لفليبينا. وحين كانت تحسب ما يجب أن تطرحه مقابل درس اللغة العربية...

«المهم يا روحي، سندفع له ما يُدفع عادة. خلص!»

كأنها غضبت من النعناع:

«ما علاقة هذا بالنعناع! ليس له رائحة. لو كان نعناع البقاع...»

Twitter: @ketab_n

تعلقت للحظة برائحة النعناع في مزرعتهم الكبيرة في سهل البقاع، ورائحة النارجيلة بالخشخاش التي كان يدخنها والدها، ورائحة زيت الزيتون من يدي أمها، ثم عادت. لم تغضب من النعناع. ما غضبت منه لم تستطع قوله حتى لنفسها. عادت إلى تلك اللحظة في الجميزة الأحد الماضي فقط.

* * *

«بونجور حبيبي!»

جلست العائلة العربية الخليجية في كافيه باول بعد أن رُحّب بها بالبونجور بصحبة الصخب ونبرة الحديث الخشنة. الأب الشاب السمين ينادي النادلين بنفاد صبر الأغنياء:

«حبيبي، بونجور!»

كانت الست زينب جالسة على الطاولة المجاورة، وليس معها من تقول لها ما يدور ببالها غير فليبينا التي جلبتها من نزلة الجعيتاوي إلى الجميزة مشياً:

«أعصاب هؤلاء النادلين متوترة بسبب القبعات البيض التي ألبسوهم إياها. لهذا السبب لا يريدون أن يعملوا. قبعة بيضاء لشباب بيروت! ما هذا؟ هذه مشكلة الكولينالية يا حبيبتي فليبينا، يتركون وراءهم القبعات البيض حتى عندما يذهبون!»

حين لم تضحك من ممازحتها، خمدت نشوتها في وجهها. ما إن كانت تهمّ بالعودة إلى قهوتها وقعت عينها على الطاولة المجاورة. مقابل الأم بالثوب الأزرق الداكن، وعلى الكرسي بجانب الولد الضخم، ثمة امرأة نحيفة سمراء مائلة إلى السواد. الخادمة السيرلانكية. إنها مثل بقعة سمراء صغيرة على الكرسي، ومع صمتها تتضاءل أكثر. أرادت الست زينب أن تعود إلى قهوتها وألا تنظر إليهم، ولكن عينها تعلقت بالسيرلانكية. كانت كأنها خائفة من «الشراب

Twitter: @ketab_n

المثلج/ frappe» الذي طلبوه لها دون أن يسألوها، ووضعوه أمامها كأنه بطولها. كانت السيرلانكية تلعب بالكرسي لتفهم ما يجب أن تفعله، وتنظر إلى الأم التي تتحدث مع ابنها صراخاً لكي لا يُصدر صوتاً أثناء شرب الشراب المثلج. كانت أصغر منهم جميعاً. كانت ضعيفة جداً وكأن العائلة كلها أكلتها حتى بقي منها ما بقي.

نظرت السيدة زينب إلى فليبينا... زحلت في الكرسي قليلاً. نادت النادل:

«حبيبي، ممكن قليلاً؟... لو تأكلي شيئاً فليبينا... حبيبي، هات لنا قائمة الطعام!»

كأن السيرلانكية لم تكن هناك، وتجلس في عالم آخر، وتنظر إلى عالم آخر. كأنها دمية ضُغط على زر توقيفها، وهي لا تدور حالياً. كانت متضايقة. كأنها لا ضرورة لها لأنها لم تعمل. مثل الفيليبينيات والأثيوبيات والسيرلانكيات اللواتي رأتهم في المنارة. تذكر الخادمات اللواتي يُلعّبن الأطفال في الحديقة أثناء شرب أمهاتهم النارجيلة. حين يهرب منهن الأولاد ليذهبوا إلى الألعاب يُسبلن أذرعهن دون معنى، ثم يعقدنها على بطونهن، ويخفن كأنهن في عالم فارغ تماماً لا ضرورة لهن. يتلفتن فيما حولهن، ولا يعرفن ماذا يفعلن. حين تذكرتهم الست زينب، اندهشت. أرادت أن تتكلم أكثر مع فليبينا.

«إذا كنت لا تريدين أن تأكلي خذي بوظة. لا، أنت كلي! كلي بوظة روحي! لو سمحت حبيب، هات لنا صحن بوظة مرتباً بالفواكه. واحضر لي فنجان قهوة وسط. هيا!»

قررت العائلة الجالسة بجوارهما أن تلتقط صورة لها في كافيه باول في بيروت. ناول الولد هاتفه النقال إلى السيرلانكية. نهضت السيرلانكية. كانت مرلبكة من وقوفها في الكافيه، خائفة كأن الجميع ينظرون إليها...

Twitter: @ketab_n

«إي. . حبيبتي فليبينا، لماذا تريدين أن تتعلمي العربية؟ احكي لي.»

أثناء تمتمة فليبينا بأشياء ما، لم تكن الست زينب تستطيع رفع عينها عن الطاولة المجاورة رغم أنها لا تريد هذا. ابتسمت العائلة كلها ابتسامات عريضة، ولكي تعطي المرأة انطباعاً بالتحبب رجفت شفيتها المنفوختين طويلاً - ماذا كان اسمه؟ سيلكون! -. أخيراً، حين بدت العائلة كلها قد ارتاحت، وصارت مرحة، قال الأب: «يا الله! صوّري وأرينا!» وابتسموا كثيراً إلى حد أن السيرلانكية بدأت تبتسم وهي تنظر إليهم. صوّرت. وعندما أشارت لهم برأسها أنها صورتهم، انقلبت وجوه أفراد العائلة إلى حالتها السابقة المتضايقة والمتذمرة، ولكن وجه السيرلانكية بقي في حالة الابتسام. أدركت فوراً أنها الوحيدة التي تضحك، فأعادت الهاتف للولد الضخم، وعادت بسرعة إلى جلسة الدمية المغلق زر تشغيلها. لم تفهم السيدة زينب أي كلمة مما قالته فليبينا وهي تراقب هذا المشهد، وتغضب منه.

«مهما يكن حبيبتي، إذا أردت تعلّم العربية، تعلّمي! وأنا سأدفع الأجرة! انتهينا!»

أدركت السيدة زينب أن صوتها قد ارتفع كثيراً من حملقة عيني فليبينا.

«حبيبي، لو سمحت، هل لديكم سجائر؟»

جلب النادل السجائر، وكان شعر السيدة زينب منتصباً. دسّت فلتر السيجارة بين شفتيها المتشققتين والمجعدتين كما كانت تفعل أيام زمان:

«أنت حرة أيام الأحد! اخرجي، وتنزهي! أنت صبية، استمتعي!»

* * *

حين غسلت النعناع على المغسلة اعتقدت أن النعناع كثير بسبب ما كانت تفكر فيه.

Twitter: @ketab_n

«يا روحي لو لم أكن بحاجة الفيليبينية فهل أجلبها؟ ثم إنني أدفع لها أجراً جيداً. وأتصرف معها بشكل جيد...»

سمعت صرير الباب وسط صوت الموسيقى الغريبة المنبعثة من التلفزيون. رفعت رأسها، وتنصتت إلى الصوت وهي تنظر إلى انعكاس جزء منها على زجاج الخزانة. صوت ارتداء الحذاء، وأخذ السترة عن العلاقة... توقفت هكذا وهي تنظر إلى نصف وجهها الظاهر على الزجاج، وتظاهرت وكأن السيد هادي لم يخرج من الباب. لم تستطع قول هذا الذي فعلته حتى لنفسها. تناولت حفنة من النعناع، واستمرت بغسلها ببطء شديد، وواحدة واحدة. كانت متعبة.

Twitter: @ketab_n

١٤

«هل تريد أن أقول لك الحقيقة يا طونتش؟»

تحت جسر ماكدلان، وعلى المقعد المطل على عشب مجرى النهر الجاف الممتد إلى ما لانهاية وكأن مُخَطِط مدن مأساوية تركه بوصفه رسالة صغيرة للمدينة قبل أن ينتحر، وجدت دنيز المداخلة التي أمضت اليوم كله بكتابتها أكثر عبثية. كلما أرادت أن تفعل شيئاً عبثياً يأتي صوتها من مكان بعيد عنها. رفع طونتش رأسه فجأة ببطء، وبسخرية متأخرة وكسولة:

«الحقيقة؟ هذا يعني أننا سنفهم حالتك هذه شبيهة المقلاة الحامية بدون مقبض. تفضلي؟»

ثمة ضيق حنون مثل راحة الكف في صخب اللعبة الهزلية التي يمثلها الزبائن جميعاً في بار بيرس المتكون من رائحة بيرة وأنفاس. ترتفع أصوات الحديث الجماعي المستمر طوال الأمسية وينخفض دون أن تشرح شيئاً بفضل الهزل الذي تمر فيه أسماء لاعبي كرة القدم، ونجوم البوب القدماء، ويتكلم الجميع فيما بينهم. الجميع يغدون اجتماعيين بمن فيهم الماسكين هواتفهم بلاك بيري يحاولون البحث عن إجابات للأسئلة عبر الإنترنت.

«أفكر في ما نضحي به من أجل الطمأنينة والاستقرار طوال الحياة. كلانا... وما ضحيت به أنا... أفكر... ماذا نقدم لكي نكون

Twitter: @ketab_n

أفراداً. . . ليس لدينا قصة، ونعمل ما بوسعنا لكي لا يكون لدينا. لا نتحرك من أمكنتنا لكي يغدو كل شيء كما يجب أن يكون.»

بسرعة مدهشة، بدأ طونتش يتحدث بعجلة متوترة ليخفف من ثقل حديث دنيز:

«اسمعي إذاً، أنا أيضاً سأقول لك شيئاً يا آنسة دنيز. . .»

«تفضل، أنا أسمعك. . .»

«. . .» نظر إلى دنيز غير مؤمن بأنها تسمعه.

«لا، لا. أنا أسمع حقيقة.»

«انظري يا دنيز، هذا ما أردتِه منذ البداية. أنتِ أردت أن تأتي لتعيشي في برج أكسفورد، وتفكري، وتكتبي، ولا تلتقي مع ما تبقى من العالم، وأن تعملي هذا فقط. هل هذا صحيح؟»

«صحيح يا sir»

«حسنٌ، ما سبب هذه المواقف الساخرة الآن؟»

«يعني أننا ستتكلم بصراحة هذه الليلة»

«سأقول لك إذاً يا طونتش. أنا شعرت بالضيق من قضية الحياد هذه. مللت من عدم تأييد طرف في هذه الحياة. ومن كون كل شخص فرداً. . . ومن تصرفك كأنك تربيت في سويسرا. . . هكذا برقيّ وعقلانية. . . يعني. . بشكل عام. . .»

«يعني مللت. بشكل عام!»

«ليس بهذه البساطة.»

نام صوت دنيز، وطوّقت خصر كأس البيرة بيدها جيداً:

«نحن أيضاً نعيش لكي لا يحدث لنا شيء مثل هؤلاء الناس جميعاً. ولكن كل هذه الطائرات، حقيقة لا تذهب إلى أي مكان. يعني. . . طونتش، نحن لا نذهب إلى أي مكان، ألا تفهمني؟»

Twitter: @ketab_n

«هل تقولين إننا سننفصل؟»

«أنا.. لا، عندما ذكرت «الذهاب»... أقصد أن الناس لا يتحركون من أمكنتهم. هناك دنيا أخرى بعيدة... كأننا... كأن هناك عالماً أنتمي إليه أكثر... أي أن أحداً لا يذهب بالمعنى الحقيقي إلى أي مكان. كأن كل شيء مركّب لكي لا نذهب. فيس بوك، غوغل ماب. لا أدري، مراكز الدراسات...»

«بدأنا من جديد... ما علاقتك بشغلي...»

«ليست القضية شغلك. الأشياء المحطمة والمهلهلة تحزن قلبي.»

«ما الذي قلتِه؟»

«لا تهتم. أي أن كل شيء سليم جداً، وموثوق جداً، وثابت للغاية... كل شيء سليم، وكل شيء ثابت، ونحن... نحن... لم نجرؤ على مجرد إنجاب طفل يا طونتش. برأيك، أليس في الأمر غلط؟»

بقيا جامدين أحدهما بوجه الآخر.

«أنا آسف جداً، اللغة التي تتكلمين بها... هل هي تركية؟»

بينما كان وجه دنيز يتحول إلى ثقب جورب ضخم التفت طونتش بحركة ناعمة، وأجاب الزوجين المسنّين الجالسين على الطاولة المجاورة:

«أهنئكما. عموماً يعتقدون أنها عبرية.»

نظرت دنيز من بعيد إلى صوت طونتش وفمه وعينيه الجاهزتين لتعليقٍ مرح في كل لحظة، من مسافة تبتعد تدريجياً. تدخّلت العجوز في الحديث:

«العبرانيون يتحدثون ضاغطين على الأحرف الساكنة أكثر منكم. يلاحظ الفرق من إبرازكم حروف العلة. وبالطبع هناك أيضاً...»

مدت العجوز المنديل الذي أمامها. ثمة كلمات حبرها مشتت

Twitter: @ketab_n

مكتوبة على المنديل. نظرت دنيز إلى الكلمات المترجمة كتابة إلى الإنكليزية:

«تضايقت... استقرار... فرد... طفل...»

ابتسمت دنيز مثل كشاف ربط فولاره عقداً كثيرة، وابتسم طونتش والمسنّان بالطريقة نفسها بالضبط:

«نحن كلانا مدرسا ترجمة كتابية.»

نتيجة التشابه بين الزوجين تحوّل وجهاهما إلى وجه واحد مشترك. وجه واحد عجوز أبيض زهري لا رجل ولا امرأة، لا جميل ول قبيح، ولا طيب أو شرير. وهذا الوجه الآن يتتظر باللباقة الممزوجة بالدهشة نفسها ما سيقوله دنيز وطونتش حول عملهما دون أن يقولا شيئاً. أكسفورد كوكتيل كبير ومستمر، وعلى الجميع أن يتبادلوا «مجالات الخبرة» فيما بينهم. حين بدأ طونتش بالشرح تجمدت عينا دنيز على عدم تعبير مخيف. كان طونتش يشرح لنفسه:

... هي لا تفعل أي أكل هواء، نعم، نعم! في الحقيقة إنها هكذا في السنتين الأخيرتين. هل أدخلتها أكسفورد بالجو، أم أنها من الأصل هكذا وأنا خدعت نفسي؟ لا أعرف. يكتبُ تقاريرَ لمركز الدراسات الذي يديره الله أعلم أي صاحب رأس مال، وهو يكتب تقارير بشكل مستمر. لا نعرف تقارير ماذا، ولكن بعد كل تقرير يصبح لدينا مبلغ لا معنى له من المال. ونجد أنفسنا في باريس، وبرلين، وبتسبورغ. في الحقيقة إن طعم الكافيار لذيذ ونحن نركب المركب في نهر نيفا، ولكننا أثناء تناولنا الكافيار لا نستطيع أن نمنع أنفسنا عن التفكير بعدد الذين خسروا عملهم والنقابيين الذين قالوا: «ليس هذا ما أردناه» نتيجة الثورات الملونة في أوربا الشرقية تحت اسم الديمقراطية ودعم اقتصاد السوق.

طونتش رجل صغير. ويساهم في هذا النظام الذي لا يحقق نتيجة

Twitter: @ketab_n

كما يساهم الرجال الصغار. ذنوبه صغيرة مثله، ولا تظهر بين الذنوب الكبيرة. أي أنه مثل الآخرين «ليس له ذنب»، يعني هو أيضاً مثل الآخرين: لا يعطي قراراً، ولكنه هناك ليعوق اتخاذهم قراراتٍ أسوأ!

نعم، جميل أن نلمّع كأسين حول حياتنا شبه البوهيمية في مدريد، ولكنني أموت رعباً حتى حين يخطر ببالي ونحن نمارس الحب أنه يجالس أناساً تافهين يقولون: «الفقر خيار» ويضحك معهم. وفوق هذا يخطر ببالي في الفترة الأخيرة. كل يوم يقول إنه لم يفعل أي سوء لنفسه أو لي، ويكتب تقاريرَ فقط. أي أنه محايد، يقدم معلومات فقط. ولكنني أعرف أنه كلما شعر بشيء يقلقه يعتبر نفسه أكثر براءة. وستسوء حالته ذات يوم إلى حد يجعله يعتقد أن إصراره على البراءة ولِد مع القلق.

نحن دائماً نسافر، ولكننا في الحقيقة لا نذهب إلى أي مكان. ركبنا طائرات كثيرة حتى اليوم، ولكننا لم نتحرك من مكاننا. هذا ما يفعله طونتش: يدور الدنيا دون أن يتحرك من مكانه أو يوسخ أي مكان، ويرتكب جرائم دون أن يكون عليه أي ذنب.

لا أنسى أبداً ذات مرة كان يجري حواراً في ندوة. ماذا سيقولون حول مصير تلك الدولة، وبالتدريج سيقررون مصيرها. يذكر الوزير باسمه الأول. «رجلنا هناك... يعني، كيف هذا الرجل؟» قال طونتش: «عنصر الدب!» وضحك الجميع. ثم تحدثوا كم يجب أن يقبض ذلك الشعب من البنك الدولي، ومن صندوق النقد الدولي. كم يجب أن يُقترح ولأي بنك؟ بدأت المساومة حول كم يستحق هذا الشعب مساعدات من مؤسسات التمويل العالمية. ملايين الدولارات. مليارات الدولارات. أعتقد أن أحدهم شعر بالسأم فيما بعد، ففتح حديثاً عن البيض بالبطاطا السيئ الذي تناوله قبل يومين في أسبانيا. وآخر عن طول السمك الذي اصطاده في إيطاليا في نهاية الأسبوع.

Twitter: @ketab_n

دائماً يضحكون. ثم عادوا من جديد إلى ملايين الدولارات، وضحكوا من جديد. كأنهم يلعبون لعبة. بعد أن انتهوا، قال طونتش: «لو لم تكن لعبة، ولو لم نعش الحالة كلعبة، لفقدنا عقولنا جميعاً». أي أن هذه حالتهم وعقولهم في رؤوسهم. هذه حالتهم وهم أصحاء. يضحكون، وبين الحديث عن البيض بالبطاطا والسمك يركّبون جملة القرار الذي سيعطى حول مصير شعب. كيف أضاجع هذا الرجل أنا؟ هل يستطيع الإنسان أن يضع الدنيا على الكوميدينة وهو يمارس الحب؟

هذا لا يجوز. الإنسان يمارس الحب كما يعيش. إذا كنت تعطي قراراً حول مصير شعب وأنت تتكلم عن البيض بالبطاطا والسمك، فهكذا تقبل، وهكذا تمسك الآخر. كيف يستطيع الإنسان أن يبادل الحب بكل معنى الكلمة من ليس لديه ضمير حتى ولو كان جميلاً جداً؟ إذا كان كل شيء لعبة، ماذا لو كنتُ جزءاً من اللعبة أيضاً...

اللعبة التي نلعبها نحن هي:

نجمع سوية ألواح صابون صغيرة. عبوات شامبو فنادق وألواح صابون صغيرة غير مستخدمة من مختلف دول العالم. ونصفّها في حمامنا، حتى إذا دخل أحد ما إلى التواليت يعرف إلى أي دول ذهبنا. حمامنا نظيف جداً! نحن نجمع الصابون دون انقطاع. كلانا لدينا صابون. يتكاثر الصابون في حمامنا بوصفه إشاراتٍ صغيرة برغوة على سفراتنا التي تنتهي قبل أن ننطلق بها. لا نذهب إلى أمكنة ليس فيها صابون. أعتقد أن رجالاً أهم من طونتش يكتبون تقارير عن الدول الخالية من الصابون. وإذا وِفقنا ذات يوم، وقررنا إنجاب أولاد، نفكر أننا سنريهم هذا الصابون. لدينا هدف واحد: العيش دون أن يحدث لنا شيء! نحن محايدان ونظيفان...

«أنا؟ أنا أعمل غلى سياسة الفقر والإسلام.»

ثلاثة أزواج عيون على الطاولة انتظرت - ودنيز لا تقل عنهم -

Twitter: @ketab_n

تقديم طونتش تفسيراً أوسع. حين أنهي الصمت بقول: «ها، هكذا إذاً» وابتسامة، همس المسنان لدنيز وطونتش مشيرين إلى وسط الطاولة:

«نحن سنذهب إلى التواليت. ممكن أن تنتبها إلى حقيبتينا؟»

بينما كان طونتش ودنيز ينظران بشرود إلى العجوزين، تطابق الوجهان أكثر بابتسامة خبيثة، وذهبا إلى التواليت.

قال طونتش: «هذا كثير، كنت سأقول فياغرا، ولكن... اللهم سترك؟ شيء يدعو إلى الاشمئزاز يا بنت. أف!»

قبل أن تثير اشمئزازهما ممارسة الجنس بين عجوزين، وقول هذا منذ البداية، وذهابهما إلى التواليت، وقبل أن يسخرا من هذه الحالة ويؤكدان عليها، عاد العجوزان. عاد الاثنان متوردي الخدين من السعادة، وجلسا. أشار الرجل إلى تحت الطاولة كأنه شاب في سن البلوغ. كان ممسكاً بشيء تحت الطاولة، ويريد أن يريه لدنيز وطونتش. بداية نظر طونتش، كأنه لم يشمئز قبل قليل، بل ابتسم لانضمامه إلى لعبة شغب.

قال الرجل المسن: «فعلناها».

قال طونتش لدنيز: «انظري». هناك علبة تزييت تنقّط بيد الرجل تحت الطاولة:

«منذ أسبوعين ونحن نحاول عمل هذا.»

ومن وراء كتف الرجل تنط المرأة من حيث تجلس مثل صبية، ثم تكلمت:

«أخيراً زيّتنا باب هذا البار الذي يصدر صريراً. وهكذا لم يبق باب في أكسفورد لم نزيته.»

أطلق طونتش قهقهة كأنه داخل باللعبة منذ البداية. وبينما كانت دنيز تبتسم، توجهت إليها العجوز بشكل خاص، وضحكت:

Twitter: @ketab_n

«ماذا نفعل؟ يجب أن نبدأ من مكان ما لكي نغيّر الدنيا.»

ها ها ها، هو هو هو... صارا فردين في البار. وانخرطا في نشوة القهقهة الهزلية التي غطت البار تماماً. كانا يضحكان إلى درجة أن طونتش لم يستطع رؤية ما خلف عيني دنيز.

«طونتش... طونتش... نعم، نعم. مضحك جداً، معك حق... انظر، أنا... طونتش! أنا ذاهبة.»

«ها؟ ما أجن هذين المسنين ياه! إلى أين ستذهبين يا حلوة؟ إلى باريس؟»

قالت دنيز: «هه» وعلى وجهها خط ضحكة صافية إلى حد أنها لن تكون حقيقية: «إلى باريس!»

ضحكا كثيراً في الجزء المتبقي من السهرة مع المسنين، فاعتقد طونتش أن الأمر سيتم وكأن شيئاً لم يكن. فتح حديث صرير أبواب بارات ومطاعم أكسفورد كلها، وضحك منها كلها. حين نهضت دنيز لتخرج إلى الخارج اعتقد طونتش أنها ذهبت إلى التواليت، ولكنها خرجت إلى أمام الباب، وطلبت من الشباب العرب سيجارة. قدموها لها، وأشعلوها. بدأ يهطل المطر. لم يكن تحت السقيفة سوى مجموعة صغيرة من أناس سمر، وكلهم يشعرون بالبرد. عدة طلاب أمريكيين لاتينيين يسألون طلاباً عرباً تتذكر دنيز وجوههم من مظاهرة فلسطين عن آخر أوضاع حزب الله وحماس. والجميع في أثناء تدخين السجائر، والحديث، والضحك، والاستماع لبعضهم البعض بجد، كانت ذقونهم ترتجف بالحدة ذاتها. الشباب الشرقيون الذين تركوا الضحك في الداخل وخرجوا ليتحدثوا في قضايا بلدانهم وهم يشعرون بالبرد، كانوا يتحدثون بدقة وانتباه كأنهم يتلون وجهة نظر على مجلس الأمن في الأمم المتحدة وهم يتكلمون مع طالب أمريكي وكأن مصير شعوبهم سيتقرر في تلك اللحظة.

Twitter: @ketab_n

حين اشتد المطر صرخ واحد منهم بعد أن جمّع الدخان كثيراً، ونفخه:

«ما هذا الربيع!»

قالت دنيز بلكنة إنكليزية تبالغ في انتمائها الشرق أوسطي: «ربيع غريب». إما أن الجميع حاولوا تمييز الممازحة التي حاولت أن تمازحها من الحزن الذي على طرف شفتها، ويخرجونها، أو أن دنيز اعتقدت هذا. لم يسأل أحدٌ أحداً تحت السقيفة عن عمل الآخر. كل السمر ابتسموا.

Twitter: @ketab_n

١٩ آب ١٩٨٢، شاتيلا

. . . وقررت أمك زرع أشجار برتقال يا فليبينا. لا تسأليني عن السبب، لا أعرف. وليس لدي أي فكرة عن الطريقة التي أقنعت فيها ريم رئيسة الاتحاد النسائي الفلسطيني. أصلاً كلما اجتمعت الاثنتان يحدث شيء غريب. من يراهما من بعيد يعتقد أنهما تتشاجران، وكل منهما تقول للأخرى أموراً ببرودة الثلج، وبعد أن تنفصلا تحدث تغييرات ما في حياتنا، وأحياناً في المخيم. ذات مرة خيّم الياسمين على كل شيء. ولا أعرف كيف فعلتاها حقيقة. وذات مرة أيضاً أخذت قراراً بطلاء البيت بالكلس. ولهذا واجهة واحدة من بيتنا مطلية. وجدن كلساً، ولكنني أعتقد بأنه حتى ريم بقيت عاجزة عن إيجاد حل لقضية الماء.

يا كبّتي الحلوة؛

كنا في شهر نيسان/ أبريل. بيروت تفوح برائحة البرتقال. وكانت الرائحة نفوذاً إلى درجة أنها تصل إلى المخيم. وأمك - حقيقة اعتقدت أنها فقدت صوابها في تلك المرحلة - خرجت من المعسكر حتى دون أن تخبرني، وذهبت لرؤية أشجار البرتقال. عندما عادت لم تكن مهتمة لغضبي، ولا لانشغال بالي عليها. قالت بتصميم بالغ:

«يجب أن نزرع أشجار برتقال!»

صرختُ قائلاً: «لماذا يجب يا حبيبتي؟ هنا لا يوجد مكان للناس، فكيف للشجر؟»

Twitter: @ketab_n

قالت: «يجب أن نزرع أشجار برتقال، لأنني سأولد، وأريد أن أرى أشياء جميلة والجنين في بطني.»

كانت تضع يديها في خصرها، وتتكلم بعصبية جعلتني ابتعد عن موقع الحدث والذهاب إلى المستشفى من أجل ألا أجرحها. في الأيام التالية لم يفتح موضوع أشجار البرتقال نهائياً. اعتقدت بأنها تراجعت، ونسيت. وإذا بأمك وضعت خطتها السرية قيد التنفيذ، وأعدت هذه الخطة الرائعة مع الرفيقة ريم الشهمة. عندما حل المساء خرجتا مع فدائييّن، وأثناء حراسة الفدائييّن، اقتلعتا شجرات برتقال صغيرة وجلبتاها إلى المخيم. كانت ريم بالطبع السبب الوحيد بإدخال الفدائيين في هذه الخطة المخبولة، وحتى عدم إبلاغي بأي شيء.

فعلتا هذا يا فليبينا، حين عادوا ومعهم ثلاث فسائل برتقال كنت أعتقد أن أمك عند بيت أبي ناجي. وأعتقد أنني صرخت في أمك ذلك اليوم للمرّة الأولى والأخيرة.

«أنت مجنونة يا امرأة! ستقتلين نفسك، ومن في بطنك!»

وهي أيضاً صرخت عليّ للمرّة الأولى والأخيرة:

«نعم جُننت. جنّني هذا المكان! وستتحمل هذا يا دكتور حمزة! وإلا كفى، الطفل في بطني. نذهب كلانا. الآن ستقوم من مكانك، وسنزرع هذه الفسائل معاً!»

لم أهتم للبكاء، أي أنها كانت تبكي. ولكننا تصرفنا وكأنها لا تبكي، وزرعنا الفسائل واحدة أمام بيتنا، والثانية في الفسحة بجوار بيت أبي ناجي، والثالثة في مدخل المخيم.

حين كنا عائدين إلى البيت، أمسكت بيدي، وقالت:

«أنا قررت أن أعلّم الشباب الإنكليزية. في المخيم، أي دون أن أخرج منه. ليكن بعلمك!»

ولكنها لا في تلك الليلة، ولا الليالي التي تلتها قالت لي إنها

Twitter: @ketab_n

مقابل تعليم الشباب الإنكليزية تتعلم منهم فك السلاح وتركيبه، وصيانته، والتسديد به، وبعض الأمور المتعلقة بالقتال. نعم يا حبيبتي فليبينا، بقيت أمك عدة أسابيع تعتقد أن في داخلها ليلى خالدا! أي أنها لو وجدت طائرة في محيطها لكانت خطفتها. بعد شهر فقط، حين بدأ بطنها يكبر، كانت تحفظ إي كي ٤٧. لا أعرف متى تعلمت التمييز بين أصوات القنابل والأسلحة، ولكنها ذات ليلة قالت لي:

«هذا أبو عبده!»

أي أن أمك لم تعرف أصوات القذائف فقط، بل تعرف ألقابها التي تُطلق عليها!.. والشبان كانوا في تلك الأثناء يستطيعون غناء المقطوعات المشهورة لذلك العام. لو رأيتِها يا فيليبيا، كان هناك أولاد يأتون حاملين أسلحتهم. لم تكن أمك تعلمهم التحية ولا السؤال عن الساعة، تعلمهم كيف يقصّون قصصهم بالإنكليزية. وتعلّمهم المسير أيضاً.

قلت لك، هذا المخيّم مكان صغير، ويصغّر رجلي الإنسان. فيصير كل مكان بعيد على الإنسان عندما يبدأ بالعيش هنا. لهذا كانت أمك تسيّرهم من أول المخيم إلى آخره، وتجعلهم يغنون أغنية. لا أدري إن كانت أمك قد جُنّت، أو أن الشباب وجدوا لأنفسهم لعبة مرحة؟ كانوا يمرون أحياناً من أمام النافذة:

"Honey I'm still free/ Take a chance on me/ Gonnado my very best/ It ain't no lie/ If you put me to the test/ If you let me try..."

كنت أقول لنفسي في تلك الأيام: «لعل تغيير العالم شيء كهذا». وبقدر ما تلقيتُ إشارات من المنظمات حول الانزعاج من تعلم «أغاني الإمبريالية» وتعليمها، تعلّمتُ كيف أغيّر العالم وأنا أراقب أمك. يجب أن تأخذي بعين الاعتبار التغيّر والضياع والذوبان أثناء التغيير يا فليبينا، وتعلمتُ هذا من أمك. عليك أن تسمحي للناس الذين تساعديهم بأن

Twitter: @ketab_n

يساعدوك. يعني تتعادلين معهم. ستتعادلين معهم حتى النهاية. وقتها يتغير الناس. أي يأخذون شكلاً جديداً.

يوم وُلدتِ، أي في شهر أيار/مايو من سنة ١٩٨١ فتّحت شجرة البرتقال أمام بيتنا أزهاراً. وكل يوم أضع زهر برتقال على سرير أمك. أي أنك عندما وُلدتِ كانت تفوح منك دائماً رائحة زهر البرتقال. فيما بعد أخذت الطائرات الحربية الإسرائيلية شجرة البرتقال تلك. ذهبت أمك مع أزهار برتقالها. ولكنني سأروي لك هذا فيما بعد. الآن هناك قصص أخرى يجب أن أرويها.

...

Twitter: @ketab_n

١٥

إنها ليست هنا هذا الأحد.

إنها ليست فرداً، ولكن كأنها واحدة منا. تعيش معنا، وكأنها ليست موجودة. لو اجتمعنا كلنا لا نستطيع أن نقول أين هي. كأنها مجموعنا كلنا. مجموع حساباتنا بين بعضنا البعض. شجاراتنا، وشجاراتنا كلها التي نوّمناها قبل أن نغلقها. إنها تشبه من نرمي ذنوبنا وقهقهاتنا كلها في بئرها. لا نذكر اسمها كثيراً. لأننا جميعاً نعرف عن ماذا نتكلم. لأنها هي سبب كل شيء.

فيها إصابات رصاص منذ البداية، وحين تمطر تؤلمها آثار الرصاص. يجري غبار الزمن من جروحها، كالشحّار. ولكن عين الإنسان عندما تعتاد لا ترى جروحها. نحن لا نستطيع رؤيتها. هكذا اعتادت عيوننا. أصلاً صرنا كلنا نشبهها إلى حد ما. تعلمنا منها أن تتكئ جروحنا أحدها على الآخر وتسكت.

إذا تركتها وذهبت، فإنها تترك لديك أثر جرح ناجم عن ترك امرأة تحبها كثيراً. وإذا رجعت إليها، فهي ظالمة كرجل يقول لامرأة: «أنا لم أرسل بطلبك!».

تُشعرك بأنها تخونك كلما أحببتها، وبأنها تتركك تحت الشمس مثل جندي بقي دون معركة كلما تسلحت بسلاحها ولبست درعها.

تلكز الإنسان دائماً. ولا يمكنك أن تحبها إلا إذا كنت طفلاً كبرت

Twitter: @ketab_n

وأنت تأكل الضرب وتسامح عليه. لأنك إذا أردت أن تحبها يجب أن تتعلم الكره. يمر من لا يعرف هذا عابراً. يأخذون منها قصة مما لا يعرفونه، ويعرفونه، ويقصّونها دائماً، ويذهبون.

أتعرف لماذا يأتون إليها دائماً؟ لأنها في كل مرة تعيد إليهم شبابهم. لديها شيء كهذا. كل من يعرفها يقول هذا. لعلهم لا يستطيعون قوله، ولكن هذا سبب عودتهم إليها كلما لفّوا وداروا. بسبب ما ترويه لهم، بسبب القصص التي تقصّها عليهم في كل مرة، يدفعك الفضول لمعرفة ما بعد هذا، لأنها تجعلك طفلاً إلى حد ما، ولداً مشرّداً ليس له بيت يحاسبه. لديها غدٌ دائماً، وليس لديها أمس. لهذا تتجمد بعمر معيّن ليس له أمس عندما تكون معها.

تتكلم دون توقف. تتكلم كثيراً. ثمّ انها تحرّك يديها وذراعيها كثيراً أثناء الكلام. تقطب حاجبيها، لا تهتم. تعتقد أنها تتشاجر معك دائماً. أنت أيضاً تتوتّر، وهذا سيئ جداً. لا تستطيع مجابهتها، لأنه ليس للغضب نهاية. عليك أن تبتسم. عليك أن تبتسم كلما غضبت، وتقول لها بلغة مناسبة:

«لا تفعليها يا حاجة، حرام!»

ينهار غضبك. وكيف ما كان الأمر أفلا تعرف هي أفضل من الجميع أنك لن تستطيع الذهاب إلى البيت، ولن تلمس أحداً؟ ستداعب ظهرها، لأنها لا تلين إلا عندما تعرف أنها محبوبة. لديها عادة غريبة كهذه. حتى إذا هاجمتك، وعرفت أنك هناك من أجلها، تبكي من الشعور بالذنب، مثل الصبيان الصغار، الصبيان الذين يستغربون شغبهم ولكنهم لا يستطيعون السيطرة على ظلمهم.

تُقلّد الأصوات جيداً، وتُميّز كل صوت. لديها هذه الخصوصية. لأنها في الحقيقة تعيش على الاستماع. وتُقرر حسب الأصوات. تعرف أصوات الطيور كلها، وأصوات الأسلحة والناس. لأن أذنها تربّت على

Twitter: @ketab_n

تمييز الأصوات الناعمة في الأبجدية العربية. وتعرف أنها إذا لم تحفظ هذه الأصوات لن تبقى على قيد الحياة. أي أنها تعيش كالغابة قليلاً. تُقدِّر حجم الخطر بواسطة الأصوات التي تسمعها، وتدرك قرب الخطر وما سيحدث، ولمن سيحدث بالتنصت على الأصوات.

انظر، إنها تعرف المتعة جيداً جداً. ضع أمامها مشروب العرق، وقليلاً من الكبّة والنعناع، تذهب إلى النهاية، إلى نهايتك... أقض معها ليلة، وانظر إلى نفسك. كيف تجرّبك! ترتكب كل الذنوب التي لا تستطيع ارتكابها مثل شرب الماء، ومثل أخذ النفس، دون أن تدري. لا تخف من صباحها، لأنك لن تجدها بجانبك. لهذا تريد أن تجرّبها من جديد. تقول لنفسك بعشق واندفاع: «العلني أستطيع الإبقاء عليها هذا المرّة». لا، مستحيل. فهي ملكة المحتالين، لا تستطيع أن تخدعها.

تجعلك تتكلم. تجعلك تقول ما لا تستطيع قوله. ينهال من فهمك كل ما في بطنك، وكل ما تخبئه في قاعه. هذا ما يجعلك أصلاً تتجدد في كل مرة. هي تقصّ عليك القصص، ولكنها تجعلك دائماً تتكلم عن نفسك. لا ينتهي الكلام عندها، ولكنك تنتهي. حين ترى قعر ما عندك، افهمْ أنك معها. اذهب، اذهب إلى غيرها، وجرّب. لا، مستحيل. ستعود. أما رأيت قعر ما عندك؟ جعلت من نفسك أسيراً. تريد منها أن تقص عليك قصة من جديد، وتستمع من أجل أن تنسى قعر ما عندك. لم يعد ينسيك ما رأيته في ذاتك غير قصصها. لهذا أنت تريد دائماً أن تظهر بمظهر أجمل، وتخشى من عدم إعجابها بك. وهذا يبقيك حياً.

تستخدم كلمة «يعني» كثيراً. في مكانها وغير مكانها. إذا أردت أن تعرف السبب، فهي تعتقد أنك لن تفهمها. سبب استخدامها كثيراً من كلمات «يعني»، هو إخراج قلب القضية بحفر الجمل التي تركّبها. لأن

Twitter: @ketab_n

قصتها معقدة جداً، ولأنك كنت بعيداً عندما حدثت القصة، تفكر أنك لم تفهمها. جرّب قصّ تلك القصص، ستفقد بريقها، ولن تنجح.

ودائماً تقول: «نسيت، لا أعرف». في الحقيقة تعرف اللعينة كل شيء! ليس هناك شيء واحد تنساه. ولكنها تعرف أن أحداً ليس لديه الوقت. لهذا لا تقول ما تريد قوله. تتذكر كل شيء، ولكن لِمَ تحكيه؟ بماذا سيفيد؟ «ثم إن القصة لم تنته!» هكذا تقول.

كثيراً ما يُحكى عن رائحتها. مع أن رائحتها رائحة إنسان فقط. لا تفوح منها أي رائحة غير رائحة الإنسان. لأنها تشبهنا جميعاً. ولكنها دائماً أجمل منا. ليس لها أحد غيرنا، ولكنها لا تخيّب أحداً منا. تهز كتفها وتمر مثل شاب في التاسعة عشرة من عمره. ولكن إذا سألتها، فهي مسنة أكثر منا جميعاً.

إذا سألت ما الجميل فيها لا أحد يجيبك. أنا أقول لك. دائماً تعتقد أنها فعلت شيئاً دون علمك. هذه بلية الجميع. لأنك لا تستطيع إيجادها إذا لم ترد هي، تجلس، وتفكر بما يمكن أن تفعله. ينشغل بالك، وتغضب، وتدهش من نفسك عندما تجدك، ومن حبك لها من جديد كأنك لم تغضب منها. إنك ضعيف أمامها، وتحب حالتها هذه. تحب حتى بصاقها بوجهك، وتلقيحها لك على هذا النحو، وتشبيهك بها.

متقلبة، كل يوم في شكل. إذا طلع خلقها، عليك أن تبحث عن مكان تختبئ فيه، واهرب إلى تحت الأرض. إذا كان مزاجها جيداً، اخرج معها إلى الكورنيش. تدخّن نارجيلتها وكأنها ليست التي أطلقت النار على الجميع قبل قليل. وتحشش كثيراً. بالتأكيد لا تستطيع تحمّل نفسها بطريقة أخرى. لا تستطيع النوم بطريقة أخرى.

سمراء وضعيفة وضئيلة وشعرها أجعد. انظر، لا تستطيع أن تشبّهها بأحد حتى تنظر إليك، إلى بؤبؤ عينك، وكأنها تحبك كثيراً،

Twitter: @ketab_n

ولا تحب أحداً مثلك. كأنها انتظرتك دائماً، وستحكي لك كل شيء، وتعطيك كل ما لديها، وكأن ليس لديها غد، وكأنها غير مبالية. ستنظر إليك مهمومة... تقول: «وهل في داخلي مكان كهذا؟» وتصل إلى هناك. تنتظر انفلاتك، لترى كيف تتعرى. من أجل أن تداعب لحمك وبطنك، وأن تقبّل حتى تحت أبطيك. لكي تعضك حتى من هناك. لا تفلت نفسك. لأن تلك العيون لا تنظر مرة أخرى بهذه الطريقة، حتى تريد هي مرة أخرى، وحتى ترغب هي برؤيتك تتعرى من جديد. هذا كل شيء. حتى ذلك الوقت سيكون عملك هو لملمة نفسك. هكذا فقط. انفلتْ، ولملمْ نفسك، وانفلت مرة أخرى، ولملم نفسك من جديد. هكذا تعمل بحال الإنسان. تريد ألا تنتهي أبداً.

لماذا؟ لأن لدى الإنسان مكاناً كهذا. لأن الإنسان يريد أن يضيع. لا تردّ على ما تقوله أنت، يريد الإنسان أن يضحّي بنفسه. يريد أن يذوب في ألم، في فرح، في شجار، في قصة. في الحقيقة لا يستطيع تحمّل نفسه بطريقة أخرى. لا أحد غيرها يعرف ذلك المكان، لصّة العمر اللعينة.

في الحقيقة هي محطمة. داخلها مليء بقطع الزجاج. هذا سبب ظهورها أحياناً كالمشكال. انظر كثيراً، ولا تشبع. ولكنها قطع الزجاج تلك التي تبدع الصور الملونة بتصادمها وتجاورها وانقسامها في المشكال. مع كل انكسار تدمى هي أيضاً. أي أنها مشكال نازف إذا أردت الحقيقة. لأن قطع الزجاج كلما تصادمت تنسلّ روحها منها.

ولكن لا يعرف أيضاً، لأنها في كل مرة تؤسس لنفسها عالماً من زجاج كأن شيئاً لم يكن، كأنه لن ينكسر من جديد. يبدو أنها لا تستطيع النسيان بطريقة أخرى. ومن أنت لكي تتذكر أنها مضطرة للنسيان. لا تتعبها بأسئلتك، فهي تحاول أن تنسى ما تحفظه في عقلها.

تدخّن سجائر كثيرة. لم تستطع الإقلاع عنها بأي طريقة. يقولون

Twitter: @ketab_n

لأنها لا تأخذ أي شيء يتعلق بالموت على محمل الجد، ولكن ليس هذا. في الحقيقة إنها لا تعرف أين تضع يديها فقط. إذا فلّتت يديها، وارتاحت قليلاً، أي وقفت، ستسقط. لهذا تتحرك. دون توقف. وتهز بركبتيها حين تجلس. وإذا مشت تلعب بشعرها الأشعث. تدسّ فيه أصابعها دائماً، وتعبث به. لأنها إذا فلتت، ستنقطع.

لديها كثير من المعارف، ولكن ليس لديها أحد. لا تنظر هكذا. إنها يتيمة بشكل أليم. لعلها تكون واحدة جيدة جداً لو كانت في مكان آخر، وزمن آخر. كأن الجميع يحلمون بهذا الحلم. ولكن هذا ما حدث. كأن كل شخص يحبُ هذا الاحتمال قليلاً. احتمال أنها ستقف ذات يوم، ومعرفتها أنها ستموت إذا توقفت... كل شخص يحب ما يعيشه فيها. اسأل الجميع، هكذا سيجيبونك. سيروون لك ما حصلوا عليه معها في أهم منعطفات حياتهم. لأنها تأخذك من الجميع ومن كل شيء. وتتركك مع نفسك. في ذلك الوقت فقط تعرف ما تريد، تجعلك تعترف بنفسك.

تجلس في مكان وسطنا. كأنها تعيش بيننا، ولكن... إذا سألت، لا أحد يدلّك على مكانها. لدينا مكان يثير الحزن. كلما ذكرناه، نذكر اسمها، كلما قلنا «بيروت»، يؤلمنا ذلك المكان. الآن عُد إلى البداية، واقرأها. لأنها ليست فرداً، ولكنها أكثر من يعيش بيننا.

Twitter: @ketab_n

١٦

أدارت دنيز ظهرها للمكان الذاهبة إليه في قطار لندن.

الأشجار والحقول، وطونتش، والناس الذين تعرفهم، والكتب، والابتسامات، والسيدة طرابلسي والزمن الذي قضته في أكسفورد تنزلق من زجاج القطار، وتضيق، وتذوب في بئر المنظور عند آخر قاطرة، وتزول. مع زوال المشاهد تدب الحياة في دنيز، وتجد أربعة السراويل الداخلية القطنية المرتخي مطاطها، وزجاجات الشامبو الصغيرة التي أخذتها من مختلف الفنادق، والأجزاء المكتوبة من أطروحتها مما تحمله في حقيبتها الصغيرة، أكثر منطقية.

حين نزلت في محطة «بادينغتون» الأخيرة، كانت هناك بضع ساعات لموعد قطار باريس. حين وصلت إلى حديقة القديس جيمس، وبدأت بتناول كعكتها المحلاّة، وشردت بزحام السمك في البحرة الصناعية المحاطة بالأسلاك، ومكتوب عليها «حياة طبيعية! الرجاء عدم إلقاء الأغذية» بدا الزمن لا نهاية له. فجأة صخبت السماء. قصف قنابل، ومرور طائرات، وإطلاق بنادق رشاشة:

«الكفاح البطولي للقوات الجوية الإنكليزية في الحرب المفتوحة ضد الإرهاب في كل مكان من العالم...»

توقفت الأسماك الهلعة من الصخب مع صوت الرجل في مكبّر الصوت:

Twitter: @ketab_n

«صديقي فيليب، كم مرة سأقول لك؟ خفّض صوت الطائرات قليلاً! الطائرات المنيوكة مثل الزلزال. . .»

هناك خيمة ضخمة خلف ظهر دنيز مباشرة، وتجري بروفات مراسم عسكرية. ومع سُعال الرجل الذي يريد أن يصفّي صوته على مكبّر الصوت، تتردد الأصداء في الحديقة.

«النضال البطولي لطيارينا. . . .»

حين هدأ صوت المكبر كانت الأسماك تنظر إلى دنيز من الطرف الآخر للبحرة، وكأنها غاضبة لأنها نادتها ولم تأتِ إلى هناك. ترى هل كرهنها لأنها لم تطعمها من الكعك المحلى، أم لأنها ليست معهن في البحرة؟ كانت نظرتهن سيئة جداً. غضب صامت، أسمر، وفضي عكر.

«يا بُلهاء، يا ساقطين بُلهاء!»

جمع الرجل المسِنّ الجالس على المقعد المجاور مجاري البصاق العصبي بشفتيه المزمومتين، وخبأ فمه داخل سترة الفراء. حين دفن أنفه الأحمر الإنكليزي اللون الغزير الشعر والبارز العروق في سترة الفراء، دس يديه في جيبيه مثل ولد عصّب من أولاد أكبر منه. ترددُ دنيز بابتسامة جعلته يتراجع بفهمه. ولأن عصبية المسن غير معروف ما إذا كانت من الاحتفال أو «الإرهابيين»، استمرت بالفرجة على الأسماك.

«فيليب! هيه، أنا أتكلم معك! هنا بالضبط يلزمنا صوت قنبلة. ما رأيك؟ برأيي ستصبح دراماتيكية! نعم، نعم. هنا بالضبط. ولكن يلزم قليل من الموسيقى أيضاً.»

بعد فترة نقر وأزيز قصيرة، وأصوات طائرات حربية بمقدار كافٍ، وقليل من الموسيقى، وصخب قنابل مع تخفيض صوته وصار أشبه بالمطر الغزير، تم ضبط الصوت، وبدأت الجُمل تتدفق من مكبّر الصوت:

Twitter: @ketab_n

«... ونحن هنا نستعرض النجاحات الاستثنائية للقوات الجوية الملكية ضمن القوات المتعددة الجنسية في أفغانستان والعراق...»

وكلما اعتقدت أن العرض على وشك النهاية تبدأ الطائرات بالطيران من جديد، والقنابل بالانفجار، والصوت بالارتفاع والانخفاض لأن فيليب وزميله يريدان عرضاً دون نقص. أطلق المسن عدة شتائم منتظراً بنظراته موافقة دنيز. غضبه ليس من الإرهابيين بل من «البُلهاء». وحين وضحت ابتسامة دنيز تأكد تضامن سياسي ظريف بين المقعدين.

كلما ارتفع الصوت تهرب الأسماك السابحة في البركة الصناعية، وعند انقطاع الصوت تغدو وقحة مثل كلب مدجّن كأنها ستخرج من الماء، وتركز نظرها إلى دنيز، لتعرف ما إن كانت سترمي الكعكة المحلاة إلى البحيرة؟ إذا كانت لن ترميها فكيف تجرؤ على جعلها تنتظر هناك!

كانت عيونها الجائعة واسعة ومخيفة إلى حد الاعتقاد أنها قبل فترة كانت أناساً، وبلعنة ما سُجنت في هذه البحيرة الصناعية. تقترب من سطح الماء بسرعة وهي تنظر إلى دنيز بتخبط تقشعرّ له الأبدان، ثم تهدد من خلال نظراتها بالعودة، وتتلوّى أجسادها لتعود إلى قعر الماء. حتى إن إحداها تبدو أنها صبرت كثيراً من أجل الكعكة المحلاة، وشتمتها بإخراج ذيلها خارج الماء، والضرب به على السطح. طرشت قطرة ماء أو قطرتين من البحيرة الصناعية بنطال دنيز، وتُعد هذه الحركة نوعاً من بصاق الأسماك الغاضبة من دنيز. الماء الأخضر يشبه بلغماً ضخماً. دنيز واحدة من تلك الأسماك، فكيف تجرؤ على هذه الخيانة بأن تكون في الخارج؟ أخيراً دسّت الكعكة المحلاة في حقيبتها. لن تستطيع إشباع ذلك الجوع الكبير الطافح بالكره بكعكة محلاة فقط.

صرخ المسن: «البُلهاء يلعبون لعبة الحرب!». رجل وامرأة مرّا مع طفلهما في عربة صغيرة من خلفهما راسمين قوساً واسعاً حول المقعد

Twitter: @ketab_n

الذي يجلس عليه المسن. أخرج المسن من جيبه علبة سجائر، وضيّف دنيز:

«جميل أن يعملوا مسرحاً للحرب طبعاً!»

مع استمرار المسن بالحديث يثور وجهه:

«هؤلاء أولاد عاهرات يا آنسة، هؤلاء أولاد عاهرات! أنا آسف، ولكنني يجب أن أقول هذا لأحد ما: الصوت الذي يصدر من أمعائكم قبل أن تعملوها تحتكم في الحرب أقوى من هذا الصوت.»

سحبا نفسين من السيجارتين وهما متجاوران كأنهما يضعان خاتم الموافقة على التحالف بينهما:

«ما علاقة حرب اليوم بالبطولة؟ يكلّفون الجنود المرتزقة بكل شيء. أمريكيون مخبولون! حوّلوا الحرب إلى ما يشبه مصارعتهم الغبية. انفجارات وتدمير، ولا يحدث شيء حقيقي. وأدخلونا في كوم خراء. صرنا وسط خراء الشرق الأوسط الآن. الجنوب يا حضرة الآنسة، الجنوب خطر جداً.»

اقتربت الأسماك من سطح الماء مجدداً. ركزت نظراتها المنحوسة على دنيز. كانت لا تنظر نهائياً إلى الرجل. كأن الرجل غريب عنها، ودنيز منها، ووجدت طريقة وخرجت إلى الخارج. غمّ المسن عينيه منتظراً ما يمكن أن تجيب به دنيز.

«هذه حرب خطيرة جداً يا آنستي. لأن هناك طرفاً ليس لديه ما يخسره أبداً، وطرف آخر هو مسخرتنا هؤلاء.»

توقف فترة نصف نفس، ثم استمر:

«أنت من أين حقيقة؟»

«أكسفو... يعني، اسطنبول.»

«هم...»

Twitter: @ketab_n

أبعد المسن رأسه وكأنه يمسح وجه دنيز لمعرفة ما إذا كانت تتحمل ما سيقوله:

«أي أنك من الوسط تماماً. الوسط تماماً! فظيع! اسطنبول يا آنستي الصغيرة، أنا آسف، ولكنني مضطر للقول، مكان سيئ جداً.»

قالت دنيز: «هذا رأيي أيضاً».

ارتاح المسن، وتابع:

«في هذه الحالة فهمت ما قصدته. هؤلاء القرود غير مدركين لما يفعلون. يا آنستي، أنا مؤمن من كل قلبي بما أقوله، سيأتي الأولاد والنساء إلى هذه الحديقة، ويسكنون فيها. سينهبون الدكاكين، ويسلبوننا لقمة عيشنا. أقسم لك، إذا كنت يومئذ هنا فسأسمح لهم بأن يقتلوني. أولاً: عشت طويلاً بلا معنى، وثانياً: أنا أيضاً مسؤول عن ذنوب هؤلاء المهابيل. سترين قريباً، هذا ما سيحصل، سيبنون جداراً. ها ها ها...»

نظر إلى وجه دنيز بانفعال مستكشف:

«هناك احتمال أن يمر هذا الجدار من اسطنبول. لكي لا ينتقل الرجالُ القذرون الملتحون المريضة عقولهم بالله، المجانينُ من الجوع إلى هذه الجهة. لو كنتِ رجلاً لفهمت يا آنستي الصغيرة. يوجد قاعدة واحدة للقتال: من يغضب أكثر يكسب في النهاية.»

تجمعت الأسماك للحظة عند الشاطئ. بدأت تتدافع نحو جهة دنيز والرجل كأن أملاً بالخلاص قد ولد أخيراً ليُنقذن من البحيرة القفر المنسيات فيها، أو يتخلصن من اللعنة التي حلت بهن. كن كثيرات إلى حد أنهن لا يستطعن التنفس. كأنهن سيختنقن وحدهن. تشكلُ أفواههُن في الماء حلقات، وكأنهن يحاولن إعطاء إشارة للمارة. يتراجعن بشكل بطيء، ثم يهجمن جميعاً بسرعة موتّرة إلى حيث ينتهي الماء. كأنهن

Twitter: @ketab_n

بعد قليل سيغضبن أكثر، وستنمو لهن أرجل من أجسامهن، ويخرجن من الماء، ويمشين، ويستولين على الحديقة.

«كم عمرك يا آنستي الصغيرة؟ عدم المؤاخذة. ما قصدته، أنك بعمر ابني.»

أول مرة تبادلا النظر، وللحظة رأى كل منهما بؤبؤي الآخر.

«هو الآن في العراق.»

انقلب وجه المسن من حيوي غاضب، إلى شيخ منهك:

«يجد لنفسه سلواناً بتضميد جراح الناس.»

«ماذا يعني بالضبط؟»

أسندت دنيز مرفقها على مسند المقعد، ووضعت يدها على جبهتها. الحزن جعل في الرجل قليلاً من الأنوثة، وجعل دنيز تظهر كأخت صغيرة قليلاً.

وضع سيجارته في طرف فمه. أخرج من جيب سترة الفراء السوداء الداخليّ صورة فورية بتباه كأنه يعرض رسماً رسمه بنفسه. سرطان الزمن الأصفر بدأ يأكل حافة الصورة منذ الآن.

فجأة بدأت البروفة التي في الخلف من جديد. انفجرت الحرب مجدداً كصخب هائل خلفهما حين سقط الميكرفون من أيديهم. ارتعد الاثنان كأن قنبلة قد سقطت، وهكذا ارتجف الشاب الذي في الصورة أيضاً.

«لا يا فيليب، لا! مشاهد العرض السينمائي ستسير منذ أول الحفل. لماذا لا تفهم؟ يجب أن يبدأ كل شيء في الوقت نفسه. الموسيقى، والحديث، والأصوات، والفيلم الذي يعرض الجنود! أف يا إلهي!»

حين مال وجه الرجل الذي فرغ قليلاً نتيجة الصخب إلى الصورة امتلأ بالقصص من جديد. مد الصورة لدنيز كأنه يقدم جزءاً من قلبه.

Twitter: @ketab_n

شاب في أواخر العشرينيات من عمره أشقر وأجعد الشعر، رجلاه الممتدتان من شورت بإشارة ضرب أمام سيارة جيب كأنهما تشيران إلى مركز العالم. يضع يداً على خصره، ويرفع شارة النصر بالأخرى. عليه ألبسة قذرة. خداه متقشران كأنه حرق أوربي. في الحقيقة كان يحاول أن يضحك على الأغلب. منذ النظرة الأولى يلاحظ عليه - حتى من مجرد صورة فورية باهتة - أن فيه انكسار إنسان يرى للمرة الأولى مركز الحقيقة. وجهه مصعوق. ليس من التعب، كأن شيئاً آخر وقع له. الوجه في الصورة لإنسان رأى حدوده الذاتية.

قالت دنيز: «وسيم جداً، ولكنني أعتقد أنه متعب جداً.»

«اسمه مكسيم. هو الآن في بغداد مع أطباء بلا حدود... يتعلم الحرب دون أن يحارب.»

ذاب تنهّد المسنّ في الضوضاء الصادرة من الخلف. لم يعد ينطلق من مكبّر الصوت ضجيج طائرات، بل صوت ضحك، واضح أن البروفة تنتهي الآن. حين بدأت موسيقى فيلم «Eye of the tiger/ عين النمر»، أطلق الرجل الممسك بالميكروفون قهقهة قوية:

«ها ها ها! هيا فيليب، اترك المزاح، ولننه هذا العمل!»

أطلق المسن شتائم بذيئة: «منايك»، ولكنه لم يصرخ هذه المرة:

«المخبول مكسيم أيضاً غضب من أمور كهذه، وذهب. لم يحتمل خبل الذين هنا... ولكنك تعلمين، الرجال في هذه الجهة من العالم لا يُربّون كالرجال. هؤلاء المخبولون يربّون الأولاد لكي لا يصبحوا رجالاً. هذا سبب تعاسة النساء.»

فضّلت دنيز عدم التعليق على النتيجة التي وصل إليها، فعادت إلى الصورة:

«أعتقد أن ابنك يقوم بعمل مهم جداً يا سيدي. بدل أن يحارب...»

Twitter: @ketab_n

«أنا آسف يا آنستي الصغيرة، ولكنك لا تفهمينني. بينما يضمّد أولادنا الشقر هؤلاء جراح الرصاص مثل المخنثين، يحارب أولئك الملتحون فيصبحون رجالاً. لهذا السبب نساؤهم سعيدات. اقبلي أرجوك، النساء يردن أن يكن مع صيادين. مهما يكن، قبلت أم لم تقبلي، فالأمر على هذا النحو. ليس هناك امرأة تعشق فلاحاً. وصار أبناؤنا المخنثون جميعاً فلاحين مطيعين.»

انتهت البروفة تماماً. التفت الاثنان إلى الخلف ونظرا. خرج ثلاثة أشخاص يجب أن يكون واحد منهم فيليب، والثاني زميله على الميكروفون:

قال المسن: «ساحرو أوز المنايك» ولم يكمل الجملة.

أشارت دنيز إلى الأسماك التي تخرج أفواهها من الماء، وتلمس بها الأرض.

قال المسن: «سمك وقح منيك. قريباً يجب أن نتسلح لكي نحمي أنفسنا منه.»

حين نهضت دنيز، وأخرجت كعكتها المحلاّة، وفتّتها، ورمتها للأسماك، لم تأكل الأسماك قطع الكعك، بل بعضها بعضاً. حدث تصادم فظيع في البحرة. واحدة منهن وقفت دون أن تتحرك. يبدو أن لديها غضب أكبر من الجوع. حين التفتت دنيز، لم يكن المسن هناك.

انتبهت أنها نسيت حقيبتها في حديقة القديس جيمس حين ركبت قطار باريس.

Twitter: @ketab_n

٢١ آب/ أغسطس ١٨٩٢، شاتيلا

فليبيناي، كبّتي الحلوة؛

رقبة المرأة أطول جملة لديها. جملة صامتة، بيضاء تمتد، ولكنها تتكلم دائماً. أستطيع كتابة تاريخ رقبة أمك. رقبة أمك التي ارتجفت بالثقل والخوف في تلك الليلة وهي تحمل الكلاشنكوف بيدها؛ ولحظة امتدادها أول مرة ناحيتي، وطلب بياضها مني وعداً ذات صباح. طلبت وعداً واحداً. . . كان من الواجب أن أدوّن يوميات رقبة أمك.

مع تقدم حمل أمك كانت تتوحّم على الحياة فقط. وأنا أصبح معها أكثر وقاحة، وندفع الحرب في كل مرة لنبعدها عنا. كنا نهاجم الموت لنعيش. وهذه كانت انتفاضتنا! انتفاضة لشخصين. طبعاً إذا حسبناك نصبح ثلاثة. أنت أيضاً كنت انتفاضة صغيرة في بطن أمك.

أرادت أمك أن تذهب إلى البحر. «لا، ليس إلى الكورنيش. بعيداً.» أخذتُ سيارة أبي ناجي. الباكاج متفتح مثل زهرة قرنفل منذ أن تلقى قنبلة يدوية. في الحقيقة نصف سيارة، ولكنها تمشي. ونحن ذهبنا. منذ انطلاقنا في الطريق بدأت أمك تطرح أسئلة. أسئلة تتعلق بي. حول طفولتي. لم يكن يبدو عليها أنها تريد أن تعرف شيئاً. أعتقد أنها كانت تسمع صوتي وتنظر إلى وجهي فقط. كانت تعشقني كثيراً، ونظراتها تلمس خديّ. لهذا كنت أغدو أكثر وسامة باستمراري بالكلام.

كيف كنت ألاحق طيور الفرّي وأنا صغير. . .

Twitter: @ketab_n

من أين أعرف معنى الفرّي بالإنكليزية؟.. ثم إنه طائر ساذج جداً، يمكن ألا تليق به الإنكليزية...

وكيف «أمسكتُ» ضفدعاً.

... أمسكوه طبعاً، هل تعرفين؟ تضعين في الصنارة قطعة خبز، وتتركينها على ورقة خضراء. يقفز عليها الضفدع، وحين يعلق فمه بالصنارة يبدأ القفز. ويجب قطع رقبته فوراً حتى لا يأتي أحد من رفاقه ويرى الوضع الذي وقع فيه...

كيف تلقيت الضرب في المدرسة، وكيف كمنت.

... أولاد القحبة! كيف رموا أنفسهم جميعاً عليّ؟ ولكنها كانت قتلة مرتّبة. أكلت قتلة مثل الخلق، وخرجت مثل الخلق، وعدت إلى البيت...

كان الأول من أيار/ مايو. وقت زهر البرتقال. فور خروجنا من بيروت جعلتنا تلك الرائحة نضحك كأننا شربنا حشيشاً. كأننا في بلد آخر. كنا في لبنان الذي نتخيله. كانت تضحك فقط، وأنا لا أتوقف عن رواية الأشياء المضحكة:

«هل تعرفين ذلك الرجل؟ ذلك الرجل... لديّ فضول شديد لمعرفته؟»

«أيّ رجل؟»

ضحكت، والتفت، ونظرت. لا يمكن للحب أن يتدفق من عيني امرأة أكثر من ذلك. أمسكت بيدها.

«هذا الرجل الغريب. في أي عام لا أتذكر. أعتقد عام ١٩٧٥. في بداية الحرب. كانت القنابل تنفجر هنا وهناك، وتحدث اشتباكات. المهم... كان هذا الرجل ينشر إعلاناً في جريدة «Daily Star»: «فقدت كلبي في وسط الحمرا. كلب ذئبي. من يجده الرجاء الاتصال على رقم الهاتف التالي» وهكذا. انفجارات وصدامات جديدة. بعد

Twitter: @ketab_n

أيام، مرة أخرى: «فقدت كلبي في الحمرا. كلب ذئبي. اسمه فهد، ويرد عند مناداته باسمه». الحرب تستمر من جديد، الرجل هذه المرة ينشر إعلاناً على النحو التالي: «فقدت كلبي في الحمرا. كلب ذئبي. اسمه فهد، ويرد عند مناداته باسمه. واحدة من أذنية متدلية، والأخرى مرفوعة». لا أدري لماذا يضحكني هذا الرجل كثيراً كلما خطر ببالي.»

قالت أمك وأنا أروي لها: «أنت مثل الأطفال. قبل أن تروي القصة، تعجب بما ترويه. وتُحملق.»

أمسكتُ بيدها. كانت تلك اللحظة جميلة جداً بحيث أردت أن أجعلها مثل أي لحظة، فنظرت إلى الطريق وبقيت أقود. كانت أمك تنظر إلي، استمتعت بها. فيما بعد، حين مررنا بين حقول الموز، خطر ببالي شيء مضحك. لأن كل الأشياء الجميلة التي أعرفها تتدفق من داخلي:

«هل تعرفين؟ الموز يصدر صوتاً وهو ينمو.»

«كيف؟ صوت ماذا؟»

«مجرد صوت. بداية يكون الموز مثل أصابع اليد الملتصقة فيما بينها. وعندما تكبر هذه الأصابع، تصدر صوتاً وهي تنفصل عن بعضها بعضاً. إذا دخلت حقل موز ليلاً في شهر آب، وإذا لم يكن هناك ضجيج آخر، تسمعين تلك الأصوات...»

«كيف هذا الصوت؟»

«جق، جق، جق...»

«أنت تسحبها عليّ.»

«سحب ماذا حبيبتي؟ أصوات الموز هي حقيقة لبنان!»

«أنت تحاول خداعي.»

«الله الله! لماذا لا تصدقينني يا هذه!»

«اثبت إذاً!»

Twitter: @ketab_n

«كيف سأثبت لك الآن؟ هذه الأصوات لا تصدر إلا في آب.»

«تثبت لي في ذلك الوقت إذاً.»

«حسن، سنرى يا حضرة السيدة. أعدك، بوقتها. بعد الولادة، سأجلبك إلى هنا مساء يوم من شهر آب، وستسمعين، اتفقنا؟»

تواعدنا مثل الأطفال. أغلقنا أفواهنا ضاغطين على شفاهنا، وختمنا وعدنا. بعد أيام سمعت أنها سألت البعض عن قضية أصوات الموز. من يسمع بالسؤال يدرك فوراً أن لهواً قد بدأ، فينخرط في اللعبة:

«يشبه أبا عبده. لا تستطيع تحمل صوته!»

«لا يا روحي، مثل صوت إي كي ٤٧ الذي نعرفه!»

«يعني مثل أبي عبده، وإي كي ٤٧. يجب أن تسمعه جيداً لتميزه!»

أعتقد أن هرموناتها كانت السبب بهذا، علقت برأسها أصوات الموز. لهذا السبب جعلتني أعِدها ثلاث مرات:

«انظر، سنذهب في آب!»

«حسن حبيبتي، سنذهب، وعدا!»

مضى الزمن، وولدتِ أنت. أنا ولّدتك. فعلت هذا من أجل شيء واحد يا فلبينا. من أجل أن أرى تلك الدمعة فقط. عندما تلد النساء، ويخرج كل شيء، يذرفن دمعة واحدة. وتنمو تلك الدمعة في العين وهي تضحك. عليك أن تنظري جيداً وألا تفوّتيها. لأنها من فور تخلّصها من العين تنزلق على الخد، وتضيع بين الشعر. أردت أن أقبّل تلك الدمعة وأشربها. أردت أن أشرب دموع الفرح المعجزة المتدفقة والفائضة. وفعلت هذا. فعلت هذا وأنا ممسك بك بيدي.

بعد ذلك فاحت من رقبة أمك رائحة الأمومة. من لحظة ولادتك تغيرت رائحة رقبة أمك. ووقفتها على قدميها. لا أستطيع أن أشرح لك

Twitter: @ketab_n

كيف، ولكنها كانت تقف كأنها وجدت مركز ثقلها. صارت تدوس بقدميها على العالم. هكذا تصبح النساء عندما يلدن أطفالاً. ليس مثل اكتمالهنّ. يجدن توازنهنّ، ويرسخن في الحياة. لعلهنّ يصبحنَ أمهات، فلهذا يظهرن هكذا قويات بأعين الرجال.

كانت شفتاك حمراوين قانيتين منذ ولادتك. الإنسان يستغرب يدي المولود على الأغلب. ولكن شفتيك كانتا الأغرب فيك. تلقيتِ كثيراً من «ما شاء الله»، ولُففتِ وجلتِ من يد إلى أخرى. أبو ناجي أطلق النار من سطحه بمناسبة قدومك. بكيتُ. بداية لم يكن صوتك يخرج كثيراً، ولكنك فيما بعد جعلتنا نعاف أرواحنا. أمك أسمتك. لأنها اشتاقت لبلدها. أنا وضعت عينيك في وجهك: لأنها لون الأرض: فلسطين!

تعبت أمك كثيراً، عافت نفسها. أرادت أن تخرج ذات يوم. قررت أن تجلب لابنتها شيئاً معقولاً. في الحقيقة كانت تريد أن تمشي قليلاً. خرجت من المخيم، وكانت ذاهبة إلى طريق الجديدة. لتشتري ألبسة أطفال من منطقة «حكومة الفاكهاني». ذهبت.

عندما جلبوها كانت رقبتها مقطعة. قتلت الطائرات الإسرائيلية أمك بتاريخ ١٧ تموز/يوليو ١٩٨١. رقبتها أكثر ما أردت الإمساك به. ولكن لم يبق منها حتى رقبة أدفنها وأبكي عليها. كانت أمك صامتة إلى هذا الحد لأنها أصيبت برقبتها.

...

كيف؟ هل تعرفين يا فليبينا؟ عندما تكبرين، انظري إلى الشمس، ستفهمين. يبقى أثر الضوء في العين، بحجمه وشكله. تترك الشمس بقعة عمياء عندما تنظرين إليها. أمك كانت بالنسبة إلي بقعة الضوء تلك. حين أغمض عينيّ، تبدأ تلك البقعة بالألم في ظلمة العينين. حين أفتحهما تنتقل البقعة إلى كل تململ هنا وهناك، مثل دمغة سوداء

Twitter: @ketab_n

بنفسجية تُدمغ على كل ما أراه. أريد أن أشفى منها. أريد أن ينفتح كل ما أراه على سواد بنفسجي. وإلا ستضيع أيضاً مثل كل ما ضيّعناه في هذه الحرب وكأنها لم تكن. أمك لديّ بقعة ضوء يا كبّتي الحلوة، لا تخرج.

فليبينا؛

أنا لم أعد أمك طوال هذا الوقت سوى وعد واحد. وعد واحد فقط. أن آخذها إلى حقول الموز في شهر آب. كانت ستستمع لأصوات الموز. جق، جق، جق، جق... كلما فكرت كيف ستفرح، وتدهش... لهذا أرسلك من هنا يا فليبينا. لأن هذه الحرب تجعل الإنسان لا يفي بوعد واحد. أنت تذهبين لأني لن أستطيع منحك حياة، ولا أصوات موز. لعلك ذات يوم.. من يعلم... ليلة في آب، عندما تكبرين...

لا تنسي هذا أبداً يا فليبينا. أنتِ ولدت في لبنان وسط الحرب. كانت بيروتك تفوح برائحة زهر البرتقال، في بيت مدهونة إحدى واجهاته بالكلس الأبيض، والبيوت تتداخل كأنها ترقص الدبكة، والناس تتماسك مثل أبنية لن تهدم أبداً. أنت ليس لديك في لبنان سوى أصوات الموز.

أستودعك الله؛

والدك الدكتور حمزة

مخيّم شاتيلا، بيروت

Twitter: @ketab_n

الكتاب الثاني

نحن

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

صباح ذلك اليوم من حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٦ كان كل شيء في بيروت يسير في مجراه. الحكومة تدّعي أن سوريا لها قواعد داخل لبنان، وهذه ستكون ذريعة حرب؛ ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي - في الحقيقة زعيم الدروز - وليد جنبلاط يستقبل ممثلي الأخوان المسلمين السوريين في المختارة؛ وتجدد قوى ١٤ آذار من بيت قائد القوات اللبنانية سمير جعجع الثقة للمعارضة بزعامة حزب الله؛ ويصرّح نصر الله في حفل استقبال أن إيران لا تريد إلا الخير للبنان، مثلما يصرّح الحريري عن السعودية؛ والضغط مستمر على حزب الله لنزع سلاحه بموجب قرار مجلس الأمن ١٥٥٩؛ وتُعدّ تحالفات سياسية من أجل إسقاط رئيس الجمهورية إميل لحود قبل انتهاء ولايته بذريعة استمرار دعمه لسوريا؛ وتحتج حماس على فتح ممثلية لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت أول مرة منذ احتلال إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢؛ وتُنظم مظاهرات للمتعاقدين المؤقتين في الخدمات العامة للحصول على عقود دائمة؛ ويُطرح للنقاش مفهوما «الإستراتيجية الوطنية للدفاع» و«التحوّل الديمقراطي» الذي لم يجد حلاً بأي شكل لاعتباره جلوساً في أحضان الولايات المتحدة الأمريكية التي تخلق جوّاً مناهضاً للديمقراطية في الشرق الأوسط؛ والجميع يراقب التحركات الإسرائيلية في جنوب لبنان، والجميع يتوقع حرباً كما هو الأمر دائماً؛ ويؤكّد

Twitter: @ketab_n

الجميع أيضاً على حدوث انفجار في عدد السياح القادمين إلى بيروت في صيف ذلك العام إلى حد أنه نُشر خبر بأن برج منتجع مدام ترومب سيؤسس بالشراكة مع السعوديين، وأن الحجز في فندق فينيسيا لا يلبي حاجة الطلب من دول الخليج، ولا يوجد وقت لشطف بيروت بشكل جيد، واستخدام المناديل الورقية التي غدت مثل عقدة.

في هذه الأثناء يمر أصحاب سيارات الأجرة المعتقدين أنهم إذا لم يطلقوا زماميرهم سيختفي الركاب، وإذا أطلقوها سيركب حتى من لم يكن بنيته الركوب من شارع الحمرا بأجرة سرفيس، أو أجرة كاملة.

في الوقت نفسه تقع أحداثٌ أهمّ من هذه بالتأكيد في مناطق أخرى من العالم. وهناك المسنّون الذين يقفون أمام سيارات الأجرة ليروا ما إذا كان هناك أحد من معارفهم وهم قادمون إلى المقاهي حاملين الجرائد التي قرؤوها وانتهوا منذ زمن، ويتحدثون حول ما يجري في بيروت فقط وهم ينتظرون أصدقاءهم وأحباءهم. «ومثل لعنة الشرق الأوسط، فالداخل إلى هناك من الخارج لا يستطيع فهم هذا الوضع، والذين في الداخل لا يصدّقون أن هناك أمراً أكثر أهمية من كونهم هناك». كلام الجميع جاهز، والحوار لن ينتهي حتى ساعات الظهيرة. ويتململ المسنون منذ ساعات الصباح الباكر وكأن الكلام الذي في حلوقهم سيخنقهم إذا لم يخرجوه.

في ذلك الصباح كان البيروتيون يتكلمون بأيديهم في المقاهي. فور البدء بالحديث ترتفع الأيدي التي شاب شعرها مع تقدم العمر، واكتسب سمارها دفئاً وقساوة، لترسم لكل كلمة شكلاً في الهواء. تلتصق الأصابع، وتتباعد، وتنحني، وتقف من أجل طرح سؤال، وتُرفق بحركات ليونة خلال مرحلة الإقناع عند الإجابة عن السؤال، وأخيراً تنزل الأيدي إلى الطاولة بحركات ليّنة في مرحلة استراحة

Twitter: @ketab_n

الجملة. حين تنزل يد ترتفع أخرى كانت جالسة على الطرف الآخر من الطاولة بشك، وترسم عدة دوائر في الهواء وراحتها باتجاه الأعلى طارحة سؤالها، ويلاقى بين أصبعي الإبهام والشاهدة لتوضيح قضية، وبجملة أخيرة توضع القضية في اليد المقابلة وتحط على الطاولة. وأثناء صمت زوج اليدين المتقابلتين تمتد واحدة منهما إلى علبة السجائر، وتقدم واحدة من السيجارتين اللتين تخرجهما للتي مقابلها، وبهذا تدعو اليد المقابلة بشكل جميل إلى الحديث. ولا تتخلى الأيدي عن شغلها حتى تقترب واحدة من النادلات، فتنتظر وضع الفناجين على الطاولة، تضجعُ واحدة من اليدين بدفء الشيخوخة على يد الفتاة. وبينما تبتسم النادلة لمجاملة المسنين التي لم تعد خطرة تستمتع اليد العجوز بطعم يد صبية لعدة ثوانٍ.

ولأن موظفاً رسمياً لا يأتي بمهمة خاصة لأخذ آراء المقاهي تتشابك الأيدي على الطاولات عندما تُستهلك الجرائد والقضايا كلها، وتنتظر معاً باحترام صامت مرور الأوراك الجميلة من الحمرا أو مشاجرة مواصلات محتملة. وبعد أن يُصبح معلوماً لدى الجميع أن حرباً لن تندلع في ذلك الصباح يغطون في الكلمات المتقاطعة بملل.

بيروت عموماً مكان كهذا، ومن غير الممكن لقارئ من خارج بيروت أن يفهم ما بعد هذا، وليس من الضروري أن يفهم. أما القارئ الذي يعيش في بيروت فهو يعرف عن ماذا نتكلم.

عندما تم الانتقال إلى فصل الكلمات المتقاطعة صباح ذاك الأحد، كانت فليبينا مارةً من أمام مطعم «Horse Shoe» في الحمرا. وفليبينا التي لا تأتي على ذكرها أي جريدة أو رواية، ولا تمر في مسلسل تلفزيوني أو فيلم وثائقي، لا يمكن أن تفهم عن ماذا يدور الحديث في المدينة إذا لم يقله أحد لها بالكلمات العربية التي تتعلمها منذ ثلاثة أسابيع. ولكن فليبينا التي لا علم لبيروت بوجودها، ولا علم لها هي

Twitter: @ketab_n

بما يجري في بيروت، ستشهد هذه الحادثة في الحمرا التي ستغير مجرى تاريخ بيروت. . .

* * *

كان خفقان أجنحة الحمامتين مثل خفقان القلوب لعدم وجود صوت بعد في المدينة. والأمر هكذا منذ مجيء الفتاة إلى البناء. مروان يسمع أصواتَ تحابب الحمام، ويسمعه حتى وقت عدم تبادله الحب، ويستيقظ كل صباح وقت استيقاظ الحمام. يُشعل سيجارته الأولى وكأن فيها شفاء، ويخرج أمام البناء من أجل أن يضاعف مع الريح إحساسه بالنضارة بشعره الرطب. يشعر بنفسه كأنه رجل حر. كأنه رجل أقوى من هذه المدينة. وفي صباح هذا الأحد يصعد الدرج ببطء.

ولكنه في تلك اللحظة رأى فليبينا. فور رؤيته لها خطرت بباله جملة استغربها هو أيضاً:

«كأن مياهاً برّاقة تتدفق من وجهها. . .»

لو كان في وقت آخر لبقي مكانه يتفرج عليها، ولكنه الآن رجل قوي.

«حمامة»

حين التفتت فليبينا:

«تتعلمين العربية أليس كذلك؟ هذا اسمها.»

قالت فليبينا بتردد كل من يتعلم لغة جديدة وبما يشبه الهمس: «صباح الخير!» حين تقول الكلمات هي يتشقق سر اللغة، وتتشتت الموسيقى المسموعة من الخارج، وتخرج الأصوات من كونها أحجية سحرية، وتتحول العربية إلى كلمات وقواعد. وفي كل مرة تندهش فليبينا من هذا.

«صباح النور! أنا مروان، ناطور البناء.»

صمت. ولكن مروان هذا الصباح رجل قوي، رجل رطب الشعر

Twitter: @ketab_n

يتدفق كالماء، وليس لديه ما يخسره، ويشعر في مكان ما من داخله بأنه يعمل كل شيء بشكل صحيح:

«أنا أيضاً كان عندي حمام، عندما كنت صغيراً.»

التفتت فليبينا ولم تكن منتبهة إلى أنها تستمع حقيقة، وأنها تشعر بمدى قوة الرجل بعينيها المحملقتين بانتباه:

«لتقص أجنحتهما من أجل أن يعودا إلى البيت. يعني قليلاً.»

«حسنٌ، لماذا تركت الحمام؟»

انزلق خدا مروان من الفرح:

«لأنهم لا يعطون بنتاً لمربّي الحمام!.. أنا أعزب.»

صمتٌ. تسلق صوت مروان طلعةً بشكل سريع بحيث إذا وقف سيتدحرج:

«ولا يصدّق أحد كلام مربّي الحمام.»

«لماذا؟»

نزل صوت مروان إلى السهل، وأخذ نفسَ راحة:

«من يكذب من أجل طائر، يكذب من أجل كل شيء. أي أنهم هكذا يقولون. عندنا هناك... أنا سوري... حتى إن شهادة مربي الحمام لا تُقبل في المحاكم.»

ضحكت فليبينا، وتفتحت في قلب مروان زهرة مثل تحقق نبوءة. تنهّدا.

«أي أنه عندما يكون لديك حمام يكون كل همك خداع حمام الآخرين من أجل ضمه إلى حمامك. تطيّرين حمامك، وهي تدعو حمام الآخرين عن أسطح أخرى، وتخدعها، وتجلبها إليك.»

«كيف تخدعها؟»

«مثل الناس.»

صمتٌ من نوع مختلف. نظرت فليبينا إلى وجه مروان وكأن وراء

Twitter: @ketab_n

هذا الوجه أشياء أخرى جميلة. وهكذا أصبح وراء وجه مروان أشياء جميلة.

* * *

لم يكن أحد هناك ليكتب هذه القصة. لأن من يجب أن يكتبها كان يعيش في مدينة أخرى، فإن فليبينا مضطرة لعيش قصتها وحدها دون أن تراها العيون وكأنها لم تكن موجودة مثل أبطال روايات الشرق الأوسط الأخرى. وهذه القصة تؤلف نفسها بنفسها، ولا يكتبها أحد مثل قصص بيروت وما يُدمّر فيها كل مرّة، ويقال: «لا تهتمي!» ويبنى مرة أخرى من جديد.

من السليم إلى أقصى الحدود أن تكون هكذا. لأنه لو أن هناك كاتباً أو صحفياً - أي من يستطيع كتابة قصتها - في الأشرفية حينئذ، وفي شارع الحمرا الذي تمر منه فليبينا الآن حيث ستعيش حادثة تُغيّر حياتها، فمن المؤكد أنه لن يكتب هذه القصة، بل سيتحدث عن حياة بيروت المعقدة جداً، والمذهلة للعقول بتفاصيلها التي يدهشك كل تفصيل منها أكثر من الآخر، ويقول ليس لديكِ أي فرصة لتُعرف قصتكِ. مع أنه وقعت حوادث مهمة جداً في هذا الصيف لفليبينا والذين يعيشون في البناء الواقع على رأس نزلة مستشفى الجعيتاوي. وكما قلت، فإن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكتب هذه القصة، ويرغب في كتابتها كان يعيش قصته الخاصة في تلك الأثناء، وتأخذ حياته بنية رواية حسب اعتقاده. وثمة احتمال كبير أن هذا الكاتب لم يكن منتبهاً إلى أنه يحب الحياة أكثر من الكتابة.

Twitter: @ketab_n

٢

«أفكّر في كتابة كتاب على هذا النحو.»

كان جالساً متربّعاً وسط السرير أثناء هرب صوته الممزوج بالسيجارة إلى داخله، وينظر إلى اختفاء الدوائر التي يرسمها بظفره على غطاء السرير لحظة تحرره منه. رفع رأسه وجفونه عن الشيء الذي يشرحه:

«أو ما يشبه هذا.»

دنيز متمددة على بطنها فوق السرير، تراقب الأخاديد الدائمة التي تتركها الدوائر المرسومة على غطاء السرير، وتشكيل الثقوب بين الخيوط.

كانا في أسوأ غرفة فندق، سقفها عالٍ تفوح برائحة الرخص والموكيت الرخيص بعد أن اعتادت أيام عزها على الأقمشة الجيدة، ولكنها سقطت إلى مستوى النايلون والقماش الخشن. تطل الغرفة قليلاً على شارع وأبنية عضّت بعضها البعض وبقيت على حالة العض، وستتخلى أسنانها عن إمساك بعضها البعض، وتتبعثر إلى أمكنة أخرى لو أفلتت العضة. كانا وسط سرير بعد ممارسة حب بطولها، ووسط صمت حديث طال أكثر بكثير من وقت ممارسة الحب. الاثنان ينظران إلى صندوق خشبي بينهما تماماً فيه حصى صغيرة. وعلى الحصى كُتب بحبر أخضر أسماء عربية...

Twitter: @ketab_n

بدأت دنيز تلعب بأصابعها بالحصى التي في الصندوق الموضوع بينهما. أخذت واحدة، وبينما كانت تضعها في إحدى دوائر غطاء الفرشة، سألت ويدها على خدها:

«من هذه؟»

«هذه، حصاة الدكتور حمزة.»

«حسنٌ، ماذا يحدث له؟»

«هذا؟»

توقفت أصبع سمراء فوق الحصاة وفوق أصبع دنيز، وبدأت تهتز. كأن الحصاة تقول، وهو يعيد وراءها:

«يموت بعد أن يرسل فليبينا إلى مانيلا. في مجزرة شاتيلا.»

«لا تقلها يا هذا!»

وجه دنيز الطفولي الذي يرغب في تغيير نهاية الحكاية أضحكهما معاً. كأن راحة الكف الدافئة الممدودة إلى خدها ستسحب كل مخاوفها بلمسة واحدة:

«عبث أليس كذلك؟»

فتحت دنيز عينيها مثل طفلة لا تعرف أن هناك شيئاً سيئاً في العالم:

«وأي عبث؟»

«يعني هكذا، نقل صندوق أحجار من بيروت إلى هنا وكتابة أسماء أبطال الكتاب الذي ستكتبه عليها، وهكذا... من أين سأعرف؟ يعني!»

فتحت دنيز يديها إلى الجانبين وردت بإجابة «يعني» التي تفيد الموافقة على كلمات «يعني» التي تدخل بين الجمل الإنكليزية، وتسقط كالبذور، وتخبئ داخلها دلالتها الشرق أوسطية فاتحة يديها بالسؤال:

«يعني!»

Twitter: @ketab_n

ضحكا:

«يعني... أفعل هذا كي لا أنسى. ليس الأسماء، بل... يعني...»

ضحكا من كثرة كلمات «يعني»، وهدأا:

«يعني، تعرفين. الحجارة في بلدي اللعين تستمر أكثر من الناس. لهذا السبب، لا أدري، لعل هذا يجعلني أحمل هذه الحصى معي. لا أدري، هكذا. لا تجعلني أنسى. يعني، من أين أتيت.»

أخذت دنيز الحصى، ووضعتها في الدوائر الخيالية على غطاء الفرشة.

مروان... ناصر... عائشة... السيدة زينب... السيد هادي... جان... ستانيك... وسام... فليبينا...

سألته دنيز: «الله أعلم أنت أيضاً تلعب هذه اللعبة. تسع بحصات. هل تعرفها؟»

أجاب الصوت الفرح من الدهشة: «ليس إلى هذا الحد! طبعاً أعرفها.»

وبصوت يبهت تدريجياً تحدثا كيف تتجاوز ألعاب الأطفال الحدود، وأن الأطفال هم منظمة دولية سرّية. وبينما كانت دنيز تحرك الحصى إلى هذا الطرف وذاك، سألته:

حسنٌ، ماذا سيكون عنوان الكتاب؟

فجّر قهقهة رداً على هذا السؤال.

سألت دنيز: «ماذا؟» ولكن هذه المرة مثل طفلة لحوحة:

«ستكرهينه!»

«احكِ!»

عقد قهقهته على شفتيه، وتوقف، وقال أخيراً:

«أصوات الموز!»

Twitter: @ketab_n

حين بدأت دنيز تضحك، كان مقابلها وجه ينتظر انتهاء قهقهتها مبتسماً، ونظر إلى ما وراء وجه دنيز، وكأن شيئاً أجمل يقف هناك.

«قلت لك، الجميع يعتبرون هذا مضحكاً.»

«حسنٌ، لماذا؟ يعني فهمت لماذا، يعني من الرسائل. ولكن ما هي الحقيقة؟»

«وهذه أيضاً عبثية.»

«احك إذاً.»

«أخجل عندما أقول هذا. لأنه شيء مسكين جداً.»

فتحت دنيز عينيها، وأمسكت ركبتين سمراوين وصرخت ضاحكة:

«احكِ!»

أطرق برأسه، ورسخ في صوته كدر لا يتناسب مع مقدار السخرية:

«لأنني أريد يوماً لا أسمع فيه سوى أصوات الموز في بيروت اللعينة. أريد أن أعطي وعداً لأحد. أريد أن أعطي وعداً لنفسي. لأنه... يجب أن ينتهي هذا الصخب الذي نتدحرج فيه كلنا، وأريد أن نتوقف. لنتوقف قليلاً، هل فهمتني؟»

هزت دنيز رأسها المسنود إلى راحة كفها نحو الأعلى ونحو الأسفل فقط. وبعد أن ابتلعت الأسئلة كلها، لم يبق إلا واحد فاشل:

«حسنٌ، لماذا بيروت؟»

«لأنهم يا آنستي العزيزة دنيز لا يسمحون لنا نحن الشرق أوسطيين أن نقص قصص غيرنا. يستطيع أن يأتي غربي، ويكتب قصة بلد محقه الله، يستطيع أن يأتي أمريكي ويكتب عن بيروت، ولكنهم لا يسمحون لأفغاني أو إيراني، أو لمن ينتمي لأي بلد من البلدان التي حظها طين أن يكتب غير قصته.»

Twitter: @ketab_n

«دعك الآن من هذا. بجد، لماذا تحاول الكتابة عن مكان مستحيل مثل بيروت؟»

«لأنها... أعتقد لأنها مستحيلة. أو لا أدري. بيروت حلمٌ بأن كل شيء سيكون أفضل، حلمُ خروج ما يشبه باريس من وسط كوكب الغبار، خيالُ أن نُعامَل معاملة البشر، خديعةُ إمكانية أن يكون لنا حياة طبيعية، وخط سرابها. هل تعرفين أنهم يبنون باستمرار أبنية زجاجية؟ بيروت هي الإيمان مرة أخرى بالمستحيل وبغباء. وأنا مؤمن بهذا الغباء. لأن الحكايات تغادرك إذا لم تأخذي الغباء بعين الاعتبار. بيروت دائماً تغامر بأن تبدو غبية. يعني!»

صمتا قليلاً. وبحثا كلاهما عن جملة أو مزحة ترجعهما عن ذلك الصمت من النوع الذي يشعرهما بالغباء إذا بقيا فيه، ولا يريدان أن يبقيا فيه وقتاً طويلاً. اختارت دنيز حصاة فليبينا، وقالت وهي تنظر إلى الحصاة فقط:

«تشبه فليبينا بالضبط.»

«أعرف.»

«لا تُخرّف، من أين تشبهها؟»

«ما علاقتك؟ إنها تشبهها...»

ضحكا. نهضت دنيز من وسط غطاء الفرشة الأبيض. غطت ثدييها، وجلست متربعة. وضعت الحصى في الصندوق. لم تبق بيدها سوى «فليبينا».

«حسن، ماذا سيحدث لها؟ يعني في النهاية؟»

كلاهما يعرف أنها سألت عن شيء آخر. شيء يتعلق بهما...

امتدت الذراع بلون التراب إلى فوق الكوميدينة. جلبت سيجارتي «Lucky Strike /لكي سترايك»، وأشعلتهما معاً. أعطت واحدة لدنيز. كأن ضوءاً مقلقاً من القصص الواقعية وغير الواقعية، ومن

Twitter: @ketab_n

الكلمات الجميلة جداً والمؤلمة جداً غير المُقالة، ومن الممازحات المضحكة كثيراً والسخريات الثقيلة، دار في عينيه. سحب نفساً طويلاً من السيجارة، وأطلقه ببطء، وقال من وراء الدخان: «بكل الأحوال، يا حبيبة دنيز، سيحدث لها ما سيحدث لك.»

تبادلا نظرة كأنهما ينتظران سراً خبيثاً جداً، وابتسما، وصمتا.

سألت دنيز: «يعني؟»

وبينما كان كل من الاثنين يقاوم إطلاق قهقهة قبل الآخر لكي لا يكرر ضحكته، قال صوت مسحوق بالدخان: «يعني!». هز الاثنان رأسيهما مبتسمين، وقالت دنيز: «يعني!». وعندما عادا لممارسة الحب كانا يضحكان حتى تلك اللحظة.

يجب أن تحدث أمور كثيرة، وتجد دنيز معنى لحرف «B» المكتوب على بطاقة التعريف العائدة لهذا الجسم الأسمر النائم حالياً الذي ضحكت معه كثيراً من كلمات «يعني»، وحدثها في غرفة فندق في باريس على سرير بين حالتي ممارسة حب عن كتاب «أصوات الموز» الذي بدأ بكتابته، لكي تسأله «ماذا سيحدث لها» في هذا العالم.

Twitter: @ketab_n

٣

عدم وجود كاتبنا في بيروت خلال تلك الأيام أمر صائب إلى أقصى الحدود من زاوية القصة التي تحدث من جهة، ولإنقاذه من مصائب كبيرة كان يمكن أن يقع فيها، وسيترتب عليه حل عدد من المشاكل الخطيرة من جهة أخرى. لأنه ليس الوضع السياسي فقط ما كان يسير في سكته، بل الحياة في الشارع أيضاً عادية إلى أبعد الحدود.

بينما يحمل العمال - أغلبهم سوريون المكتوب على ظهر بزاتهم الخضراء «Sukleen» ويضعون قبعات تغطي رقابهم من الخلف بسبب خصخصة تنظيف المدينة عصيّاً طويلة برأس معدني مدبب ويجمعون أعقاب السجائر وهم سائمون إلى أبعد الحدود لمعرفتهم الحقيقة وهي أنه لا يمكن تنظيف هذه المدينة من أعقاب السجائر، والنساء المغطيات الرؤوس بالبيجامات ذات السترة العريضة يمشين ويسبّحن بالسبحات في الوقت ذاته، كانت المرأة العجوز الموشومة في ذقنها تقرأ طالع خطوط الجبين في مقهى الروضة. لا أحد يعرف أن تجمّد وجوه نساء السيلكون - اللواتي يصاحبن بعضهن البعض دائماً - على تعبير الدهشة غير المتناهي يعلن حداده على خطوط الوجه السابقة. وبينما تسير السيدات المحترمات العجائز في الشوارع ببطء لأنهن قُصصن من ألبومات صور قديمة وخرجن ويتبادلن «البونجور»، كانت جوليت أجمل نساء بيروت في وقت مضى تلبس حذاءها الأحمر، وتعض على

Twitter: @ketab_n

السيجار السمين بين أسنانها حتى اللحظة، ولكنها لم تعد تفتح طالع الورق. وبينما يشتم الشاب الذي يجوب الشوارع نفسها كل يوم وهو يصرخ «بويا! بويا! بويا!» وأصبح أكثر قبحاً لأنه لم يحلق شاربيه النابتين حديثاً - يشتم - السياح لأنهم يلبسون شحاطات، كانت فتاة من السياح الذين لا يملّون من سماع أصوات البناء التي تنتج منها بيروت ما يكفي الشرق الأوسط كله، ويعتبرونها موسيقى الشرق الأوسط تشاهد بائعة تحرق أوراقاً من المصحف أمام دكان، وتحجب الريح بيدها لكي لا يتطاير رمادها. حين سألت السائحة: «ماذا تفعل؟» هرع شاب سُنّي يعمل نادلاً في مقهى براغ رأى إمكانية ممارسة جنس نظيف على مدى يومين، وقال: «كيف تعتقدين أن المسلمين يملؤون رؤوسهم؟» ونظر إلى تحت أبطي الفتاة غير المنتوفين بالشمع وهو يفكر منذ متى لم ينم مع امرأة، وأكمل كلامه على النحو التالي:

«بشمّ رماد المصحف!»

بعد ساعة وخمس وأربعين دقيقة من معرفة السائحة أنه يجب حرق أوراق المصحف المنزوعة، وذوبانها في الحديث، وعشقها المدينة، لم تكن تعرف أنها لن تجد الوقت لشراء الماء من أجل تنظيف فمها بعد أن أصابه ريال متسوّل بصق عليها لأنها لم تعطه نقوداً. بائعة الشكلتس المتوسطة العمر والمصبوغة أظافر اليدين والقدمين، والأولاد باعة اليانصيب الوطني، والصرّاف الممسك كدساً من النقود ويجلس دائماً مقابل محل «عقيل أخوان» على كرسي صغير، ويصبغ شعره بالأسود الداكن كلما تناقص شعر رأسه، ويلبس حذاءً أبيض، كلهم حجزوا أمكنتهم في الزوايا قبل أن يخرج الناس الذين سيبيعونهم من بيوتهم. فتاتان سيرلانكيتيان تسيران متذمرتين من «مدامتيهما» لأنهما تريدان أن تقصا لهما شعرهما، مسرورتين سراً من إعجاب الرجال بشعرهما الطويل. عيون أصابع الرجال الواقفين أمام باعة الصحف يقرؤون

Twitter: @ketab_n

العناوين مثل علماء فلك نسوا أسماء النجوم تبحث عن قطعة ألف ليرة من أجل قراءة تتمة الخبر رغم معرفتهم له بشكل جيد جداً. الأيدي السائمة تدهن الصعتر على المناقيش، وتنزل صناديق الخس والفجل والنعناع التي لن تغسل جيداً في أي وقت أمام مطعم أبي حسن. تصفّ الفتيات زجاجات المنيكور للمرة السبعمائة، وهذه المرة من الفاتح إلى الغامق. والحلاقون يغضبون من أجرائهم الذين لا ينظفون غبار الأزهار البلاستيكية.

رجال متوسّطو العمر في مقهى يونس يتمازحون بوضع سلاح يعتقد الجميع أنه لعبة ولكنه ليس لعبة في رؤوس بعضهم البعض، شباب وفتيات يعملون في فنادق راقية يتكلمون الإنكليزية والفرنسية دون تكسير يشتمون المواصلات بلغة عربية إلى أقصى الحدود، وبين السيارات تبدأ مناقشات الشرف والكرامة والرجولة والأنوثة والتصالح والغضب وحركات اليد، وما إذا كانت يجب أن تتوقف أو تمر أو تفرمل أو تقلّع مع موسيقى صاخبة إلى أقصى الحدود. سيارات الجيب رمز القوة تختنق في الزحام مثل سمكة سلمون ضخمة في بركة صناعية تعج بالأسماك، والجالس وراء المقود ترتجف أثداؤه وذراعه المشعرة وفي معصمها بلاك ذهبي. في تلك اللحظة رمين أنفسهن بصعوبة إلى مراكز التسوق أمهات لا يتكلمن مع أولادهن بغير الإنكليزية والفرنسية، ولا يستخدمن العربية إلا في خطاب الأمهات المهدِدات والواخزات فقط.

ولا تبقى المسألة عند هذه الحدود، فتلصق إعلانات على الجدران، وتُنتزع أخرى، وتبدأ بروفات المفرقعات النارية منذ النهار وكأن هذه المدينة لا يذكّرها بالحرب أي انفجار. عدد غير متناه من الشبان السمر أمام عدد غير متناه من الدكاكين ينجحون في تدخين ثلاث سجائر مع رشفتي القهوة المصبوبة في كؤوس بلاستيكية صغيرة بنية

Twitter: @ketab_n

اللون. ولأن التنظيف تمت خصخصته كما خُصخص كل شيء في المدينة يحمل العمال - وأغلبهم سوريون - المكتوب على ظهر بزاتهم الخضراء «Sukleen» ويضعون قبعات تغطي رقابهم من الخلف عصياً طويلة برأس معدني مدبب ويجمعون أعقاب هذه السجائر، ومثيلاتها.

بالتأكيد إن أكثر ما ذكِر أعلاه يتم خلال أيام الأسبوع. لا يتسوّق أيام الأحد إلا الذين لا ملك لهم في هذه المدينة، ولا تفتح إلا المحلات التي يقصدها هؤلاء. أيام الأحد تبيع الخادمات السيرلانكيات الحلي المقلدة التي تصنعها نساء سيرلانكيات أخريات، والخادمات الفيليبينيات جُبناً مقلداً صناعة الفيليبين، والأثيوبيات بنطلونات جينز مقلدة صينية. وعند عودة هؤلاء النساء مساء إلى البيوت التي يعملن فيها أكثر من أجل أن يعشن يشعرن بذنب كبير من الأشياء البسيطة التي اشترينها بمبالغ صغيرة، فيحملن ما اشترينه بأكياس اشترت فيها سيداتهن أغراضاً من محلات «Gucci»، «Lancome»، «Versace» واهترأت لكثرة استخدامها، ويمشين في الحمرا مساء متباهيات. عمال البناء السوريون يتفرجون على سوق النساء الفقيرات هذا بشحاطاتهم البلاستيكية، وثيابهم الرخيصة النظيفة الملبوسة لحظة شرائها. يوم الأحد هو يوم يتامى بيروت. لا يستطيع هؤلاء المسير في المدينة إلا وقت انسحاب الجميع إلى بيوتهم.

كاتبنا المليء رأسه بآلاف التفاصيل اللازمة وغير اللازمة مثل هذه يُعد محظوظاً جداً لأنه لن يضطر لشرح تاريخ البوصلات في سيارة ناصر، وسر «شجرة الخبز» التي اخترعتها السيدة زينب، والحادثة المهمة والمضحكة التي وقعت لستانيك في مخيم برج البراجنة، والوضع المخرب للأعصاب الذي سيعيشه جان في تلك الليلة، والقضية غير المهمة المتعلقة بعائشة ونأمل أن يقتنع فيها الجميع عندما نرويها، وعدم توصيل ناصر فليبينا المتعرف عليها حديثاً إلى مخيم

Twitter: @ketab_n

شاتيلا، وأهم من هذا كله ما جرى بين فليبينا ومروان في يوم الأحد ذاك. في الحقيقة لو لم يكن وضع برأسه أن يروي كل هذا للغربيين لما كان متضايقاً إلى هذه الدرجة.

الأسوأ من هذا هو اضطراره لاختيار فليبينا ومروان بطلين للرواية. كاتبنا يشمئز من قضية الهوية التي يؤمن الغربيون بوجود خزائن لا تقدّر بثمن فيها، وانطلاقاً من هذا الاشمئزاز اختار أن يروي قصة بطلين هما الأقل انتماء إلى هوية معيّنة في بيروت التي ينتمي فيها كل شخص إلى قومية أو دين أو تيار سياسي. في هذه المدينة الملعونة حتى الذين ليس لديهم أي شيء، وعندما تأتي الأوامر من الأعلى هم الذين يقلعون أعين بعضهم البعض، لديهم هوياتهم! أصلاً ليس ثمة أكثر من الهويات في بلِيّة الله بيروت. فهو يؤمن وإن لم يكن من كل قلبه أنه يستطيع أن يروي، وخاصة للقارئ الغربي، من خلال هاتين الشخصيتين اللتين لا هوية لهما مشاكل العالم كله، أو مشاكله الراهنة الأخطر على الأقل، ويبيّن أن الحروب والصراعات وكل التعقيدات في كوكب الغبار لا تنبع من قضية الهوية، بل من سبب آخر.

برأي كاتبنا فإن القضية قضية كرامة الفقراء، وليست السلطة أو حلم عالم آخر ما يركض وراءه الإنسان. يرغّب الناس بالذوبان في قصة فقط. والإنسان على عكس ما يبيّنوه لنا يسعد عندما يضحي بنفسه. ولكن كيف سيروي هذا الموضوع في بيروت المعقدة بلية الله؟ وكما نفهم من هذه المشكلة، فإن الكاتب مثل أي كاتب شرق أوسطي يريد أن يشرح هذه القضية للغربي. وبينما كان يحضّر نفسه في مدينة أخرى وفي غرفة فندق لاجتماع لا يعرف موضوعه بالضبط، ويفكر في هذه الأمور، وعلى وشك سيطرة اليأس عليه إلى حد التراجع، وقع لفليبينا الحدث التالي في شارع الحمرا...

* * *

Twitter: @ketab_n

«هل أنت فليبينية؟»

حين خرجت الفتاة الصغيرة من «Horse Shoe» في شارع الحمرا راكضة، ووقفت أمامها، ومدت أصبعها إلى وجهها، وسألتها صراخاً، كان بإمكانها أن لا تجيب، ولكن فليبينا غمغمت بقول: «نعم».

أشارت الفتاة بيدها إشارة «٢»، وصرخت بإنكليزية ذات لكنة عربية فرحة:

«لدي فيليبينيتان!»

بدأت ركبتا فليبينا ترتجفان:

«اثنتان بالضبط!»

عندما خرجت أمها من المطعم، كانت تعيد كأنها تغني أغنية:

«عندي... اثنتان.. اثنتان...»

بينما كانت فليبينا مذهولة بلباسها الأبيض، خرجت الأم ونظارة Dolce Gabbana تزحل عن أنفها المصغّر جداً بعملية تجميل، ونهرت ابنتها وهي تدخلها إلى المطعم:

«ماذا حكينا يا ناديا؟ ماذا يكتب في الكتاب؟ ماذا يوجد في بلدهم؟ فيل، أليس كذلك؟ ما كان عليك أن تفعلي هذا بالفيليبينيات؟»

«الفيلة المنيوكة!»

عادت فليبينا بالشتيمة المهموسة في أذنها. كان ثمة وجه شفتاه مصبوغتان بأحمر بوردو، وعلى عينيه عدسات ملونة، ورموشه بزرقة النيون يضحك لها. وبينما كان الوجه يعلك علكة وهو يتكلم، وصاحبته تدفع فليبينا بمرفقها بشكل خفيف لتبعدها عن مكان الحادث، تابعت قائلة:

«لا تهتمي للمخبولين! منذ صدور هذا الكتاب، يجري الأمر نفسه! ماذا لدى الفيليبينيين؟ لديهم فيلة! من يوم كتبت تلك المرأة ذلك الكتاب، والأمر هكذا. «المدام» التي أعمل عندها أيضاً اشترت واحداً

Twitter: @ketab_n

للأولاد. ثقافتنا كذا وكذا، وينبغي ألا نعامل الخادمات الفيليبينيات بسوء، وما إلى هناك. أي... غضبت كثيراً. المهم... أنا لينتا، أنت؟»

«فليبينا.»

وجهت لينتا فليبينا بمرفقها نحو القديس فرانسيس إلى الأمام قليلاً من مطعم «Horse Shoe». لم تعد الصور المائلة واجهة المصوِّر المجاور لمطعم «Horse Shoe» لفتيات فيليبينيات يبتسمن أمام خلفية طبيعة مدارية تنظر إليهما، بل إلى شارع الحمرا. أما فليبينا فلو عرفت أنها تدخل إلى عالم سري أكثر مما هو كنيسة لما شعرت بالضيق إلى هذا الحد.

Twitter: @ketab_n

٤

«هذه هي إذاً قردة الاستعراض؟»

حين أصاب الهمس أذن دنيز ورقبتها من الخلف كانت في اجتماع «التضامن ضد عنف الأصولية الدينية: الاعتدال» في المعهد العربي في باريس منذ يوم ونصف على الكرسي نفسه، وتجلس بالطريقة نفسها، فنهضت بشكل جعل عمودها الفقري إلى الخارج، وعظم الحوض إلى الداخل. تسرّب الصوت بسرعة الصوت من رقبتها إلى بطنها، وانسحب بطنها إلى الداخل. أثناء امتداد يدها إلى شعرها وهي تلتفت إلى الخلف كان الشاب الأسمر قد اتكأ على مسند مقعده، ورسم ابتسامة ساخرة على وجهه، ووضع يديه في جيب بنطاله الجينز، ومد رجليه إلى جوار كرسي دنيز. يعرف كل ما هو مهم في العالم، ولا يهتم لما تبقّى. كأنك عندما تكون معه تضحك دائماً، وغير الأشياء المهمة جداً حقيقة يغدو كل شيء مجرد مزاح، وتضحك باستمرار. ابتسمت دنيز وهي تهز رأسها فقط. حين التفتت، لتتابع الاجتماع، كانت امرأة أخرى. امرأة. من جديد. غطت ثقبَ جوربها بطرف ثوبها.

يجب أن تكون العيون في رقبتها من الخلف الآن. أليس هناك خصلة تسقط من لفة شعرها الخلفية، تنهر رقبتها وتلكزها مع تحريك رأسها؟ هل رقبتها من الخلف جميلة؟ لمست رقبتها من الخلف. رقبتها جميلة. يجب أن تكون.

Twitter: @ketab_n

«مرحبا، أنا زياد.»

حرك الصوت الخصلة المتأكدة من أنها على رقبتها.

«كنت سأسلك ما إذا كانت هذه هي الفتاة. المقاتلة الأخوانية السابقة يعني...»

قالت دنيز: «يعني، قردة الاستعراض! نعم!»

حين قررت دنيز أول مرة أن تعلّق بطاقة التعريف التي تضعها في جيبها منذ أول الاجتماع على ياقتها بحركة لا يلاحظها أحد، بدأ زياد يلعب ببطاقة التعريف دون أن يخجل من الصوت الذي تصدره.

من المؤكد أنه ينظر إلى رقبتها من الخلف. يبدو عليه أنه رجل ينظر مطوّلاً إلى رقبتها. لأن دنيز رأته حين دخل إلى القاعة، ووضع كنزته على المقعد الأنظف من المقعدين المتجاورين، وكان منسجماً مع ابتسامته التي تقول: «آمل ألا أقضي أكثر من ربع ساعة من أجل أن يعجب بي كل هؤلاء الناس» كأن شيئاً سرّياً فيها، شيئاً يجعلك تتعلق به إذا لمسته. وقد سارت بهدوء وثقة. ضوؤها من النوع الذي لا يمكن أن يغيب عن أعين الباحثين عن الضوء.

«قبّعتها جميلة جداً!»

قال هذا من مسافة قريبة جداً من رقبة دنيز... بالتأكيد ينظر إلى رقبتها. لم تلتفت دنيز لأنها احمرّت.

«... أحياناً أكشف رأسي، وأحياناً أغطيه. أصبحت أنا التي أقرر ماذا أفعل. أحياناً أضع إشارباً، وأحياناً قبعة مثل الآن.»

أصلحت المرأة الشابة البيريه اللامعة بالبَرَق التي على رأسها وهي تستعرض بعينيها كتاباً وأكاديميين وباحثين وصحفيين وممثلي منظمات مجتمع مدني قادمين من ثلاثين دولة وشكلوا حولها دائرة. وقد وضع المجتمعون أيديهم إما على ذقونهم، أو خدودهم، أو ركبهم. الرجال

Twitter: @ketab_n

والنساء الذين وضعوا قضية الهوية المعقدة على بساط البحث يرسمون صمتاً متوتراً خشبياً تحت جديتهم المبالغ بها والمصطنعة. اختارت لنفسها اسمَ فاطمة الحركي، وهي مقاتلة سابقة من مواليد لندن، وكانت فخورة بأنها قادمة من عالم غريب، ومن نجوميتها بسبب روايتها قصة ذلك العالم. غير معروف أي منهما يجعلها تنتصب برأسها؛ هل كانت في زمن ما في عالم آخر وعاشت قصة، أم رجعت إلى هنا لتقص قصة؟ وقد قدمت منظمة مجتمع مدني مركزها باريس المرأة الشابة للمجتمعين بشكل لا يختلف كثيراً عن تقديم قطع كنز تم أخذه من الهنود الحمر ويُقدّم إلى ملكة أسبانيا. وهذه «الحادثة» مهمة جداً بالنسبة إلى المجتمعين المتفقين على أن دعم الإسلام المعتدل هو الحل الوحيد بالنسبة إلى العالم. والصحفيون الحاضرون كلهم يتخيلون من الآن العنوان العريض الذي سيكتبونه: «يشعر المسلمون المعتدلون بالعزلة أمام المتطرفين». كانت صاحبة الاسم الحركي فاطمة تصلح طرف ثوبها بحركات في منتهى الرقي، وتزم شفتيها، وترخيهما، وتضبط نظرة عينيها، وترفع أنفها إلى الأعلى، وتعطي لحظات صمت دراماتيكية بين الجمل، وتحاول أن تستمتع بالنجومية المقدمة لها بوصفها خياراً وحيداً:

«حين كنت عضواً في الأخوان لم يكن حق القرار الفردي هكذا. أصلاً ليس ثمة فرد داخل المنظمة. ليس ثمة «أنا»، وثمة «نحن». مع أنه ليس هناك إكراه في الإسلام. فالإسلام دين التسامح. لأن الإسلام...»

لحظة انتباه مديرة الجلسة الأسترالية أن الحديث تحول إلى تبليغ، قطعت الحديث بسؤال:

«حسنٌ يا فاطمة، ماذا يريدون؟ نحن ماذا يمكننا أن نفعل؟ برأيك

Twitter: @ketab_n

ماذا يجب أن نفعل لدمج المسلمين في أوربا؟ بالنتيجة...»

حين ابتسمت مديرة الجلسة الأسترالية للمجتمعين بحيث تترك فاطمة خارجاً، وقع بَرَق قبعة فاطمة في وضع المخبول. وعَبَرَ وجه المرأة الشابة تردد، وشعور باليتم لم يكن ظاهراً منذ بداية الاجتماع.

«بالنتيجة نحن نريدكم أن تكونوا جزءاً من أوربا.»

كلما طالت ابتسامة مديرة الجلسة يرجع وجه فاطمة إلى زمن مضى. إلى زمن كانت فيه غاضبة وغير لبقة وغير محترمة. أعطت فاصل صمت بطول مقلق. حين انتبهت مديرة الجلسة إلى أنها أقلعت بردة فعل كيميائية خطيرة، كانت متأخرة جداً. قالت فاطمة مُفلتة صوتها مع غطاء رأسها بنبرة عالية:

«أنا أسألك!»

بينما تحاول مديرة الجلسة التغلب بابتسامة على القلق الذي تشعر به مثل كل أوربي حين يُخاطب بين مجموعة بشكل مفرد، وتنظر في ما حولها لتغطي الوضع بالضحك، كانت فاطمة مستمرة:

«لا، لا. ليس للآخرين، أنا أسألك أنتِ. هل تهتمين للجوع في العالم؟ عدم المساواة؟ ألا تغضبين كثيراً أحياناً؟ نعم. تغضبين. ها أنت إذاً عضو محتمل في منظمة إسلامية. في الحقيقة كلكم يمكن أن تكونوا...»

«حسنٌ يا فاطمة، من دون دخول في التفاصيل الدقيقة... يعني، ماذا يجب أن يفعل الناس الذين هنا برأيك؟»

بينما نظرات الغضب والتحدي تتردد بينهما طال الصمت المتوتّر أكثر من اللزوم، وكان زياد قد أسند ذراعيه إلى مسند مقعد دنيز، وبدأ يُنزل النفس الذي أطلقه أثناء الضحك إلى أسفل رقبتها بشكل دافئ:

«ماذا يتوقعون من هذه المسكينة أن تقول؟ «إذا أعطيتم للجميع

Twitter: @ketab_n

قبعات مثل التي أعطيتموني إياها تحلّون القضية بودّ يا سيدتي الحلوة!».

بصعوبة أمسكت دنيز لعاب قهقهتها. وبينما تردد الأرضية الخشبية أصداء القهقهة، زحل زياد في مقعده، وبدأ «يجقجق» وكأنه ليس له علاقة نهائياً بالأمر. «الجقجقات» تنزل إلى بطن دنيز مثل ألم قهقهات لم تُطلق، وحاولت أن تضغط على ضحكتها من المقاعد التي مرت أمامها وخلفها وهي ترصّ على بطاقة التعريف بيدها، ورمت بنفسها إلى الخارج:

«أنا آسفة... أنا آسفة... أنا آسفة... عفواً... أنا آسفة.»

أما زياد، فكأن هناك معبراً بشكل قوس في الصالة، مشى في هذا المعبر خارجاً منها.

«ماذا يوجد؟ أقول الحقيقة. هذه القبّعة تفكك الحركات الإسلامية! من تضع على رأسها تلك القبعة، تنحل. أنا أراهن على هذا!»

نزلت دنيز من الدرج دون أن تتوقف قهقهاتها، وزياد خلفها يضحك ببطء شديد.

«أنت ما عملك هنا؟»

حين سأل زياد هذا السؤال وكأنه يعرفها، وقفت دنيز بدهشة دافئة وحلوة. شدت نفسها، ودبت فيها الروح بالماء النازل من أعلى عمودها الفقري إلى أسفل:

«أصلاً أنت ما عملك هنا؟»

«أنا أعمل مع مختلف جمعيات المجتمع المدني في بيروت. أي ليس لي علاقة بهذا الاجتماع. تعبت، فاقترح عليّ أصدقائي الباريسيون عطلة كهذه. أعدُّ في عطلة يعني.»

Twitter: @ketab_n

قالت دنيز: «وأنا أيضاً» واندهشت مما قالته. لماذا قالت هذا الآن؟

«أنت جائعة؟»

جاعت دنيز فوراً.

«أقترح أن نأكل شيئاً فيه دو لو مو لا.»

قالت دنيز: «نأكل.»

عبرا «Pont de Sully» ووجدا أسوأ طعام في كافتيريا، وحين أحبا الطعام كثيراً أضحك زياد دنيز ثماني مرات، بينما أضحكته دنيز مرة واحدة بعبثيات أكسفورد:

قال زياد: «أنا أكره قضية بطاقات التعريف هذه. يظهر الشخص مثل بندورة عليها إشارة أنها دون هرمون».

«وأنا لا أعرف أبداً أكان عليّ أن أعلقها أم لا؟»

«لأنك شرق أوسطية، وهذا هو السبب. نحن لا نتحمل شيئاً كهذا.»

«لماذا؟»

«معرفة بعضنا البعض دون أن نقص قصتنا.»

يبدو أن دنيز وقعت في الحب.

«حسنٌ مسيو زياد ب. أبو شعر... ما هذه الـ ب.؟»

انكمش زياد، وتصرف كما لو أنه طفل خجل، وضحك، ونظر من النافذة إلى الخارج. واضطرت دنيز أن تلحّ كما ستفعل كثيراً من الآن فصاعداً:

«احكِ...»

«هزلية. يعني عبثية. لا تهتمي.»

Twitter: @ketab_n

«كيف يعني يا روحي؟ احكي يا هذا.»

لعب زياد بلحيته. نظر إلى دنيز كأنه يفكر كم ستصبح هذه الفتاة جميلة إذا ضحكت بعد قليل:

«ب. تعني بيروت.»

سقطت في بطن دنيز بذرة تخفق كأنها قلب.

Twitter: @ketab_n

٥

هناك قضايا يجب أن توضح، ويمكن أن تُشرح خلال سير الرواية بمقاطع متساوية وشكل منتظم. ولكن على ما يبدو ليس هناك أي قضية تجري بشكل مساوٍ للآخر أو منتظم. كل شيء يحدث بالتزامن مع الأحداث الأخرى. ومهما ساد اعتقاد بأن كل شيء في الجزء المتبقي من العالم، أي الشرق الأوسط، يجري مثل ألف ليلة وليلة، فإنه ليس هناك شيء من هذا. الشارع والحياة والناس لم يحكوا قصصهم على هذا النحو في أي وقت. لو استطاعوا أن يقصوا على هذا النحو لعرف الجميع ما حصل لهم، ولكن أحداً لا يعرف. مع الأسف أن القضايا المحتاجة إلى توضيح، معقدة إلى حد أنها يجب أن تُعاش...

بداية، عائشة تفكر في الذهاب إلى الضاحية منذ أيام، ولكنها لم تذهب. أولاً من غير الممكن إيجاد سيارة أجرة تذهب في هذا الحر من الأشرفية إلى الضاحية. القضية من زاوية أصحاب سيارات الأجرة لا تتعلق بالحر، بل تتعلق بالفصل السياسي والطائفي للمدينة. من يريد أن يذهب من الأشرفية المسيحية إلى الضاحية الشيعية المسيطر عليها حزب الله يجب أن يذهب إلى الحمرا السنية بداية. ولا يمكن الذهاب إلى الضاحية التي لا تُعدّ من بيروت، علماً أنها تبعد مسافة عشر دقائق عن الحمرا إلا بهذه الطريقة. رغم هذا فإن سبب عدم ذهاب عائشة إلى الضاحية هو الحر. لأنه عندما يضغط الحر تشعر بضيق من الحجاب،

Twitter: @ketab_n

ولا تريد أن تخرج إلى أي مكان. إذا سألها أحد «كيف تتحملين هذا الحر مع غطاء الرأس؟» من المؤكد أنها سترد مثل أي واحدة محجبة: «الله يصبّرني»، ولكن الحقيقة أن الله لا يصبّرها. كانت عائشة تصبح دبقة في الحر، وهي تصبح عصبية المزاج عندما تتعرق. تبدأ أعصابها بإصدار البخار، وتشبه قاطرة تجر المقطورات وهي تطحّ وتنحّ. لهذا ليس لديها حال لتخرج على سكة بيروت المؤسسة على توتر طائفي وسياسي حامٍ من الحر وتُتعِب ضواغطها محركها.

مع توترها من هذا الحر يخطر ببالها شيء واحد: لماذا تحجّبت... حجة قرارها يتعلق بامرأة قزمة على عكس ما يُعتقد.

عائشة امرأة حلوة، مكتنزة الوركين. والجميع في بيروت ينظرون إلى بعضهم البعض. ليست مجرد نظرات عابرة، بل يقفون، وينظرون طويلاً «كأنهم يصوّرونها بالأشعة»، حسب وصف عائشة - وعائشة دائماً تتوتر من هذا الأمر - فهي قلقة منذ كانت في الثالثة عشرة. لئلا ينظروا هكذا، تريدهم أن ينظروا بطريقة مختلفة بحيث لا تراهم وهم ينظرون. لتمشِ في الطريق ولا تقطع النظرات طريقها. ودائماً تحاول أن تعطي لنفسها شكلاً. شكلاً لا يلفت النظر. لم تمشِ الأمور. لأن الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض في بيروت. وذات يوم رأت في الأرض شيئاً وهي تسير بسرعة في الحمرا. كان شيئاً مثل هذا... امرأة قزمة، تبيع الخرز على الأرض. قزمة محجبة. الجميع ينظر إليها بالتأكيد، ولا أحد ينظر إلى الخرز. لأنها قزمة، شيء يلفت النظر. لماذا تتحجب امرأة قزمة؟ أمن أجل الله؟ لعل هذا، ولكن يبدو أنها محجبة لضيقها من النظر إليها على الأغلب. هل يترك الناس النظر إليها إذا تحجبت؟ لا بالتأكيد. ولكن القزمة غريبة... كأنها أصبحت تقول: «إذا نظرت إليّ فهذه مشكلتك، أنا غطيت نفسي، تحجبتُ» ولديها شعور بالراحة والثقة بالنفس. تضم الخرز وهي تدبب الخيط بلعابها.

Twitter: @ketab_n

قزمة محجبة، كأنها تقول للعالم لا وداع. تحجبت وصارت مرآة، من ينظر إليها تعيد نظرته إليه. كأن المرأة ليست قزمة، بل امرأة عادية محجبة، فهي مرتاحة جداً. في ذلك اليوم تحجبت عائشة. من أجل أن تُرى. لأنها اختارت ألا تُرى في عصر بروز الجميع. هذا كل شيء. ولأنها لا تستطيع أن تروي هذه القصة، روت قصصاً أخرى عندما سئلت. ما عدا ناصر. ضحك مقهقهاً، وسفح العرق على نفسه عندما سمع بأن زوجته أحبت تقليد قزمة.

كان الجو حاراً، وهو يوم لا ترغب عائشة الذهاب فيه إلى الضاحية.

الأهم من هذا أنّ ناصر لا يريدها أن تذهب إلى الضاحية، وأن تنفخ بطنها بالقصص التي تسمعها هناك - عندما تسمع عائشة القصص التي لا تكون جزءاً منها ينتفخ بطنها - وتنقل الغضب من الضاحية إلى البيت. يخشى ناصر من ضياع عائشة في تلك القصص. لأنه يعرف ماذا يعني الضياع. لهذا السبب يوجد في طبون سيارته عشرات البوصلات.

عندما ركبت فليبينا سيارته أول مرة، وطلبت الذهاب إلى مخيم شاتيلا الاسم الوحيد المكتوب بالأحرف اللاتينية غير اسم والدها الدكتور حمزة، واضطرت للاكتفاء بجولة في المدينة، اعتقد ناصر أنها مجرد ثرثرة يتقنها كثيراً من خلال وقوفه على نقاط التفتيش العسكرية والسياسية. مع أن ناصراً تعلم الحديث وهو في الثامنة عشرة من عمره في مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية عندما بدأ يحارب معها في جنوب لبنان. والآن مثله مثل أي رجل محارب يعيش في مدينة دون حرب، لا يجد مكاناً يستخدم فيه هذه المعلومات، ويطيل الحديث مع الجنود الذين لا يسألونه أي سؤال دون ضرورة. حين وصل إلى سن السادسة والعشرين، بعد ثمانية أعوام حرب، وُضِعت كتيبة تحت

Twitter: @ketab_n

إمرته. ودائماً يحكي لعائشة أنه دخل إلى إسرائيل «أربع» مرات، وفي كل مرة يرفع أصبعين من كل يد بإشارة النصر مشيراً إلى عودته منتصراً في المرات الأربع. يعتبر نفسه «قديس حرب» عاد حياً أربع مرات من إسرائيل. لو أنه لم يدخل تحت بلية في المرّة الرابعة لعاش اليوم في إحدى المدن الأوربية شبه قديس سياسي فلسطيني ملحه جاف ويعبث بشاربه الذي كان أيام زمان. ولكنه في الرحلة الأخيرة التي قام بها إلى إسرائيل هاجم هدفاً خاطئاً، ولأن «البوصلة المنيوكة انكسرت» انقلبت اتجاهات حياته كلها رأساً على عقب.

فور عودته إلى بيروت حكمته «محكمة من خراء» لمنظمة التحرير الفلسطينية بالإعدام بسبب خطئه القاتل هذا. ولولا مساعدة أبي غسان الذي يعيش الآن في شاتيلا، ويرفض بعناد الذهاب إلى الجامع مثل أبناء جيله، لما استطاع الهرب من الثقب الذي كان موضوعاً فيه، واللجوء إلى الأرمن في قرية عنجر الجنوبية. بعد سنتين نُسي أمره، وجاء إلى برج حمود الحي الأرمني في بيروت، ثم أصبح «فدائي مواصلات». بعدها لم يُفقد ناصر أبداً. ولكن إذا لصقت معلومة العيش هارباً على الجسم مرة لا يُمحى أثرها. يجد ناصر نفسه مضطراً لتلفيق كذب كلما وقف على حاجز تفتيش. لم يعد أحد يلاحقه، ولكنه يريد أن يهرب. لا أحد يعرف هذا، حتى عائشة.

جان يعرف معنى العيش هارباً بقدر ما يعرفه ناصر. في زمن جريان هذه القصة كانت هذه المعلومة الدبقة سبباً لإغضابه حين دخل ذات يوم من باب صالة الفن الحديث في بيروت.

كانت الصالة تعرض مجموعة من الصور الضوئية ومقاطع الفيديو التقطت إثر اغتيال رئيس الحكومة الحريري. استخدم الفنان هذه الصور ليعرض الانقسام الذي حصل في آذار/ مارس من عام ٢٠٠٥، واعتبار مؤيدي الحريري أن سورياً تقف وراء اغتياله بالتأكيد، والتظاهرات التي

Twitter: @ketab_n

خرجت من أجل الحريري الذي راح ضحية الاغتيال، والتوتر السياسي الذي عيش بعد القضية. ليس ثمة أي شرح له. ولكن أي بيروتي يرى المعرض يعرف بشكل واضح أن البلد قد انقسم إلى قسمين. أتخذ مؤيّدو الغرب من ليبراليي الطبقة الوسطى وأعلى من الوسطى من العلم اللبناني رمزاً لهم، وطالبوا بإنهاء الاحتلال السوري وقاموا بتظاهرة في ١٤ آذار. وكان حزب الله المدعوم من سوريا قد دعا لتظاهرة في ٨ آذار في المكان عينه، ساحة الشهداء، وشكل معسكراً آخر بالمقابل. يعتقد جماعة ١٤ آذار بأن إسرائيل تجلب لهم المشاكل دائماً بسبب حزب الله، أما جماعة ٨ آذار فيعتقدون بأن الأغنياء سيرمون البلد في أحضان الأقوياء من أنصار أمريكا وإسرائيل. حسن، ما علاقة جان بهذا الأمر؟

لماذا انقلبت معدته عندما رأى الصور؟ لماذا بدا وكأنه سيتقيأ فجأة؟.. سنعرفها بعد أن ركض... وسأل: «أين الحمام؟» واضعاً يده على فمه، وفرّغ ما في معدته. لأنه هو يعرف. يتذكر. في واحدة من تلك الليالي التي كان كل طرف يدعي بأن أنصاره بلغوا المليون ونصف مليون، ويتهم تلفزيونات الآخرين «بزوم إن» و «زوم آوت»، من أجل إظهار أنصاره أكثر، وفي ساعة متأخرة، خرج الغضب من كونه مجرد خبر جريدة في أحد الأحياء المسيحية. كان هناك ثلاثة من القوات اللبنانية المسيحية جاؤوا على دراجات نارية يضربون مروان عند المنعطف قبيل مستشفى الجعيتاوي في الظلام. وكان جان عائداً من مظاهرة الرابع عشر من آذار المناهضة لسوريا معلقاً العلم اللبناني على زجاج سيارته الخلفي. يجب أن تذهب سوريا من هذا البلد، ولكن مروان يجب أن يبقى. ولكن إيقاف أولئك الشباب هناك...

رأى مروان السيارة.. وجدت عيناه من بين مرفقيه اللذين يحاول حماية رأسه بهما عيني جان. كان المشهد يهتز مع تلقيه الركلات على

Twitter: @ketab_n

ظهره، ولكن عينيه لا تبرحا عيني جان. بقي جان جالساً وراء المقود. خاف. لم يكن خائفاً من إنقاذ مروان، بل من إنقاذ سوري. وطال خوفه كثيراً. حين لم يعد مروان يستطيع إخراج صوته بدأت الركلات تتردد. بدأ الضاربون ينظرون إلى بعضهم البعض. حين بدأ يتبادل النظر الأشخاص الثلاثة الذين ضربوا شخصاً واحداً، بدؤوا يصحون لأنفسهم. حين رأى جان التردد فتح باب سيارته ببطء. رأى مروان هذا البطء. عرف جان أن مروان رآه. سار ببطء إلى مكان الحادث. الضاربون تراجعوا عن ضرب مروان وهم يضحكون، وخائفون. حين توقف حذاء جان أمام وجه مروان كانوا قد ذهبوا. انحنى جان، صار وجهه مقابل وجه مروان. ضحك مروان. ضحك بسوء. فتح جان فمه بتردد ضحكة. في تلك اللحظة بصق مروان دماً في وجه جان.

لهذا السبب تقيأ جان حين رأى صور الفنان التي تحاول أن تعرض الأزمة الطبقية والطائفية والمتعلقة بالهوية في مجتمع بيروت. كان في فمه طعم دم.

كان في فمه طعم مَنيّ. من مروان. . . بعد ليلة من السكر وتعاطي الحشيش واحتضان بين رجلين، إذا كان الرجلان لا يريدان التذكر إلى أين وصلا، فهناك واحد بينهما لا يريد أن يتذكر شيئاً أبداً صباح اليوم التالي. صباح اليوم التالي، يمكن لشخص آخر أن يفهم معنى الحب. مروان خان نفسه، وجان خان سياسته، وطبقته، وكرهه لسوريا، والكذبة التي استمر فيها طوال عمره. تقيأ كثيراً. لهذا نستطيع قول الآتي: ما جرى بين مروان وجان يرتبط إلى أقصى حد بالحوادث السياسية التي جرت في بيروت.

ليس جان فقط لا يظهر كما يجب أن يكون. المهرّجة الأرمنية ستانيك أيضاً تقطع أنفاس الأكاديميين «أصحاب الادعاء» في قضية الهوية أيضاً.

Twitter: @ketab_n

صبيحة بدء قصتنا طرق أصدقاؤهم الباب من أجل أخذهما هي ووسام إلى المخيم. فهذه الحادثة التي وقعت لستانيك في مخيم برج البراجنة أثناء تقديم عرض للأطفال الفلسطينيين توضح وضع ستانيك. . .

«خطأ كبير أن تحاولي الشرح للإيطالي يا حلوتي! قال الرجل: «واخ، وقعنا وسط الإرهابيين!» وحملق بعينيه، وصار شكله عجيباً لا يستطيع أي مكياج مهرج على وجه الأرض أن يعمل مثله.»

كانت ستانيك تضع يديها في خصرها منتظرة انتهاء وسام من الحديث، ثم نزعت شعرها المستعار الأخضر الضخم، وألقته بعصبية فوق كوم الألبسة في عربة الإقامة. أخرجت علبة سجائر من جيب سترتها المنقطة بالأحمر ولها ياقة بثنيات كثيرة. حين أخذت أول سحبة، وأرادت أن تنفثها من أنفها، امتلأت كرة الأنف البلاستيكية الحمراء بالدخان، وأدمعت عينيها:

«اللعنة عليه، اللعنة عليه! تعودت على هذا الأنف إلى حد أنني أنسى نزعه عند شرب سيجارة. اللعنة عليه! ثم لماذا فرحت كثيراً من هذه الحادثة يا وسام أفندي؟»

اهتز وسام وأصيص زهر بلاستيكي يتفتح في رأسه:

«يا بنت، أنا فلسطيني، إنهم يمنحوننا منذ الولادة دكتوراه بعد إفهام وضعنا لأحد. ولكن مشاهدتي تراجيدية محاولة واحدة مجنونة مثلك شرح شرعية حزب الله للإيطالي فتحت حتى لي آفاقاً جديدة. أهنئك حقيقة!»

الصباغ الأحمر المفلطح حول فم وسام يجعله أكثر سخرية مما هو عليه. وتبدو ستانيك بالأنف الأحمر الذي رفعته إلى رأسها أكثر يأساً:

«المخبولون لا يفهمون! قال منظمة إرهابية. كُلْ قنابل إسرائيل على رأسك، وأرني وقتها المنظمة الإرهابية.»

Twitter: @ketab_n

«أنت ادعي ربك أن لا يعطي اسمك لهذا وذاك على أنك من حزب الله، فيعملون لك بلية في أوربا.»

«ها، الأوربيون لديهم فضول كبير لمعرفة اتجاه المهرجة الكبيرة ستانيك!»

فكت ياقتها كأنها ستختنق:

«أف، أحرّ مكان في هذا البلد هو مخيمات اللاجئين أم ماذا؟»

فتحت ستانيك ياقة سترتها، وخلعت جزمة المهرجة ورمتها إلى طرف بقدمها، ورمت بنفسها بجانب وسام، على كوم الألبسة حيث المكان الأشد حراً في العربة، وتمددت على ظهرها:

«الديك سيجارة ملغومة؟»

أخرج وسام اثنتين من الأصيص الذي على رأسه، وأشعلهما، ومن أول سحبة ضحك من نفسه:

«سأقول لك ما أدوخ فيه بشكل خاص: «هل عرفت الحزب؟» ماذا يعني هذا الآن! لماذا يعرف الإنسان عنصراً من حزب الله؟»

ضحكت ستانيك متعبة:

«أف، من أين سأعرف؟ أريد آن آخذ هؤلاء الأوربيين بليّات الله مرة إلى بيروت، لا، لا. إلى الضاحية. أنا أتكلم معك. لو تبدأ هيئة الأمم بتطبيق كهذا: برنامج تغيير الإنسان! تأخذ الثرثارين كثيراً، وتدخلهم فوراً إلى الحرب! وترسل العراقيين والبقاعيين والغزيين إلى لوزان وستوكهولم.»

«يا ستانيك، يا حلوة! أنا لا أوافق على موت فلسطينيّ بأن تطق أرواحهم مللاً في بلاد ستوكهولم بعد أن نفدوا من المجازر بصعوبة. عدم المؤاخذة! الملل يخنق جماعتنا خلال يومين هناك.»

أظهر الحشيش تأثيره فوراً. بدأا يتقلبان على الألبسة يميناً ويساراً، وهما يضحكان ممسكان ببطنيهما. توقفت ستانيك أولاً:

Twitter: @ketab_n

«حقيقة. أريدهم أن يفهموا. إذا لم يفهم المهرجون القادمون لتقديم عرض للأطفال الفلسطينيين معنى المقاومة، من سيفهمه؟ يجب أن يفهموا. إذا لم نشرح نحن، من سيشرح؟»

سيطرت موجة اهزاز ضحك أخرى على وسام:

«نعم يا حلوتي، بطموحك هذا أنا أراك قائدة عامة «لاتحاد المهرجين المقاومين في حزب الله».»

مع تكاثر الصور التي تتجلى في عقل وسام، يضحك وهو ممسك بأنفاسه:

«نعم، نعم! أنت ونصر الله على المسرح. الذي في الضاحية... ما اسم ملعب كرة القدم ذاك؟ أنت وسط ملعب الراية، ونصر الله يناديك من بين الجمهور: «نتيجة الجهود الذي بذلتها أختنا صديقة المقاومة ستانيك في الملتقى العالمي للمهرجين»... وتصفيق. وأنت بأنفك الأحمر...»

رأت ستانيك الصور التي رسمها وسام في مخيلته، ووقعت في أزمة ضحك. وبينما كانت تمسك بأنفاسها بسبب القهقهة، بدأت تركب جملاً متقطعة:

«ولكن... ولكن هناك... ولكن هناك مشكلة.»

«واحدة فقط!»

وسط القهقهات المتبادلة، تقلبت على الألبسة وعيناها تدمعان، وقالت وهي مثنية طاقين:

«هناك مشكلة. وهي أن الشيعة لا يحبون الضحك كثيراً. انظر، لعلهم لا يحبون الضاحكين والمضحكين. أنا حبي دون مقابل يا حبيبي، هل فهمت؟»

لأن وساماً لم يستطع إيقاف ستانيك بالكلام، أمسكها من كتفيها، وأوقف قهقهته بشكل مؤلم، وتكلم كأنه يشخر من أنفه:

Twitter: @ketab_n

«هذا نعرفه كلنا يا حلوتي ستانيك. كيف نفسر إذاً صور نصر الله على جدران البيت؟ أف، مثل الفتيات اللواتي يعلقن صور نجوم البوب!»

كان الدور بالإمساك من الكتف والكلام على ستانيك هذه المرّة:

«ومن المؤكد أن حزب الله يستطيع استخدامي في عملية اندماجه في لبنان. جناح حزب الله المرح... أف! آلمتني بطني ياه! يعني أستطيع أن أكون جندية في جيش حزب الله المرح.»

كان وسام ممسكاً بخديه، وبينما كان يحاول الإمساك بنفسه، تكلّم وعيناه طافحتان بالدمع:

«نعم، نعم. «بديل عاشوراء». بما أنهم لم يعودوا يضربون أنفسهم بالجنازير، نستطيع أن نتمادى قليلاً... آه! ألمتني خداي، لا أستطيع الكلام. بما أنهم عملوا عاشوراء لايت، يمكن أن يستبدلوا ذلك الشرح العجيب للشهداء بعروض مهرجين. انظري يا روحي، هذا يغيّر صورة حزب الله بالتأكيد!»

لحظة كانا سيغيبان عن وعيهما، فتح باب العربة مهرج باندفاع شديد:

«هيه وسام! انظر إلي! جهزوا أنفسكم. الرجل الإيطالي داخ، لا أدري إن كان بسبب الحر أو الماء الذي شربه. ستخرجان إلى المسرح من جديد.»

فتح وسام وستانيك أعينهما، وتبادلا النظر، ودخلا نوبة قهقهة لا يمكن إيقافها. غمغم وسام بصوت مسحوق ومخنوق ومبحوح من الضحك:

«ستانيك، حبيبتي، علينا أن نقترحك على نصر الله بالتأكيد. بما إنك تستطيعين أن تُفقِدي الإيطالي وعيه بحديث نصف ساعة، فإذا

Twitter: @ketab_n

ألقيت خطبة على مهرجي البيت الأبيض، يشطبون اسم حزب الله من قائمة المنظمات الإرهابية. ما رأيك يا حلوتي؟»

حاولت ستانيك إيقاف القهقهة التي اجتاحتها، فاندفعت القهقهة من أنفها مخاطاً:

«حسنٌ، كفى يا وسام أفندي. يجب أن نذهب لنصحّي الرجل. وإلا سيلبّسون القضية لحزب الله على أنها وحشية ضد المهرجين! غير هذا...»

نسي وسام مم كان يضحك، واستمر بالتقلب على الألبسة.

«غير هذا يا حبيبي، أنا جدية. سأنتمي إلى حزب الله.»

ابتلع وسام نصف القهقهة التي كان يطلقها:

«ستانيك! هل أنت جدية؟»

لا أحد يعرف صرامة انضباط حزب الله، ويعرف ستانيك يأخذ كلمات هذه المرأة الشابة الأرمنية مأخذ الجد، وأصلاً لا أحد يعيرها اهتماماً لأنها مهرجة أيضاً، ولكن الذين يعرفونها جيداً يعرفون أن شكلها يجب أن يؤخذ مأخذ جد أكثر من كلامها. وهذا ما جعلها الوحيدة التي تعرف سر السيدة زينب و«شجرة خبزها». هكذا جرت الحادثة...

بسبب تعليق أكياس الخبز كل يوم على أغصان شجرة البرتقال تحول اسمها مع الزمن إلى شجرة الخبز. وبدأ الناس عندما يُسألون عن عنوان بيت أو دكان في الشارع، يجيبون بجمل من قبيل: «بجانب شجرة الخبز»، «مقابل شجرة الخبز بالضبط». والسيدة زينب تتفقد أحياناً شجرة الخبز سراً خلال النهار مع سيجارتها التي يتلوّى فيها الدخان تحت ضوء الشمس. كانت تعد كم كيساً أُخذ، وكم كيساً بقي. قالوا مرة: «الفقراء مثل السلاحف، لا تستطيع رؤيتها عندما تتحرك.

Twitter: @ketab_n

دائماً يأخذون الخبز ويذهبون أثناء عدم النظر إليهم.» مراقبتها الخبز وآخذي الخبز من النافذة بقلق رغم سخريتها من الفقراء جعلت ستانيك تسألها دون أن تعير اهتماماً لعصبيتها:

«ست زينب، لماذا لا تعطي الناس الخبز مباشرة؟»

نظرت من تحت حاجبيها المخيفين مثل شعرها، وقالت من بين طقم أسنانها: «لا أريد أن ألمسهم!». اشمأزت ستانيك من السيدة زينب كثيراً منذ تلك اللحظة، وفي اليوم نفسه بعد منتصف الليل بكثير، وقفت ببابها حاملة زجاجة عنبرية الكرز، وقالت لها: «يجب أن نتكلم». ولأن الست زينب فقط تكلمت، نحن ننقل ما قالته بالضبط:

«... يمكن أن يكره الفقراء في الغرب الأغنياء. ولكن في الشرق يعتبر الفقراء أنفسهم أخوة أصغر للأغنياء. ولا يبيّنون هذا حتى لو غضبوا. الفقراء في الغرب يتكلمون، في الشرق يحدثون أنفسهم.

أنا، لا أريد منّة ممن ليس له حق بكرهي. لأنني أشمئز. لم يبق غير هذا من حلمنا بالمساواة جميعاً في فقر مشرِّف. أنا أشمئز من مسكنتنا هذه. لهذا لا أريد أن ألمسهم.

لمستهم مرة، وندمت. أسست بين بيتي وبيتهم حياة هجينة. كنا في التسعينيات. انهار الاتحاد السوفياتي، ولأنني لن أستطيع إنقاذ العالم كنت أنقذ فقراء حي الأشرفية. وأحياناً أنظّم رفاقي الذين يعتبرون أن من حقهم مقاطعة الدنيا التي لم يستطيعوا تغييرها. لا يعجبهم الفقراء الجدد. حسب رأيهم، لم يعد الفقراء كما كانوا قديماً. مع أننا نحن الذين لم نعد كما كنا. مع شيخوختنا أصبنا بالتكلس. لأننا نسينا أنهم كانوا يغذوننا بشِعر الفقر حين كنا نعمل على إنقاذهم، لم نستطع رؤية الفقراء الجدد كما كنا نرى القدماء. بما أنني لا أستطيع أن أشرح لهم هذا، فأنا آخذ منهم النقود فقط. نقود منحة دراسية لابن أحدهم، ومعاينة طبيب لمريض، وثمن كرسي متحرك لشقيق آخر، ونفقات تدفئة

Twitter: @ketab_n

من أجل الآخر. . . حوّلت النقود والأغراض لحملة كبيرة وحدي. ذات يوم فيما بعد وضعت امرأة فقيرة عصا بين دواليب آلة المعروف هذه التي بدأتُ أؤمن أنها الحل الوحيد في العالم.»

تحت تأثير العنبرية بدأت الست زينب تشرح بشكل متقطع، وبعد ذلك صارت تغفو في وسط جملتها، وقد حدثت قضية شجرة الخبز تلك التي تعرف جزءاً منها ستانيك على النحو التالي:

دفعت عائلة صائغ رشاوى لمجموعة من الناس هم أنفسهم لا يتذكرونهم الآن، وبنت من لوحات الإعلان التي انتزعوها من الطرقات بيتاً في أرض صغيرة لم يطلب صاحبها استردادها وسط مجموعة من ورشات البناء عند نهاية الدرج الذي ينزل بجانب الجامعة الأمريكية. تُسلّم لهم الكوكا كولا، فقد صارت للعائلة القادمة من البقاع بيتاً من الصفيح الأحمر في بيروت. ثلاثة أطفال صغار ناعمون مثل أشباح منهكة كانوا يلعبون مع كلبهم في الحديقة هنا وهناك. وكأن الكلب يعرف أنه تسلية هؤلاء الأطفال الصغار الوحيدة، فيصبر عليهم صبر أيوب، ولا ينبس إزاء لكزهم ووخزهم، وينام مغمياً عليه تقريباً أمام هؤلاء الأطفال الذين لا يعرفون الرحمة. ثمة عريشة عنب وشجرة زيتون وسط ذلك الصفيح. بالتراب المحفور والمستخرج من ورشات البناء ربوا شجرة موز خلال فترة قصيرة. حين رأت ربة البيت السيدة زينب، التي يحكي عنها الجميع وينتظرونها قادمة، خرجت من «آ» الكوكا كولا، وكانت حالة وجهها حالة من الأمل. حين يتأمل الناس الذين لا شيء لديهم تذهب أنوفهم في جهة، وأفواههم في جهة، وهكذا كان وجه المرأة، فقد تجملت بالأمل، وخيبة الأمل.

سألت وكأنها تصرخ: «الست زينب؟». وما إن هزت السيدة زينب برأسها بمعنى «نعم» حتى أتت راكضة. وحين وقفت أمامها وجهاً لوجه

Twitter: @ketab_n

سقطت في التردد، وصمتت. كل هذا حدث في لحظة. وضعت يد السيدة زينب بين يديها ولا تعرف بالتأكيد ماذا ستفعل، وقبلتها.

* * *

لأن السيدة زينب وهي تفهق لم تستطع غير أن تقول: «يجعل الله لحمي رملاً... رماداً... يجعله عَفَناً... ليتفتت. ليتقطع، ولا ينمو شيء مكان ما ينقطع... اشمأززت من يدي. هل تفهميني؟» استطاعت ستانيك أن تتوقع الحادثة بنسبة خطأ بسيط جداً. نظرت ستانيك إلى السيدة زينب عندما تحول وجهها إلى وجه شيخ وهي نائمة، وحين استيقظت، نسيت أنها نامت، وصحت، وقالت وهي تصرخ:

«كان خبزهم بجانب الزبالة. في الحقيقة إنهم كانوا يأكلون من الزبالة. ولكنني منهكة إلى حد لن أشرح لهم هذا. كبرت الآن. ثم قولي لي، إذا كنت صبية، ولست عجوزاً ماذا يمكنني أن أفعل؟ سنُعتبر كأننا نأخذ من أيديهم الخبز الذي يخرجونه من الزبالة. هكذا يعتبرنا اليساريون. نقول لهم: «أرجعوا هذا الخبز إلى مكانه، ونحن نعدكم بخبز أكثر كرامة ومساواة» لماذا أنت إنسان؟ هل وُزع الخبز ولو مرّة واحدة بالتساوي في تاريخ الإنسانية؟ وهل تركوا من وزعه حياً؟ لماذا تترك هذا الخبز من أجل ذاك الحلم العجيب؟

ماذا يفعلون الآن؟ انتبهي للمسلمين! لا يقولون «مساواة» أبداً. هم يطالبون «بالعدالة». يطالبون دائماً بعدالة لا أحد يعلم ما هي غير الله. لا يطالبون بالمساواة، لأنهم إذا طالبوا بالمساواة تبرز قضية الخبز. انتبهي! لا يتحدثون إلا عن العدالة فقط. لماذا؟ ما هي هذه العدالة؟ لا أحد يشرح ما هي. ولكن لديهم كتابهم! لعنهم الله لديهم كتابهم! وكتاب الله! قديماً نحن أيضاً كان لنا كتابنا! الحقيقة هي يا ستانيك: من لديه كتاب يكسب!»

وأطلقت الست زينب قهقة دون معنى:

Twitter: @ketab_n

«ها، ها، ها... على الأقل الملتحي الذي لنا أحلى من ملتحيهم!»

يبدو أنها تتحدث عن مارك والملالي...

لم يكن هذا السر الوحيد الذي لا يعرفه غير شخصين من البناء الكائن في نزلة الجعيتاوي بجانب المستشفى.

شعور ناصر بأنه مدان لمروان يخلق وضعاً يدعو إلى الضيق. لأن إنقاذ شخص من المخابرات السورية التي كانت كابوس الجميع في لبنان أمر لا يدعو إلى المباهاة، وخاصة بعد انتهاء الاحتلال. موضوع من هذا النوع لا يحكى فيه إلا في شقة مروان التي تحت الأرض. لهذا السبب نزل ناصر ليلاً في ساعة متأخرة وفمه كالطين من السجائر قبل عام، كحل أخير...

* * *

«يجب أن يكون أحدهم قد تكلم في برج حمود. هذه القضية بنت الكلب لم تنزل عن زيقي.»

«أي قضية معلم؟»

«حاج، إذا ضيعت طريقك مرة، لا يسمحون لك بملاقاته لو نزل الرب إلى الأرض.»

قص ناصر عليه في تلك الليلة قصته مع بعض البهارات، ولكنه أقنعه بما لا يقبل الشك أنه لم يعمل لصالح إسرائيل. بالتأكيد كُسرت البوصلة! لابد أن أحداً من برج حمود أبلغ المخابرات السورية أن ناصراً كان عميلاً إسرائيلياً قديماً. رأتهم عائشة عندما جاؤوا وسألوا واستفسروا في الحي. بكت عائشة أياماً. يعلم الجميع أن من يقع ببال المخابرات يقع بيدها خلال فترة قصيرة، ويقع بعدها في المجهول. لن تجد حتى جثة ناصر، وسيصبح كل شيء وكأنه لم يكن. وسيغدو ناصر واحداً من تلك الأخبار التي تُنشر في الجرائد بأنه «تم القبض على عميل

Twitter: @ketab_n

إسرائيلي». لو لم تبك عائشة كل هذا، لعلّ ناصراً لن يذهب إلى مروان، أو يضغط على نفسه، وينتظر عدة ليالٍ أخر.

«ماذا سنفعل يا حاج؟»

قال له مروان: «معلم، أنت اترك هذا الأمر لي، لدي بعض المعارف.» وصرفه بعد أن أقنعه أنه لا يعمل لدى المخابرات. لم يسأل أحد بعدها عن ناصر. ولكن ناصراً نام في تلك الليلة وهو يعتقد بأن مروانَ من المخابرات، ونام مروان ويعتقد بأن ناصراً ضيّع طريقه ذات يوم.

بينما يحدث هذا بوصفنا أشخاصاً نماطل في إعطاء وعود، وأخذ وعود من بعضنا البعض، كان يحدث في بيروت كما يحدث منذ سنوات، فيجتمع رؤساء الكتل النيابية في البرلمان من أجل تحديد «إستراتيجية دفاع وطنية» تحت عنوان «الحوار الوطني». يجتمعون، ولكن الاجتماع يفض دون اتخاذ أي قرار، ويتفقون على «التهدئة» فقط. الجميع يعرف أسرار الجميع، ولكن أحداً لا يأتي على ذكرها.

أما فليبينا فقد كانت في كنيسة القديس فرانسيس في شارع الحمرا تستعد من أجل تجميع أسرارها. بالنسبة إلينا، فالقصة المهمة والغريبة أكثر من هذه الأسرار كلها على وشك أن تبدأ.

Twitter: @ketab_n

٦

«انتظري دقيقة، لنأخذ هذه الفتاة أيضاً.»

غادرت مع زياد الاجتماع للخروج في مغامرة سرّية، ولكن حين انضمت إليهما «قردة الاستعراض»، انطفأت حرارة البذرة التي زرعها زياد في بطن دنيز قبل يومين. كانت «ذات الاسم الحركي فاطمة» تشبه فتاة بهلوان لم تنجح في أداء فقرتها وأخذت عقوبة، وجلست منكمشة على نفسها جانباً. رغم سرورها لدعوة طعام على غير الغداء كان لديها الحزم بحيث تستطيع دفن نفسها في ظلامها لكي لا تظهر هذا السرور. لم تكن القبعة على رأسها اليوم، وهي تضع حجاباً من النوع الذي كانت تستخدمه قديماً. سألها زياد بالعربية بصوت ناعم وخفيض، وردت بحمل حقيبتها والنهوض فوراً. وهكذا انطلق الثلاثة في الطريق.

«أنا أقول، يلزمنا قليل من النشاط السياحي. أي قبل الطعام مثلاً. . . لنذهب إلى المتحف.»

قالت «ذات الاسم الحركي فاطمة»: «لنذهب». ولم تقل دنيز شيئاً، ولشعورها بالوحدة دسّت يديها في جيبيها. كانت كأنها واحدة تلحق بهما. مثل مسكينة، كأنه ليس لديها خيار آخر، كأنها مجرد طفلة مصطحَبة تلتزم بالمجموعة. طفلة «من الطريق». . .

بقيت المرأة متخلفة خطوة عن زياد. حين وصلت دنيز إلى جانبها

Twitter: @ketab_n

بالضبط رفعت غطاء رأسها ثم فكت ربطة شعرها. هزت رقبتها. ظهر شعر لا شكل له، ولم يُسرّح، يكاد أن يكون وحشياً. هل ينبغي أن تنظر دنيز؟ هل يجب أن تتصرف كأن شيئاً لم يكن؟ نظرت المرأة إلى دنيز، وعبثت بشعرها، كأنها قالت لها: «تستطيعين أن تنظري..»

حين ظهر شعر المرأة صارتا أختين فوراً. أزيل الغطاء/ الزجاج/ الجدار الذي يمنعهما من تبادل ابتسامات باقية من الطفولة. حين تلاقت عيناهما وارتدّتا لم تكونا جداراً زجاجياً يفصل بينهما، بل يفصلهما عن الآخرين...

دهشت دنيز من نفسها، ولمست شعر المرأة، مدة قصيرة، أي فوراً. ضحكت «ذات الاسم الحركي فاطمة» بوجه لم يُر عليها من قبل: «مللت!»

وفتحت يديها إلى الجانبين. لم تقصد أنها ملّت من الحجاب، أو من إخفاء الحجاب لها، بل من تحويلها إلى «قردة استعراض» في الاجتماعات. ولم يتكلما بشيء آخر.

«برأيي ذهابنا إلى اللوفر كأننا ذاهبون إلى مركز تسوّق سيضايقنا، لنذهب إلى مكان صغير. لنفكر بمتحف من العصور الوسطى.»

تحدث زياد دون أن يلتفت إلى خلفه. وأثناء تحويله الدفة مثل قبطان حازم كان يعرف أن النساء يجب أن يبقين في الخلف، ويشعر بأن الصمت الذي خلف ظهره هو مرح وأشياء جيدة وحلوة. ساروا بصمت. وصارت دنيز مرآة «لذات الاسم الحركي فاطمة» التي استعادت اسمها السابق رولا بعد أن سارتا عدة أمتار متجاورتين، وأصلحت لها شعرها. «هذه نطت، دقيقة»... «لا، هنا... هه، الآن صارت». ومع ملامسة أصابع دنيز لشعرها الملتصق، والذي فصله الغطاء إلى قسمين، ورفعها له، وفكها كهربته التي تجعله متجمعاً في

Twitter: @ketab_n

حُزَم زاد ارتباطها برولا. كانت تفوح من شعرها رائحة كولونيا، أو رائحة أزهار النظافة. مع هبوب الريح تتناهى إلى أنفها الرائحة المخبأة في شعرها. سمع زياد الأصوات، ولم ينبس أبداً.

«نعم هنا! يا آنسات، أعتقد أن هذا أكثر مكان يجب أن ترياه في باريس. متحف للعصور الوسطى!»

وكان زياد مثل أب عطوف يدير ابنتيه المشاغبتين بشكل جميل، ويريهما زجاج العصور الوسطى المعشق، وتماثيلها الخشبية والحجرية، وعبرتا من الباب بعد أن رأتا بعيني الحيرة ما يعرض في الصناديق الزجاجية بحيث لو رأته نساء العصور الوسطى لضحكن كثيراً.

«هنا: السيدة المحترمة، والحصان ذو القرنين!»

أدخلهما إلى ظلمة قسم المتحف الخاص هذا واضعاً يده على ورك دنيز، والأخرى في منطقة الأخوة من ظهر رولا. وهكذا فإن القسم المسدس الأضلاع بجدرانه العالية التي تغطيها ستة أنسجة احتضن المرأتين. وفي الصمت الشبيه بالموسيقى الهادئة ظهرت ستة رسوم على نسيج أحمر فاتح قليلاً مطرزة غرزة غرزة. تتعاقب قطع النسيج التي تخاطب الحاسة السادسة للمرأة.

«الآن، لا أحد يعرف من نسج هذا النسيج، وفي أي زمن نُسج.»

بدأ زياد يشرح من ذاكرته واضعاً يديه في جيبيه:

«أشياء فريدة بالنسبة إلى عصرها. أي أن وجودها غير منطقي. كتب الجميع من ريلكه حتى جورج ساند أشياء ما عنها، ولكن لم يفك سرّها أحد. التذوق، الشم، اللمس، السمع، الرؤية... تقف السيدة المحترمة - وحقيقة كان لديها وجه ساحر، وجه لا يتصوره عقل - مع خادمتها والحيوانات لتمثل هذه الحواس الخمس. ولكن...»

بعد قليل من الزمن، لم تعد دنيز تشعر بمشهد زياد. الاستغراب

Twitter: @ketab_n

الذي انسلّ إلى عمودها الفقري فزحلق غضاريفها من بين الفقرات جعلها تنهار على مقعد وسط الغرفة. وضعت وجهها بين يديها. نظرت إلى الحيوانات المحيطة بالسيدة المحترمة: أسد، قرد، طيور، أرنب، كلاب، سنانير، حصان مقرّن. لا ضرورة لأن يشرح رجل هذه الرسوم المطرزة. هذا «الشيء» مهما يكن، يشرح المرأة. اقتربت منها رولا بصمت. ما زال زياد يتكلم:

«... القضية أن سر السادسة غير معروف. انظروا ماذا كتب فوقها: «Mon seul désir». هل هذه تعني «رغبة روحي» أم «شهوتي الوحيدة»، أم تعني «رغبتي الوحيدة»؟ مؤرخو الفن غير متأكدين.»

تشير دنيز ورولا إلى التفاصيل في النسيج بأصابعهما دون أن تقولا شيئاً متجاوزتين اللمس والذوق والرائحة والسمع والرؤية.

في «اللمس» تمسك السيدة المحترمة الحصان المقرن بيد، والراية بيد. كأنها ذاهبة إلى الحرب، والحيوانات تنتظر أمرها بصمت. لا يظهر على وجهها ما إن كانت ستنتصر أم تُهزم. هناك حرب يجب أن تذهب إليها، ونسيج بشرتها صاف كالماء.

في «الذوق» كل الحيوانات تنتظر أخذ العنب من يدها، أما هي فتطعم صقراً بشكل بطيء. ولأنها تطعمه ثمة نور أمومة في وجهها. والأزهار حولها تفتحت أكثر.

في «الشم» تصنع تاجاً من قرنفل قدمته لها خادمتها، ومالت رقبتها بظرافة الرائحة قليلاً. وفي هذه الأثناء يتعلم الحصان المقرن والأسد والقرد الشم. ولكن السيدة المحترمة تنظر إلى القرنفل فقط، من مكانها وليس من مكان آخر.

في «الرؤية» تجلس، وتري الحصان انعكاسه في مرآة تحملها بيدها. وجهها حزين. لأن النظر شيء ليس جيداً، وتعرف هذا.

Twitter: @ketab_n

سيفسد جري الحصان عندما تنسجه بنفسها. القطط والأرانب والثعالب الوحشية من حولها أيضاً. . . لعلها تريدها أن ترى نفسها أيضاً، ولعلها لا تريد أن تنسى الحيوانات مشيتها بتقليدها. وكل هذه الصور تبدأ وتنتهي على جزيرة بلون أخضر داكن، وكحلي داكن فوق أرضية حمراء باهتة. وبعيداً. لا، في المكان، داخل المرأة. ما المجهول في هذا؟ ما العصيّ على الفهم في هذا؟ أي سر؟ إلى أي مدى يمكن لقلب المرأة أن يُفتح؟

عرفت رولا ودنيز. أشارت إحداهما إلى الأخرى بما عرفته ببطء، ووافقت إحداهما الأخرى برأسيهما صامتتين، ووجهتا دهشتهما إلى الحاسة السادسة التي تأتي بعد اللمس الواقعة بجانب زياد. نهضتا من مكانيهما بدهشة جديدة. ثمة خيمة يحرس الأسد طرفها هذا، والحصان المقرّن طرفها ذاك، ومرفوعة ستارتها. الخادمة تركع أمام «السيدة المحترمة» وبيدها صندوق مليء بالمجوهرات. المرأة ستلبس المجوهرات، وتدخل أم ستخرج؟ الحيوانات من كلاب وأرانب وطيور وقرود وماعز دون حركة، تجمدت في مكانها، تنتظر ما سيحدث.

«القضية هنا هي. . .»

بصوت مخيف يصدر من الأعماق قطعت دنيز صوت زياد غير المتناغم مع الصمت:

«هل هي داخلة أم خارجة؟ هل تقرر مقاطعة الحياة والانغلاق على نفسها، أم الاستمرار بالحياة؟»

«. . . هم، يمكن طرح هذا السؤال طبعاً، ولكن. . .»

لم تستمع الاثنتان لزياد. التفتت دنيز، ونظرت إلى رولا من أجل الجواب. رغم وقوفها موقفاً رصيناً إلى أبعد الحدود من أجل سؤال آخر، يتعلق بالحجاب والتحجب، غيّرت رولا موقع خصلة شعر

Twitter: @ketab_n

منسدلة إلى ظهرها. كان وجه رولا يتشقق بابتسامة نابعة من الحزن، كأنها تقول لدنيز: «لا تفعليها». وما إن خجلت دنيز من ظلمها البسيط هذا حتى سأل زياد بأسلوب معلّم غير محبّب:

«نعم، ما رأيك يا رولا؟»

اغرورقت عينا رولا، ولم يعرف زياد أو دنيز ما إذا كان السبب هو عودتها إلى شعور «قردة الاستعراض» أم لأنها لا تعرف الجواب حقيقة.

«ورأيك يا دنيز؟»

هل تقف إلى جانب هذه الأخت المهمومة، أم تُهزم أمام بذرة الفرح التي تحركت في بطنها حين سمعت اسمها من زياد؟

«برأيي إنها خارجة. غير هذا، ليست هذه آخر منسوجة. هذه الأولى. بما أنها تظهر في الرسوم الأخرى بمجوهراتها فهذا يعني أنها لبستِ مجوهراتها وخرجت، من أجل اللمس والتذوق. لأنها...»

«كم الساعة؟»

سألت رولا بوجه غريب مثل الثلج ولم ينتبه لا زياد ولا دنيز متى لبست هذا الوجه.

أجابها زياد عن الساعة، ولكن كأنه يسألها: «لماذا؟»

«اقترب وقت الصلاة. أنا عائدة إلى الفندق. أكملا أنتما. كيف ما كان سنلتقي فيما بعد.»

لم تنتظر جواباً، ولم تنظر إلى وجه أحد منهما. حين كانت خارجة من الباب، أخرجت يدها حجابها من حقيبتها. خرج من عقل دنيز ما يشبه قُصاصة الورق. إذا كانت الأخوة قسمة من الله في البداية، فهي تتفرق الآن بسبب رجل فانٍ، بسبب ضعفي الفاني.

أفسد زياد صمتَ الذنب بصوت يكاد يكون فرحاً:

Twitter: @ketab_n

«أفكر بكتابة مشهد كهذا.»

«نعم؟»

«أنا أكتب كتاباً... يعني، أقبل أنه أكثر غرابة مما توقعـ...»

«ماذا تقول أنت؟»

«ألم يكن غريباً برأيك؟»

لملمت دنيز حقيبتها وعمودها الفقري، وأنّبت البذرة التي مازالت تتحرك داخلها بالشتائم، وخرجت. وزياد خلفها...

إنه رجل ذكي، بدأ يتبع دنيز دون أن ينبس بكلمة، ودون أن يكون لديه أدنى فكرة حول المكان الذي تقصده. كانت دنيز ستستمر بالصمت والمشي حتى تيئّس الرجل الذي يتبعها. هذا ما قررته.

كانت مندهشة من استطاعتها السير بهذه السرعة، ومن عدم تراجع زياد عن ملاحقتها، ومن استطاعتها أن تكون امرأة عصبية. إنها امرأة عصبية جداً، ولا تخجل من هذا. كأنها ذاهبة إلى الحرب. مع مسيرها تفتح صدر مخها، وشعرت بأن وجود رجل يتبعها يمنحها قوة أكبر. سارت وسارت، ومع سيرها أحبت غضبها، وأحبت تشتت غضبها طبقة إثر طبقة مثل ستارة غربول في الهواء من سيرها ومن تفتّح صدر مخها. ولن يهدأ غضبها إلا عندما يهدأ سيرها ولا تنظر إلى خلفها نهائياً... مع مسيرها اشتدت الريح وانفتح صدرها وكأنه يمتلئ بأشياء جميلة وأشياء قوية. كأن داخلها مليء بالحيوانات، وتسمع صوت كل منها ورائحته، وتلمسه، وتراه. كأن جذعها يكبر، وستقلب كل ما يقع في طريقها. كأنها تتجمل أكثر مع تطاير شعرها في الهواء، وتدور داخل الريح. أعادت على نفسها «أنا خارجة» ثلاث مرات، وطبعاً... ومع سيرها ازدادت اقتناعاً بأنها تخلع جلدها الميت، وأنها تتنفس من مساماتها. مع سيرها...

«اللعنة!»

Twitter: @ketab_n

عندما التفتت دنيز إلى زياد لم تكن منتبهة إلى أن وجهها كان يضحك. كان زياد أمام دكان لبيع التلفزيونات ينظر إلى عشرات الشاشات التي تبث الخبر نفسه. سارت ببطء إلى جانبه. انتهت اللحظة السابقة، وهذه لحظة جديدة. وقفت بجانبه، وشاهدت معه. قال زياد: «اللعنة!» ثلاث مرات، وأخيراً بدأ يحكي.

Twitter: @ketab_n

٧

دعوكم من محاولة التغلب على الشعور بالذنب للص يسرق من الفقراء والمنحوسين ويهدر ما سرقه على طاولة القمار، بعد قتل امرأة دون أن يعرف ماذا تريد، فقد كانت تحدث أمور غريبة لفليبينا في كنيسة القديس فرنسيس في شارع الحمرا.

* * *

«لا يجوز هنا، هيا! هيا!»

يحاول حارس الكنيسة طرد الفتيات الفيليبينيات اللواتي يصبغن أظافر بعضهن البعض على المقاعد الحجرية في الحديقة الأمامية للكنيسة.

أعطت الفتيات الفيليبينيات المالئات حديقة الكنيسة استراحة لوجوههن العابسة التي تكوّن جزءاً لا يتجزأ من أكياس الزبالة الزرقاء والسوداء والخضراء والبدلات الموحّدة في الأزقة طوال أيام الأسبوع. لقد ادّخرن وجوههن الشبيهة بوجوه الناس السعداء ليوم الأحد هذا. ادخرن حالاتهن الذاتية كلها من أجل هذا المكان، حديقة الكنيسة، وبعضهن البعض. كن قويات لأنهن سوف يكنّ معاً، لهذا بعد أن فتح الحارس ذراعيه إلى الجانبين تراجع نادماً، وبحاجبين متخليين عن المبالغة بالتقطيب:

«ولكن لا يجوز أن يعمل هذا الأمر هنا يا أحبائي!»

Twitter: @ketab_n

كان الصوت ينكسر بالرحمة.

حين دخلنا من باب الكنيسة مسحت ليتا كتل حمرة شفاه البوردو الرخيصة المتجمعة على طرفي شفتيها بأصبعها، ونظرت إلى بلوزة فليبينا وتنورتها البيضاوين:

«هل أنتِ من المنشدات؟»

«نعم؟»

رمقت ليتا فليبينا بنظرة من شعرها إلى قدمها:

«أنت جديدة يا حبيتي؟»

«نعم، صار لي أربعة أسابيع.»

أشارت لها ليتا بمعنى: «حسن إذاً»:

«إي يا بنت، طالما أنك لست من المنشدات، لماذا تلبسين الأبيض هكذا؟»

بينما كانت فليبينا تنظر إلى بلوزتها وتنورتها البيضاوين، عبرتا حديقة القديس فرنسيس بين نساء يتضاحكن، ويفرغن الأحاديث المتراكمة لديهن بسرعة. وحين دخلتا من باب الكنيسة تحدثت فليبينا في نقطة سقوط الضوء من الباب الخلفي المفتوح التي تلمع على الأرض وكأنها مدهونة بمادة صقلته:

«شكراً لك... لأنك أنقذتني. أي من الفيلة!»

ضحكتا أيضاً. وأصلحت ليتا شعر فليبينا.

«لا تهتمي حبيبتي. العفوا!»

نظرت ليتا إلى فليبينا نظرة من تعتقد أنها نسيت نفسها، نظرة من ينظر إلى مرآة ظالمة تقول إن الوقت قد تأخر.

«لا تهتمي لهذه الأمور حبيبتي، انظري!»

أشارت إلى الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفية، باب حديقتها السرية. بدأت تتساقط ضحكات النساء المنبعثة من خلف الباب نقطاً

Twitter: @ketab_n

على الأرض الحجرية. مع مسيرهما تكبر النقط. وحين تحوّل الصخب إلى أصواتٍ تنبعث من رؤوس طيور عملاقة لم تكن تعرف فليبينا أن فمها بقي مفتوحاً:

«تفضلي! إليك الجماعة الوحيدة في بيروت من دون علَمَ أو سلاح أو قائد!»

كانت هناك مئات من النساء الفيليبينيات أعمارهن تحت الثلاثين يملأن حديقة كبيرة. يتحركن كلهن معاً؛ يقفن، ويتكلمن فيما بينهن من جديد، ثم يمشين، فيُشعرن بأن الفسحة كلها تدور. لبسن أجمل ثيابهن، وأكثرهن استخدمن مساحيق التجميل التي وفرنها طوال أيام الأسبوع في هذا اليوم، وكلهن يحاولن الظهور بمظهر فرح أكثر فأكثر، ويملأن الحديقة أكثر فأكثر. وعلى طاولات مصفوفة عند جدار الحديقة هناك خضار وفواكه مجلوبة من الفليبين، و«Louis Vuitton»، «Armani»، وتذهيب «Versace» المقلدة، وأصناف طعام مطهوة على الطريقة الفيليبينية، وأحذية مطاطية وأخرى للبيع وخطوات صغيرة لنساء صغيرات تتقابل على الطعام. الكوكب الذي لا يمكن أن يتوقعه من يرى الزحام الخفيف في الحديقة الأمامية، وليس ثمة من يتنازل لتخيله في بيروت، يتشكل من توحد أجساد نساء يتلامسن، ويتماسكن، ويتبادلن القبل، ويتعانقن، ويسير نحو التكوّن.

«أستر، أختي أستر!»

سحبت لينتا فليبينا من ذراعها دون أن تستأذنها إلى حافة دائرة الزحام المسماة أستر، ولحقت بالزحام من طرفه. الآن صارتا في ذلك الكوكب أيضاً.

«انظري، هذه فليبينا... لا تنخدعي بلباسها الأبيض، ليست من المنشدات. إنها جديدة هنا. إي، هل قرأت الكتب؟ هل وجدتِ فيها ما قلته؟»

Twitter: @ketab_n

أخرجت أستر من حقيبتها خمسة كتيّبات، وزمّت شفيتها:

«والله يا أختي، هذه كلها متشابهة، كأنك لا تعرفين هذا؟ خادمة فيليبينية ورب العمل، وفي أحسن الاحتمالات ابن رب العمل الوسيم المدلل.»

نظرت فليبينا إلى الكتيبات التي تنتقل بين أيديهما، وعلى أغلفتها كلها صورة فتاة شعرها أجعد وشاب وسيم.

«سلسلة «Precious Hearts/ قلوب عزيزة» يا حبيبتي! إذا أردت البقاء على قيد الحياة عليك أن تحبي هؤلاء، وإلا بدأت بالتفكير، وتنتهي بك الأمور كما انتهت معي!»

أخذت لينتا وأستر تضحكان، وأغلقتا فميهما بالعادة المكتسبة بالعمل خلال الأسبوع.

«هيا، خذي أنت أيضاً واحداً. انضمي إلى المجموعة!»

أخذت فليبينا الكتاب المكتوب عليه بالأحرف الأكثر رومانسية: «Precious Hearts تقدم... سلسلة كريستينا... الكتاب الذي بيع كثيراً!!! بيع أكثر من عشرين مليون نسخة!!!» وبدأت تقلّبه مجاملة. كان مكتوباً بلغة تمزج بين الإنكليزية وTagalog، وانتظرت لينيتا وأستر أن تغطا في الحديث لتضعه في حقيبتها.

«إيه، أين سيكون عيد ميلاد فيلي؟»

«أين سيكون برأيك؟»

«أف، في لاماستا أيضاً؟»

«أين سيكون يا ليتا؟ هل تأمرين حضرتك بأن يقام في روف فندق فينيسيا؟»

ضحكتا.

«آآ، نسيت. قضية المنشدات. هم... انظري، انظري. هناك اثنتان منهن.»

Twitter: @ketab_n

أشارت لوليتا إلى امرأتين واقفتين في الباب مثل طفلتين عاقبتهما المجموعة التي تتكلم وتصرخ وتلعب، وكأنهما تعيبان عليهن هذا الصراخ واللعب. والاثنتان تلبسان الأبيض الناصع مثل فليبينا.

«أرأيت؟ لهذا السبب اعتقدت أنك هكذا...»

رأت فليبينا وجه المرأة العجوز الباسم المرتدي الأبيض الناصع أيضاً بين وجهين باسمين وقد أمسكت بالمرأتين من كتفيهما وأدخلتهما. هذه أول مرة يخرج صوتها بهذا الشكل منذ أتت إلى بيروت. كأنه بُح من الانفعال:

«حسن، هذه... من هذه؟»

«العجوز؟ ماري. إنها هنا منذ ثلاثين عاماً.»

«ثلاثين؟»

هذه أول مرة تسرع فليبينا، وتركض، وتدخل وهي تقول للينتا: «نلتقي في القداس». وقالت لها ليتا:

«لا تتأخري. إذا لم نأخذ مكاناً بجانب المكيّف...»

لم تسمع فليبينا بقية الجملة. والتقطت في آخر لحظة أثر التنورة البيضاء وهي على وشك أن تغيب في إحدى غرف الكنيسة. وحين أرادت العجوز أن تغلق الباب، أمسكته:

«دقيقة واحدة!»

«آه يا حلوة، هذا يعني أنك العنصر الجديد في الفرقة. حسنٌ أنك أتيت بعد أن جهزت نفسك باللباس. وهكذا، اليوم...»

فيما بعد انتبهت فليبينا لما فعلته يدها. أمسكت بذراع المرأة:

«دقيقة واحدة!»

«ماذا حدث يا حلوة؟ أنت بخير؟»

«حضرتك... ماري؟.. أنا فليبينا...»

Twitter: @ketab_n

«نعم يا حلوتي؟»

حوالي عشر نساء في الغرفة، أعمارهن تتراوح بين الثلاثين إلى ما فوق الستين، نظرن نظرة واحدة إلى فليبينا. الجميع انتظر ما ستقوله. سحبت فليبينا المرأة إلى الخارج، وتكلمت مغمغمة:

«أمي... أمي أنا... يعني جاءت مثلك إلى هنا، قبل ثلاثين عاماً...»

انفرج فمها، وحكت:

«هل كنتِ هنا في الحرب؟ اسم أمي ميشيلا. هل تعرفينها؟ لعلك رأيتها. أمي اسمها ميشيلا. قالوا لي إن وجهي يشبه وجهها... عدا العينين.»

أمسكت العجوز فليبينا من ذراعيها. كان على وجهها ابتسامة مدوّخة بسبب شربها الكثير من العقاقير. كأن عينيها من زجاج، ولا ترى شيئاً:

«نعم، أنا كنت هنا أثناء الحرب يا روحي. قلتِ ميشيلا؟ انتظري قليلاً؟ مضى وقت طويل بالطبع... أنا آسفة يا حلوتي...»

«ولكنك تتذكرين الحرب أليس كذلك؟ يعني كم امرأة فيليبينية وجِدت هنا في تلك الأثناء؟»

«لا أعرف يا حلوتي.»

«ولكنك كنت هنا في الحرب؟ الحرب...»

«أف، كانت أياماً سيئة جداً...»

أرادت فليبينا أن تدخل إلى فم المرأة، وتسحب الكلام منه:

«كان الوضع سيئاً إلى درجة أننا نركض كل يوم في فترة وقف إطلاق النار بين الثانية والخامسة إلى محطات الوقود والمدارس من أجل جلب الماء. كانت سيئة جداً.»

Twitter: @ketab_n

وانتهت.

«ولكن الرب ساعدني منذ تلك الأيام إلى الآن. لأنني عملت كثيراً، وشكرته كثيراً...»

انتقلت العجوز إلى عالم آخر. وانقلب وجه فليبينا بخواء المعنى وخيبة الأمل.

قالت مجدداً: «دقيقة!» لم تكن مصدّقة أنها ممسكة بيد المرأة، ولكنها لا تستطيع تركها:

«أي أنك في الحرب... يعني، لم تري شيئاً آخر أبداً؟»

«وقتها لم تكن سيدتنا تسمح لنا بالخروج من البيت. طبعاً لجلب الماء فقط. وفعلت حسناً، انظري، ها أنا أعيش. يا أختي، اسمك... قلت إنه فليبينا أليس كذلك؟ ألا تريدين الانضمام إلى المنشدات؟»

وأشارت بيدها إلى الغرفة. ثمة أورغ يعزف وحده بإيقاع سائم برفقة الحديث. والنساء يوزّعن الطعام الذي جلبنه على الطاولات. من جهة يحضّر لوحٌ من أجل «خربشة»، ومن جهة أخرى يحفظن الأناشيد التي سينشدنها بعد قليل وهن يتضاحكن وليس لديهن أي هم، مثل فتيات صغيرات. كن نظيفات، في غاية النظافة. نظيفات بحيث تعتقدون أنهن لا يعشن. حين يضحكن يصدر الضحك كأنه قهقهة فتاة صغيرة مسجونة في بناء حجري.

ابتعدت فليبينا عن الباب مثل حلزون اندس في قوقعته. انسحبت، وخرجت منزلقة. ليس لأنها لا تعرف ما سيحدث لها بل لأنها شعرت بشيء في داخلها، كأنه يقول لها إنه لا علاقة له بهذه الألبسة البيضاء والنساء، ولا بها أو بأمها. المعلومات المطلوبة خارج قضية البقاء على قيد الحياة، والبقاء بمنتهى النظافة، تتململ في داخلها مثل بذرة بدون كلمات.

Twitter: @ketab_n

«حبيبتي، سنتصبّب عرقاً أمام السيدة العذراء إذا لم نجلس في مكان قريب من المكيّف. هيا استعجلي.»

قالت فليبينا: «لنذهب!» وخرجت لينتا وأستر بحزم يرفعن الحواجب ويزمّن الشفاه. حين بدأت مراسم القداس لم يكن المكيف يعمل. وهذا ما جعل رجلٌ فيليبيني ياقة لباسه الكهنوتي كبيرة جداً بحيث تغطي نصف وجهه يعبث بجهاز توجيه بعيد كأنه يؤدي قداساً إلكترونياً منفصلاً عن الجميع بإصدار صوت: «توت، توت، توت!» يجعل حتى تمثال يسوع على الصليب المقدس يعاف روحه. أخرجت النساء كلهن مراوحهن. وبدأت المجموعة المؤلفة من نساء فيليبينيات تتمتم بالترانيم كأنهن يعلكن العلكة مطرقات برؤوسهن، وبعضهن مغمضات أعينهن بإيمان. أحياناً يبعث بعضهن برسائل من هواتفهن النقالة، ويُرين الرسائل لمن بجوارهن إذا كانت من رجل. كلمات النشيد الذي يردّدنه مكتوبة بخط اليد وتسقط بواسطة جهاز إسقاط على الجدار الأيسر للكنيسة.

«لستُ مرتبطة بظروفي/ قوة ذراعي وصوتي/ ليست مرتبطة بمشاعري...»

أعضاء فرقة الإنشاد المؤمنات يحاولن لملمة صوت الجماعة المنفلت تدريجياً، وإعطاءه نسقاً معيّناً، ولكن أصوات التعب تغطي حتى على صوت الرب:

«آمنت، وسأكون سعيدة!»

رن هاتف إحدى النساء المغمضات أعينهن المحاولات أن يكن أكثر إيماناً:

«نعم مدام... حاضر مدام... حاضر مدام... نعم مدام.»

الترنيمة تعلو أكثر فأكثر:

«لستُ مرتبطة بالظروف...»

Twitter: @ketab_n

وحين أغلقت هاتفها النقال انضمت إلى الترنيمة وهي تفكر بوقت الرجعة إلى البيت، أو ما إذا كانت قد سحبت فيش المكواة من الإبريز:

«سأكون سعيدة!»

لم تشارك فليبينا بالترانيم أبداً. طوال القداس وهي تنظر إلى المنشدات وكأنهن بالدانتيل الأبيض على رؤوسهن قد مُتن، ويؤدّين الترانيم في الجنة. لا يمكن لأي من هؤلاء النساء أن تعرف أمها. لم تكن أمها بينهن. وحسن أنها كذلك...

«أف... اعتقدت أنه لن ينتهي.»

اندفعت لينتا من باب الكنيسة تحت ضغط السأم على صدرها، وكادت أن ترفض بوقاحة إلقاء النقود في سلة التبرعات التي حُملت إلى أمامها، وولجتا الزقاق المقابل لباب الكنيسة الخلفي. حين رأت فليبينا الرجال ذوي العيون السوداء الجائعة ويرتدون بنطالات جينز مكحوتة وسترات ضيقة أمام باب الدكان اعتقدت أنها وصلت إلى بيت دعارة؛ وحين رأت في المدخل الحواسيب المصفوفة والفتيات الفيليبينيات يضعن على آذانهن السماعات وهن يعملن «تشات» اعتقدت أنها جاءت إلى مقهى إنترنت؛ وحين التقطت رائحة السمك المقلي من الداخل اعتقدت أنها جاءت إلى مطعم؛ وحين سمعت أصوات «كراوكي» القادمة من الداخل اعتقدت أنها جاءت إلى ديسكوتيك. كان الدكان المسمّى «لاماستا» كل هذا.

كانت الأسقف الواطئة ومصابيح النيون البيضاء المتسخة، والكراسي البيض البلاستيكية، والأزهار البلاستيكية، هي مجموع ما هناك. الفتيات الفيليبينيات في الداخل مسرّحات الشعر ويرتدين أكثر ألبستهن إثارة، ويضحكن كأنهنّ ثملات؛ مع أنهنّ لم يشربنَ سوى ماء جوز الهند بكؤوس بلاستيكية، ويرقصن على كعوب أحذيتهم المطاطية غير المتوازنة.

Twitter: @ketab_n

«ولكنني قلت لها: افعلي ما تفعلين، وحاولي أن تأخذي جواز سفرك. بنت مخبولة. أين هي الآن؟»

سألت لينتا هذا السؤال بمزيج من الغضب والشفقة، وحين ردت بنفسها بعد أن رأت شفقة أعمق في وجه أستر:

«في بعبدا أليس كذلك؟ آه! ولكنني قلت لها.»

حين وجدت فليبينا أن حديثهما طال كثيراً وسط صراخ النساء اللواتي يغنين وهن ينظرن إلى كلمات أغنية تظهر على شاشة كبيرة معلقة على الجدار، التفتت إلى لينتا، فأمسكت لينتا بيد فليبينا:

«أين جواز سفرك؟ عند سيدتك؟ احذري! دعيه معك. إذا حدث شيء فيما بعد...»

أمسكت أستر بيد لينتا هذه المرّة:

«لا تخيفي البنت! لا تهتمي أنتِ!»

سألت فليبينا: «ما هي بعبدا؟» فردت عليها أستر: «لا تهتمي!» وحاولت الانشغال بالكراوكي. انحنت لينتا إلى أذن فليبينا:

«السجن. فيه نساء فيليبينيات. أين جوازك؟»

لكي لا تظهر فليبينا غبية قالت: «معي»، وفكرت بسرعة في المكان الذي من الممكن أن تكون قد أقفلت السيدة زينب على جواز سفرها فيه وهي تنظر إلى الفتيات اللواتي يرقصن أمامها.

«انظري يا حبيبتي، إذا احتجت لباساً ما احذري أن تذهبي إلى «عقيل أخوان». لا تهتمي بأن الجميع يذهبون إلى هناك، ولكن أفضل بضاعة لدى سالي.»

أشارت لينتا إلى اللوحة المكتوب عليها «سالي في الأعلى» ورُسم عليها عشرات الأسهم المزركشة:

«إذا وقعت بمشكلة أخبريني أولاً، ثم سالي، وإذا لم تجديها، مرلان.»

Twitter: @ketab_n

أشارت إلى فتاة بعيدة تلبس بلوزة لها دانتيل وعلى عينيها عدسات لونها بنفسجي:

«تلك هي مرلان. وسالي تفتح بسطة هنا أيام الأحد، وخلال أيام الأسبوع تعمل لدى آل الحريري. ومرلان تعمل في بيت وزير من حزب الله. وإذا اشتهيت حلويات فيليبينية مثل «شوباف» أو «كوتشنتا»، أو حتى إذا اشتهيتِ «سابين سابين» فهناك إلى الأمام قليلاً يوجد دكان ناتاشا. إنتاج مانيلا، اشتري من هناك.»

سحبت فليبينا عقلها من جواز السفر والخزانة والمفتاح، وبدأ يسجل الأسماء التي أعطتها إياها لينتا بسرعة.

«هل ترين اللواتي هناك؟»

أشارت إلى ثلاث نساء شابات يرتدين ألبسة ضيقة تكشف الصدر كثيراً:

«الجميع يعتقد أنهم يخبّصن، ولكنهنّ فتيات طيّبات. إذا لم تجديني يمكنك أن ترافقيهن. إذا كنت تلعبين الكرة الطائرة العبيها أيام الأحد، أفضل من المجيء إلى هنا. ينظم دوري بين فرق البنات، وتختارين فريقك حسب الحي الذي تعملين فيه. سيارات الخدمة تنطلق من الشارع الكائن خلف الكنيسة. مع أنك...»

بدأت تضحك لنفسها:

«منذ فترة كانت تتدرب «غيما» وحدها على الإرسال بخيالها فطُردت من العمل بحجة أنها تحدث ضجة... المهم... شعار هؤلاء مضحك جداً: «أخدم الصداقة والوحدة» أي أنهن لا يتركن الخدمة. حتى أيام الأحد... ها، ها ها... انظري إليّ!»

أمسكت لينتا فليبينا من كتفيها من أجل أن تلفت عينيها اللتين تحاولان تسجيل الوجوه والأسماء والأحداث نحوها، وتابعت رغم معرفتها أنها بالغت إلى أقصى الحدود بجديتها:

Twitter: @ketab_n

«المنشدات وغيرهن. . . أوضاع الجميع هنا متشابهة. تُعتبر محظوظة جداً من لم تُنكح أو تُضرب. «سيدتي تحبني كثيراً!» هُراء. احذري أن تنسي. أنت تعملين. بعض السيدات يطلبن منك أن تناديهن: «ماما». احذري! انتبهي، واحذري! أنت تعملين هنا، وستعودين إلى الوطن! . . فهمت؟»

توقفت. كانت تقطّع الكلمات كأنها لحم نيئ بين أسنانها، وتمتد رقبتها متشنجة إلى طرف:

«انظري إليّ يا بنت. نحن ذنب هذا البلد المشترك. وهنا لا أحد يتذكر ذنوبه، ولكن أحداً لا ينسى ثأره الذي سيأخذه. لأنهم. . .»

نظرت لينتا إلى فليبينا وكأنها وضعت حقائبها على الأرض قبل أن تغادر مقطورة القطار الأخيرة من المحطة وقد تهدّل كتفاها.

«لينتا، أنت في أي مدرسة درستِ؟»

«لماذا حبيبتي؟»

«أنت ذكية جداً.»

«لا ضرورة للذهاب إلى المدرسة من أجل تعلم هذا يا حبيبتي. أنت أيضاً ستتعلمين. أو لعلك. . .»

حين بقيت الفتاتان هكذا، ولينتا تضع يديها على كتفي فليبينا، وتنظران إحداهما إلى الأخرى، كان صراخ الفتيات في الخلف يعلو أكثر.

"I'll survive! I'll survive!"

كان الرجال ذوو السترات الضيقة يتفرجون عليهن وهم يمررون مشارب النراجيل على شفاههم. المصابيح التي يضع عليها الذباب أقذاره يتوسخ ضوؤها أكثر فأكثر. لم تكن فليبينا تعرف أين يمكن أن يكون جواز سفرها.

Twitter: @ketab_n

«هيا، روّحي عن نفسك قليلاً الآن!»

دفعتها لينتا إلى وسط المجموعة التي ترقص فيها إستر وبقية الفتيات وهن يصرخن، ويتصببن عرقاً.

بألبستها البيضاء تغدو فليبينا أكثر نضارة، وفليبينا أكثر فأكثر. أغمضت عينيها، وحاولت أن تستمع للموسيقى.

«لا أرتبط بالظروف.. I'll survive! /سأبقى حية! سأكون سعيدة! I'll survive! /سأبقى حية!»

لا، السيدة زينب امرأة طيبة. ماذا ستفعل بالجواز؟ لماذا أعطيتها إياه؟ «تضيعينه، ليبق هنا مؤمّناً أكثر!» ولكن أين؟

«لا ارتبط بمشاعري... I'll survive!»

كلما فتحت عينيها ترى قطرات اللُّعاب تطول أكثر عند مشارب النارجيلة. إذا نظرت إلى نفسها تكره سذاجة تنورتها البيضاء وتسليمها جواز السفر. وحمرة شفاه لينتا البوردو تمتزج مع حمرة شفاه أخريات. تطول المعكرونة على الطاولة أكثر فأكثر. إذا أغمضت عينيها تفكر باحتمال أن لا تكون أمها ميتة، وتراها تضع على رأسها قبعة دانتيل أبيض وتتلو الترانيم، وإذا لم تستطع رؤيتها تبدأ بالبكاء. هل تمسح لها لينتا دموعها، أم تمسح خديها بحمرة الشفاه التي علقت بيدها؟ وإذا فتحت عينيها تملأهما الأسماك المقلية، وأولئك النساء اللواتي يحاولن تأسيس عالم جديد من ضحكاتهن لأن عالمهن قد انهار، واللواتي يغططن ويخرجن على أحذية مطاطية بين الكراسي البلاستيكية، والأطباق. إذا أغمضت عينيها يدور رأسها، وتتذكر كلمات جدتها وهي تموت: «لا تذهبي إلى بيروت، أمك لم ترجع، أنت أيضاً ستضيعين!». إذا فتحت عينيها...

«فليبينا!»

Twitter: @ketab_n

تمسكت فليبينا بالحقيبة التي على كتفها بقوة أكثر. حين سمعت حفيف الورق، مر على خدها كف دافئ. امتدت يد مروان كأنها تعرف ما يدور وراء عينيها. عبرت فليبينا بين الفتيات اللواتي يصرخن: «I'll survive!» خرج مروان أمامها. كانت يداه في جيبيه، وكلاهما مطرقان برأسيهما. لم يكن مروان ناوياً أن يقول لها إنه بحث عنها في الأمكنة التي تتواجد فيها الفيليبينيات كلها.

Twitter: @ketab_n

٨

لا السماء أمطرت، ولا باريس قُصفت. ما رأياه، وما حدث قبل قليل، يفرض على كل منهما أن يكون على علم بالآخر، ولكنهما يستطيعان الحركة كل بمفرده وهما صامتان. لجأا إلى المكتبة. لأنهما...

«سحقاً!»

لم تدرك دنيز تماماً. كانت المشاهد على عشرات الشاشات تتكاثر في واجهة الدكان. رجالٌ يصبّون إسمنتاً مسلّحاً أمام باب ضخم، بعدها وجه رجل شارد بالتعب شاخ من الهمّ بشاربين أبيضين وعينين وصل غضبهما إلى أقصى مداه، ثم الباب الضخم ذاته، والرجال الذين يصبون الإسمنت المسلح أنفسهم...

«ما هذا؟ ماذا يحدث؟»

«بغداد! بغداد تصبّ إسمنتاً مسلحاً على قلبها.»

حاولت دنيز فهم المشاهد التي لا تسمع الصوت المرفق معها.

كان هذا الخبر يُقدم وراء الزجاج:

«... تُغلق الأبواب. يُصبّ أسمنتٌ مسلّحٌ على أبواب المتحف الوطني العراقي في بغداد. وقد صرح مدير المتحف دوني جورج الذي يبذل جهوداً مضنية في سبيل إنقاذ الآثار من النهب منذ الاحتلال عام

Twitter: @ketab_n

٢٠٠٣ أنه لم يبق أمامه غير هذا الحل. بعد إغلاق الأبواب بالإسمنت المسلح سيغادر جورج مع عائلته إلى دمشق.

ويؤكد جورج أن المسؤولين القادمين إلى المتحف لا يهتمون سوى بالآثار الإسلامية، وقد نبّه العالم لموضوع النهب، ولكنه لم يستطع عمل شيء...»

يتسلل إلى الجهة الأخرى من الواجهة مشهدٌ لم يتمكن عقل دنيز من إعطائه معنى. بحرة... أسماك... مقعد جلست عليه في حديقة القديس جيمس قبل ركوبها قطار باريس... عيون أسماك غاضبة وجائعة... عيون أناسٍ بعيدين تظهرُ على الشاشة، وماء بحرة عكر يقطر قطرة قطرة إلى عقلها الآن. أناس لن يُشبعوا غضبهم حتى لو أشبعوا بطونهم. عيون فقط تظهر وسط حالة ضبابية. لعلها لا تظهر إلا لدنيز لأنها تشبه عينيها. ولعلها غاضبة منها لأنها ليست داخل الشاشة، وهي في الخارج...

«لهذا السبب يُغطّى الشرق الأوسط. يستخدم النقاب لحماية مكانته، وليس لحماية بتروله أو نقوده. مثل الأولاد...»

لم يكن زياد ينظر إلى الشاشات بل إلى الزجاج، إلى انعكاس وجهه الذي يظهر متقطعاً مع مرور المشاهد بسرعة، ولعله لا ينظر حتى إليه، بل يتكلم وهو ينظر إلى لاشيء. وكأنه يكرر كلمات يسمعها من مكان ما:

«يضحي بأولاده لمن وعدوه بإعادة مكانته له. رأيت طفلاً يبكي أمام بيته المدمر بالقصف في أفغانستان. مات أبواه، وفي يده قرآن محروق. كان يبكي على القرآن. شيء آخر. إنهم ينهبون الههم. ولكن القضية ليس الله. لم تبق لديهم كلمة أخرى لتعبّر عن قلوب الناس. لم يتركوا لهم قلوباً. إنهم ينهبون قلوب الناس. وهؤلاء يغلقون قلوبهم. إنهم ينهبون قصصنا. وكما ينهبون رُقُم آشور مُحطّمين ومتلفين ينهبون

Twitter: @ketab_n

قصصنا بالطريقة ذاتها. بعد ذلك يعيدون لنا حُطام ما تبقّى. «خذوا، ها أنتم!..» ويدخل حطامنا في قائمة الأكثر رواجاً لنيويورك تايمز. إنهم يعيدون لنا حطامنا كما لو أنهم يُقدمّون زجاجاً ملوّناً للهنود الحمر.»

التفت إلى دنيز، ونظر إليها بوجه كأنه لم يضحك ولو مِرة واحدة في حياته:

«هذا ما يجعلني أكتب... لعلني... هذه المرّة... أشرح كما حدث بالضبط، وليس كما يريدون. القسم المنهوب من القصة. هذا ما يهمني. أريد استعادتها من التاريخ. أريد أن أعيد لهم زجاجهم الملون، وأستعيد قصصنا.»

ترددت يد دنيز نحو كتف زياد. انتفض زياد، وأنقذ نفسه. كان الدور على دنيز هذه المرّة بالسير وراء الماشي دون أن ينظر وراءه. دخلا إلى مكتبة. صمتا أمام طاولة العرض نفسها.

لم يكن زياد قابلاً للإمساك به. كأنه أصبح شخصاً آخر الآن.

* * *

«هذا ما أقوله.»

استعجلت دنيز، وهُرعت إلى جانب زياد لكي لا تفوت لحظة «المصالحة» تلك:

«انظري، هذا هو.»

كان زياد يشير إلى كتاب كتبه بالإنكليزية كاتبٌ شرق أوسطي لم يعش في بلده منذ سنوات طويلة:

«انظري، كيف يبدأ؟»

بينما كانت دنيز تبحث عن الجواب الصحيح في الصفحة الأولى كرر زياد بعصبية أخويّة:

«لا، لا... ما هي الكلمة الأولى، انظري إليها.»

«أنا...»

Twitter: @ketab_n

«نعم، «أنا»! انظري، واعرفي كيف تبدأ روايات الشرق الأكثر رواجاً. لا تعذبي نفسك، أنا أخبركِ: أنا! كلها تروي قصة شخص ما. لماذا؟»

لم يكن وجه زياد الذي أثار تفكير دنيز، لأنه بدا أجمل وأكثر إنسانية وقرباً، ينتظر جواباً:

«لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لقص قصصهم للغربيين يا حبيبتي. لماذا؟»

كان قلب دنيز يذوب إزاء هذه المقولات الصغيرة.

«لأن الناس ما عادوا يريدون الاستماع لقصص الناس. أصبح الناس يريدون معرفة سر ما. يريدون اختلاس النظر إليه. ماذا سيحدث في النهاية؟ ما هو سر هذا الرجل؟ حسن، لماذا؟»

كانت دنيز على وشك أن تقبّل زياداً في أي لحظة. وبالعكس، هذه أول مرة ينتظر فيها زياد جواباً. استجمعت دنيز صوتها بصعوبة، وقالت: «لماذا؟»

«لماذا سيكون؟ لأنهم لا يريدون أن يضيعوا في القصص بعد الآن. لأن هذا يذكرهم بمدى فقر حياتهم. ومقدار مسكنتهم في حالة الأمن هذه... وكم جعلتهم الحالة الأمنية جبناء...»

رحِم دنيز آلمها.

لأن زياداً أشار إلى من حوله وهو يتكلم رفع من حوله أعينهم عن الكتب التي ينظرون إليها، ونظروا إليه بضيق وهم يفكرون أنه عربي آخر جُنّ جنونه، ومن المحتمل أن يكونوا عابوه لعدة ثوانٍ. لم يبال:

«لا أؤمن بالله، ولا أحب الشرق الأوسط. إنه في النهاية تاريخ مخبولين! تاريخ مجتمعات فقأت أعين بعضها البعض، وعميت. لا أحد يتذكر ذنبه، ولا أحد ينسى ثأره. إنك لا تستطيعين تفسير الشرق الأوسط بـ«أنا». ولكن لا! يجب أن نكتب قصصنا بلغة تجعل ربات

Twitter: @ketab_n

البيوت الأمريكيات يشترينها من السوبر ماركت. وإلا ماذا؟ وإلا لن يكون لقصتك لن يكون لها وجود. أنيك هكذا قصة!»

قالت دنيز لنفسها: «يا إلهي ما أجمل شتائمه»، وتذكرت كم هي مشتاقة إلى الناس الذين يشتمون هكذا بفم ملآن ومعطين الشتيمة حقها.

أعاد زياد الكتاب الذي بيده إلى مكانه وكأنه يرميه.

قال مثل قائد حازم وواثق من حليفه ثقة تامة: «لنذهب!»

دهشت دنيز من نفسها. استغربت صامتة أنها لم تقل شيئاً رغم وجود أمور كثيرة يمكن أن تقولها لزياد حول ما قاله. سكن ألم رحِمها، وتذكرت جسمها الذي لم يتكلم في أكسفورد. كان زياد بالنسبة إليها قطعةَ أرض انفصلت عن جغرافيا واسعة وداكنة تملكها هي. كأن القطعة بجانب الأرض الأم، وتريد الاندماج معها. لهذا كانت صامتة. صامتة صمت تحت طاولتها في أكسفورد...

سارا كأنهما متحالفان. فجأة تغيّر صوت زياد:

«هل نشتري سندوتشاً، ونجلس في الحديقة؟»

«لنجلس.»

سحبا كرسيين أزرقين ورماديين، وجلسا بجانب البحرة في حديقة لوكسمبورغ، وتناولا سندوتشيهما وهما يتفرجان على الأولاد الذين يحاولون إبحار مراكبهم الشراعية، والمذكّرين آباءهم بأنهم لم يستطيعوا إيصال مراكبهم إلى الشاطئ الثاني. والتهما معاً لقمة إثر أخرى بالتدريج من العصبية إلى الفرح.

«... يعني أنا أقصد... يعني، إذا كان ثمة كتابٌ سيُكتب، يعني يجب أن يُكتب للعالم كله. أليس كذلك يعني؟ لأنه يعني...» وبينما كان زياد يحاول إنهاء عبارته ناهراً لها نهراً، فتحت يديها دنيز، وضحكت:

«ما أكثر استخدامك لكلمة يعني يا زياد!»

Twitter: @ketab_n

قال زياد: «يعني...» ليست مجرد مزاح، بل لأنه لم يعرف ما سيقوله. وشغّل عقله بسرعة وفرح لكي يخرج من حفرة «يعني» تلك:

«نحن أبناء الدول المتخلفة يا حبيبتي نستخدم «يعني» كثيراً لثقتنا من عدم فهم الآخرين لنا.»

ولأنه أعجب بمدخله عن كلمة يعني، تابع:

«كلمة يعني يا حبيبتي جسر يربط بين أبناء الدول النامية. ولو وجدوا بعضهم البعض في لغة أخرى فإنهم يتواصلون فيما بينهم بعجلات «يعني» للإنقاذ...»

في تلك اللحظة رأتها دنيز.

«ما هذه؟»

وضعت أصبعها إلى الأسفل من قوسي الكتف بقليل حيث لا ينبت الشعر. كانت لمستها التجريبية قصيرة إلى حد عدم إثبات التهمة، وطويلة إلى حد نشر ليونة حلوة على وجه زياد.

«شيء يشبه الجرح. أي أنه ليس كذلك بالضبط... ليس له قصة مثيرة.»

أثناء مضغ زياد اللقم ببطء استمتع بالفضول المتراكم على وجه دنيز دون أن يلتفت إليها.

«احك يا هذا.»

«جرح رصاصة يا حبيبتي.»

«أما قلت إنه ليس مثيراً؟»

«وهو كذلك. عندما كنت صغيراً تعلّق عقلي بالرصاص والسلاح والقوة والشجار والضرب... مثل كل صبي بيروتي، لذلك علّقت رصاصة في رقبتي. ويمكن أن تكون حالة نفسية انتقلت إليّ من أمي التي كانت ترفض النزول إلى الملجأ كلما بدأت معركة يا حلوتي. مع الزمن تشكلت هذه الحفرة. حتى إنني نسيتها، ولم تعد عيني تراها.»

Twitter: @ketab_n

رغبت دنيز في تقبيل ذلك المكان مثل كل امرأة ترغب في تقبيل مكان إصابة للرجل.

«أي أنني مثل بيروت حقيقة.»

وضحك من نفسه زياد:

«بعد فترة تعتقدين أن آثار الرصاص على الأبنية موجودة دائماً. يعني مثل الديكور.»

عندما رأى زياد عيني دنيز معلقتين هناك بين قوسي الكتف استمر متمادياً مع ابتسامة وقحة:

«كل امرأة ترغب في تقبيل هذا المكان. لا أشعر به، أي لا جدوى من القبلة.»

مررت دنيز في داخلها كلمة «سحقاً» ببصاق، أما نحو الخارج فلم تصدر سوى صوتَ: «هه» متهكماً. وهكذا بدأت بين الجسدين لعبة فضول انتظار أي منهما سينحلُّ بشهية. وعندما انفصلا في تلك الأمسية لم يتلادلا القُبل.

Twitter: @ketab_n

٩

لم يكن بين أبطال قصتنا من يريد أن يكون كاتبنا هنا في بيروت سوى مروان. لم يكن يعرف كيف سيأخذ فليبينا من حيث أخرجها من لاماستا إلى الكورنيش على شاطئ البحر وهو يتصبب عرقاً ويداه في جيبيه. لو كان هناك كاتب لجعلهما يسيلان كالزيت من الحمرا إلى الكورنيش.

إذا سألها مباشرة: «هل ننزل إلى الكورنيش؟» ولنقل بأنها اقتنعت، بماذا سيحدثها طوال الطريق؟ إذا نجح بأن يقول للفتاة أشياء جميلة، أو استطاع أن يُركّب جملة في مكانها خول اللحظة التي حدث فيها كل شيء قبل قليل... من يعلم كم سيكون هذا جميلاً!

ولكنه لم يكن جميلاً. لأن كاتبنا يعيش حيوات عدة في عمر واحد مثله مثل كل المتعلمين، أما مروان فيعرف أن لديه حياة واحدة، وفرصة واحدة في يومه المحظوظ جداً. لهذا فهو يضع يديه في جيبيه، ويعمل الشيء الوحيد الذي يعرفه جيداً جداً، وهو الحديث عن الأشياء التي يعرفها فقط لأنه يدرك أن عدوه اللدود الآن هو الصمت.

«اسمعي، فهذه طريفة جداً. لا أذكر، لعلها حدثت العام الماضي؟»

تناول مروان واحدة من ربطات المعاصم التي يُضم فيها خرزٌ عليه

Twitter: @ketab_n

أدعية مسيحية، ووضعت بينها صورة نصر الله، وعرضها على فليبينا:

«بسبب ربطات المعاصم التافهة هذه انتفضت بيروت. انتفض المسيحيون. «كيف تضعون رأس نصر الله بين خرزنا نحن؟»، «كيف تضعون كلاشنكوف حزب الله؟»... ونهشوا بعضهم البعض...»

أَنهض صوتَه من حيث سقط، وتابع، لأنه ليس لديه حل آخر كما قلنا. وستتبدد هموم فليبينا ومخاوفها بهذا الحديث المعقد، أو على وشك أن تتبدد دون أن تنتبه بعد.

«انظري، ألا ترين هذه اللوحة الشبيهة بإشارة المرور؟... هناك وجه رجل، ألا ترينها؟ في مقهى ويمبي، كان هنا مقهى ويمبي، بينما كان الإسرائيليون يشربون القهوة... أنت تعرفين أن الإسرائيليين احتلوا البلد عام ١٩٨٢ أليس كذلك؟...»

«أعرف.»

إذا كان مروان قد قال لنفسه: «من أين تعرف؟»، فإنه لكز الجملة ليتابع:

«ها هي. دخل شابّ عندما كان الإسرائيليون في الداخل. وحين حاول الإسرائيليون الدفع بالشيكل، قال: «لا أخي، نحن لا نأخذ نقوداً من الضيوف» وطاخ، طاخ، طاخ... أطلق النار عليهم جميعاً. هو أيضاً مات بالطبع... هذا ما حدث.»

استمر يا مروان، استمر، لا تتوقف:

«كانت هنا قديماً كافيه دو باريس. وهذه أيضاً أغلقوها. الآن يذهب المسنون إلى ستار بوكس. يتحدثون بالسياسة وما سياسة. هل نذهب من هنا؟»

اذهب من هنا طبعاً، فهنا ثمة حكاية. اذهب بسرعة، قبل أن يخيّم الصمت:

Twitter: @ketab_n

«انظري، هذا فندق كومودور. كان مهماً جداً في الحرب الأهلية. يعني، لم يعد كذلك الآن. كان الصحفيون يأتون إلى هنا. وحسب ما سمعت فإن الفدائيين... أنت تعرفين الفدائيين، أي مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية... يعني، أرسلوهم إلى تونس عام ١٩٨١... عندما ذهبوا تركوا أسلحتهم. وحسب ما سمعت، قالت صحفيّة أمريكية إنهم دفنوا أسلحتهم في الأرض المجاورة للفندق. لا أدري إن كان هذا صحيحاً. ولأنهم بنوا البناء الجديد على تلك الأرض... يعني لعلها ظهرت أثناء البناء، ولكن أحداً لم يسمع بهذا. انظري إلى هذه، إلى هذه! لا أستطيع أن أشير بيدي لكي لا نقع في بليّة، ألا ترين تلك البرّاكات الشبيهة بعلب الكونسروة؟ هذه نقط تفتيش. بيت الحريري إلى الأمام قليلاً. المكان هنا دائماً هكذا. ينصبون علب كونسروة كهذه بجانب الرؤوس الكبيرة، ويضعون أمامها جنوداً. الآن قُتل الحريري، هل تعرفين؟.. هه، قتلوه عام ٢٠٠٥. يقولون إن سوريا قتلته، ولكن القضية معقدة. هل تعرفين أنني سوري؟ أنا أصلي سوري. ولكنني لست من أولئك... المهم... بعد مقتل الحريري انقسمت بيروت إلى قسمين. ١٤، و٨ آذار... المهم، دعك الآن من هذا، فهذه معقدة. قلت هذا لأن في الأمر طرافة. بعد مقتل الحريري تأجج الكره للسوريين. وكان هناك مَنْ ضُرب...»

لا تُسقط الكلام يا مروان، تابع:

«أنت لا تعرفين، كانت سوريا تحتل لبنان حتى ذلك التاريخ. جماعة ١٤ آذار هم الحريريون والمسيحيون، أي الذين انتفضوا بعد الاغتيال لكي تخرج سوريا. وجماعة ٨ آذار هم أتباع حزب الله، الذين يدعمون سوريا. طرف نظّم تظاهرة في ٨ آذار، وطرف في ١٤ آذار. اسمعي، لقد جلبتْ عجوزٌ من ١٤ آذار فيليبينيتها معها إلى التظاهرة.

Twitter: @ketab_n

وحملت الفيليبينية لافتة كُتب عليها: «تقول المدام: ليخرج السوريون! ها ها ها...»

يا مروان الأحمق! سأعملها في وسط فمك...

«المهم، عندما صار الناس - في الحقيقة جماعة ١٤ آذار - يكرهون السوريين صار باعة الكعك هؤلاء - في الحقيقة إن أغلبهم سوريون - يعلقون صورة الحريري وعلم لبنان على صناديقهم الزجاجية ليقولوا «إننا نحب لبنان». في الحقيقة لكي لا يأكلوا ضرباً. هل تفهمينني؟ في ذلك الوقت صار العلم اللبناني شعبياً هكذا. تستخدم جماعة ١٤ آذار العلم اللبناني كثيراً. أما رأيتِ قطعة الألف الجديدة؟.. يا الله، إنك لم تري السابقة أصلاً... هناك أشياء فينيقية على الجديدة. من قبيل: «نحن لسنا عرباً، بل فينيقيين». وترين العلم على الأغلب في الطرف الشرقي، الطرف المسيحي أكثر من هنا. في الداون تاون. أنت تعرفين الداون تاون، أليس كذلك؟ مركز المدينة. لعلك رأيتِه، حيث يُكتب: «Stop Solidere». سلودير اسم الشركة. هذه أخذت داون تاون، أخرجت الجميع من بيوتهم بالقوة. بالتهديد وما شابه. ثم جعلوها على هذا النحو، مثل المقبرة. لا أحد يذهب. نظيفة جداً. السياح يذهبون إلى هناك. في الحرب الأهلية مُسحت هذه الأبنية بالأرض. هناك فندق القديس جورج، كان أفخم مكان قديماً. أصبح اليوم خاوياً. وهناك هوليدي إن، إنه مثل ناطحة سحاب، ومثقّب كله. سيعيدون الفندق كما كان، ولكنهم لا يفعلون هذا الآن لأنهم لا يعرفون ما إذا كانت ستنشب الحرب أم لا. نشبت هناك قديماً معركة الفنادق. يعني أثناء الحرب الأهلية. وهناك يوجد بناء رصيف مرسى السفن. رغم أنهم يكرهون السوريين كان العمال السوريون أول من مات هناك في الحرب الأهلية.»

Twitter: @ketab_n

كان على وشك أن يصمت حين وصلا إلى كركاس، وكان المخرج إلى البحر قريباً:

«المهم، أثناء الاحتلال الإسرائيلي، يعني سنة ١٩٨٢، هرب الفلسطينيون والناس إلى هنا، لا أعرف لماذا سُمّي هذا المكان كراكاس. المهم، سكن الفلسطينيون هنا. بعد ذلك أخرجوهم إن استطعتم. ولم يعد أصحاب البيوت يستطيعون إخراجهم منها لأنهم سكنوا فيها سنوات طويلة. هكذا أقول لك. هل استمعت إلى فيروز؟»

«لا.»

«لعلها تأتي إلى مهرجان بعلبك في تموز/يوليو. يعني من أين لنا ثمن الدخول، ولكننا يمكن أن نراها من الخارج. استمعتُ إليها مرّة في بيت الدين. يعني صعدنا الجبل، ومن هناك، من الخارج. ولكن هكذا أمتع بكثير، أمتع من الفرجة من الداخل. والله! لابد أن تحبي فيروز في تلك الفترة. أدّت النشيد الشيوعي، والجميع في الجبل أدّوه معها. وأنا أيضاً بالطبع. انظري إلى تلك البراميل، لا، لا، تلك التي داخل البحر. هناك يا روحي، التي يجلس عليها صيادو السمك... شيء مضحك، هذه المدينة خربت دائماً، ولم يحدث لهذه البراميل شيء أبداً. يعني أثناء القصف بقيت البراميل سليمة. لديّ صديق هنا، هل نعرّج عليه؟»

رفع حاجبيه وكأن السؤال ليس مهماً، وانتظر الجواب وقلبه يخفق بقوة.

قالت فليبينا: «لنذهب.»

تلقى مروان الجواب كأنه لم يهتم كثيراً، وأرخى نفسه محافظاً على هدوئه قدر الإمكان، وقال: «حسنٌ، لنذهب إذاً» وكأن فليبينا هي التي طلبت الذهاب.

Twitter: @ketab_n

صعدا ورشة بناء. تبادل مروان مع صديقه ثلاث قبلات. قبّل الخد الأخير ثلاث قبلات متتالية. قال عمال البناء بتهذيب كبير دون أن ينظروا إلى فليبينا: «كنا ذاهبين نحن»... «حبيب، يوجد في البراد عرق»... «والله لم يبق طعام سوى راحة وبسكويت، عدم المؤاخذة»...

يتماوج النايلون المبقّع المشدود على إطارات نوافذ البناء بتأثير الريح مصدراً ضجيجاً قوياً. وفرش الإسفنج الزهرية والخضراء والصفراء تلمع بتأثير الشمس الغاربة كأنها ليست مسكينة. تتبادل ركب مروان وفليبينا النظر وهما جالسان على مجموعة الجلوس والطعام المصنوعة من بلوك مصفوف فوق بعضه البعض. أخيراً صمت مروان. لم يعد بحاجة إلى كاتب.

* * *

رفع مروان أصبعه الإبهام الغليظ الذي لن تخرج منه الخطوط السوداء العريضة مهما غسلها، وأنزله، وغطّه وأخرجه، والبنصر مرفوع وهو يمد الراحة على البسكويت، ويصلحها. كانت أصابعه ملتصقة تحت البسكويت كأصابع فتيات تقديم الأزهار للمذبح في المعابد، لكي لا يكسر البسكويت وهو يضغط الراحة عليه. مع تفسخ طبقة السكر المطحون على الراحة، يندفع من داخلها سائل ناعم، ومع اندفاعه ينتشر القلب اللامع الرطب اللين من السكر المعقود دون أن تمسه اليدان. مروان لا يستعجل أبداً، ويضغط على الراحة بنعومة شديدة حتى تنتشر على سطح البسكويت كله. وكلما ارتفعت أصابعه عن الراحة اللزجة ينظر إلى الوضع الذي اتخذته، ويقرر أين يجب أن يضغط عليها بواسطة ذائقة فمه المتخيلة. سال لُعابه لا لأنه سيأكل سحر أولاد الفقراء هذا الذي يذوب باستمرار. كان يفكر كيف ستنتشر الحلاوة اللزجة على لسان فليبينا وأسنانها، ولثتها حتى نهايتها عندما

Twitter: @ketab_n

يتكسر البسكويت في فمها. تفكيره في لحظة بشعور فليبينا بالطعم المنتقل من يده إلى فمها، وإمكانية حبها ليديه أثناء انتشار الحلاوة في فمها يزيد اللعاب في فمه.

كانت هذه المرة الأولى التي أحبت فيها فليبينا وجهَ مروان الذي يحاول القيام بأشياء جميلة، ويرغب أن يكون رجلاً طيباً، ورموشه ترتجف على أمل حدوث أشياء جميلة. لو أن لعيني مروان يدين لكانتا الآن على خديه. وهكذا تعلمت فليبينا كيف تحب مروان الذي ينتظر أملاً أرقّ من الزجاج لأنه يحاول بث الظرافة في أصابعه الغليظة وهي تعامل البسكويت. ولم يكن الاثنان حينئذ يعرفان هذا.

عندما انتشرت الراحة على البسكويت، وأصبحت رؤوس أصابع مروان بيضاء بطبقة السكر المطحون، وضع مروان قطعة البسكويت الثانية وقدمها لفليبينا. وبتأثير الدهشة الناجمة عن التقاء العيون مص مروان أصبعه بعادة مكتسبة من الطفولة ورسخت في عقله ويديه. خجل بسرعة. ومص مروان أصبعه الأخرى بسرعة عندما انخفض رمشا فليبينا إلى الأسفل مع انتشار طعم الحلاوة في فمها وكأنها تدحرجت في نوم لحظي لذيذ. وعندما كان لساناهما يطاردان السكر الهارب إلى هنا وهناك في فميهما تبادلا نظرة كأن الحياة ليس فيها إلا الأشياء الجميلة. شكر مروان في داخله البسكويت لأنه لم ينكسر. ولم تسخر فليبينا من ضحكة الانتصار على وجه مروان. لأنه لم يكن هناك ما يدعو للسخرية. كان كل شيء جميلاً في لحظة فقط. وبصمت...

«كيف يسير تعلُّم العربية؟ مليح؟»

كان فم فليبينا مغلقاً بقوة وهي تبتسم لكي تضبط قطع البسكويت فيه، لهذا حملقت، وهزت رأسها.

«أنت لماذا تتعلمين العربية؟ يعني صعبة.»

Twitter: @ketab_n

لعله من الأفضل لفليبينا ألا تقول شيئاً أبداً، ويجب ألا تعطي سر حياتها لهذا الرجل ذي الشعر المزيّت مقابل لقمة من قطعتي بسكويت. ولكن مروان في تلك اللحظة بالضبط بدأ يصب عرقاً في مرطبان صغير يُستخدم ككأس موضوع على طاولة من قطع خشب بناء مغطاة بالجرائد، وكانت الشمس تغيب من فوق كتفه. خطرت ببال فليبينا المنشدات... جُنّ جنون البحر كامرأة لم يلمسها أحد منذ سنوات تتوسل الحب غارزة أظافرها في شاطئ بيروت. كان الأبيض داخل أجنحة النوارس الطائرة يعكس ضوء الشمس مثل قطع مرآة تتلقى الضوء من الشمس الغاربة وتري حريق قلبها للحبيب.

لو عرف مروان كل هذا لما انشغل كثيراً بالبحث عما يضحك المرأة بشكل فاشل في صمت الراحة، ولما تكلم وهو يملأ مرطبان فليبينا بالعرق:

«لأعلّمك أنا إذاً. مثلاً... مثلاً... قط! قطة!»

لو عرفت فليبينا أن مروان يفكر برؤيته لها مع القط وعشقه لها لما ترددت كل هذا وهي تفتح حقيبتها. نفضت السكر المطحون المنثور على يديها بتنورتها، وأخرجت الرسائل. حين كانت يداهما على الرسائل، عَبَرَت عقلها لحظة عبور سرب من الطيور فكرة أن يكون هذا الرجل يشبه أباها، وغابت فوراً.

وهكذا قدمت الرسائل التي تؤمن بأنها الدليل الأهم على وجودها في الحياة إلى مروان الذي تثق به ولا تعرفه أبداً. مر الوقت الآن، ولم تعد تخاف. عندما رأتها بيد آخر شعرت كأنها فقدت الكفّ الكبيرة الدافئة التي تغطي خدها، وتتجلى كلما رأت الاسم المكتوب بالأحرف اللاتينية في رأس الرسالة. لم تكن منتبهة إلى أن مروان يتمنى أن تكون له كفّان على هذا النحو:

«ما هذه؟»

Twitter: @ketab_n

لم تتردد فليبينا في توسّل حلم ثمة احتمال أنه باء بالفشل. انسحب الفرح المصطنع من وجه مروان، وغاب. وبطريقة ما عرف أنه يجب أن يتحول إلى رجل يستطيع الوقوف مقابل قلب امرأة.

حين قرأ الجملة الأولى، كان قد بدأ منذ فترة يعبث بشاربيه، ويمسك أطرافهما بأسنانه. في الجملة الثانية والثالثة تعلم كيف يجب أن يمسك بالورق، وكان يمسكه بكلتي يديه كما أمسك بالبسكويت. في وسط الرسالة الأولى، رفع عينيه، ونظر إلى فليبينا نظرة كأنها حب طفولته، وحين وصل إلى نهاية الرسالة، قال لنفسه: «لهذا عيناها هكذا إذاً...»، وقد فوّت جملة أو اثنتين، وبشعور الحب الممتزج بالأخوة الدافئة لم ينظر إلى فليبينا كامرأة، بل كامرأة يحبها.

عندما رأى تاريخ الرسائل... ١٧ تموز ١٩٨٢، آب ١٩٨٢...

كان عقله يصب حالة رعب انتبه إليها:

«هذا يعني... والدك... يعني، رسالته الأخيرة...»

كانت رقبتاهما تميلان إلى الجهة نفسها، وعيناهما تشيخان بالكدر ذاته. صار مروان يعرف أيضاً بعد فليبينا أن الدكتور حمزة أعطى ابنته الصغيرة وعداً بإبقائها على قيد الحياة، لهذا أرسل «كبّته اللذيذة» إلى ما وراء البحار في آخر لحظة كأنه يعرف ما سيحل به، ولكن هذا الرجل الذي يُسمّي نفسه: «جلداً على عظم» يمكن أن يكون قد مات فيما بعد، أي في مجزرة شاتيلا.

حين انتهى مروان من قراءة الرسائل، وصمت، ونظر، واغرورقت عيناه، سُحب كرسي بلاستيكي أبيض في الأشرفية عند رأس طلعة الجعيتاوي بجانب المستشفى إلى قدام البناء. جلست السيدة زينب على ذلك الكرسي وهي تمسك بركبتيها، وتجمّد وجهها على أشد حالاته العصبية، ثم نظرت إلى ساعتها.

Twitter: @ketab_n

وكأن هذا لا يكفي، فبينما كانت فليبينا التي انتهت فترة إجازتها تنتظر سيارة أجرة مع مروان، وقفت أمامهما سيارة جان:

«إذا كنتما ذاهبين إلى البيت، لأقلكما.»

نظرت فليبينا إلى مروان، ومروان بقي ينظر إلى سيارات الأجرة.

«مروان، هل تعرف السيدة زينب أن هذه البنت معك؟»

كانت نظرة كسكين دامية تذهب وتأتي بينهما. ضغط جان على البنزين، وتابع سيره.

Twitter: @ketab_n

١٠

زياد: بماذا تفكرين الآن؟

دنيز: هل تسأل بجد؟ أي أن الأمر مضحك. كنا نلعب أنا وأختي «بماذا تفكرين الآن؟»

زياد: بماذا كنت تفكرين؟ ولكن لحظة سؤالي لك.

دنيز: والله كنت أفكر لماذا أرسَل همفري بورغات إنغرد بيرغمان من الدار البيضاء.

زياد: جميل جداً.

دنيز: وأنت بماذا كنت تفكر؟

زياد: لا شيء.

دنيز: هكذا إذاً!

ضحكا. لأن كلامهما تحوّل إلى أصوات منذ زمن طويل، وإلى أغصان صوت تتشابك من حولهما. يعرفان أنهما يدوران في الصوت فقط الآن. سارا من بونت سالي إلى بير لاشيز.

زياد: انظري، لقد خطر ببالي دلاس الآن. يا صديقتي، جي آر رجل كالشِعر. كان الجميع في بيروت متعلقين به. في فترة الحرب الأهلية. قُصّت قصص كثيرة تتعلق بدلاس خلال الحرب الأهلية. أحكيها لك ذات يوم.

دنيز: ها ها ها... وعندنا كانت أيام الانقلاب. كانوا يحرقون

Twitter: @ketab_n

الكتب كلها في البيوت. الآن أفهم غرابة الأمر. كان الأولاد يشعرون بأن كل شيء يعيشونه طبيعي...

زياد: وأنا اعتقدتُ أن مغادرتي وادي البقاع طبيعية. كأن القنابل كانت تنزل على العالم كله، والعائلات كلها تهرب من القصف، وتهاجر. لتلك الفترة قصص طريفة جداً، أرويها لك.

روى لها زياد كيف ضرب جده جدته، ثم ضربته أمه، وكيف بدأ الجميع يستنشقون أنوفهم عندما نزلوا إلى القبو إثر القصف. وحكت له دنيز كيف شرب والدها زجاجة عرق، وسكر بعد أن ضربها أول مرة وأطلقا قهقهات أكثر. عبارات «أرويها لك فيما بعد» تكثّر أيام المستقبل. مع كل قصة مؤجلة تتشكل أيامٌ مثل الزبد في المستقبل...

كانت دنيز مستغرقة في القهقهة. مدت يدها إلى بطنها بتأثير الاهتزاز حين كان جسدها مائلاً إلى الخلف، فانتبهت إلى أنها نحُفت. خطر ببالها أن الضحك خفف وزنها. قصا أحدهما للآخر قصصاً أفظع، وضحكا أكثر. سألت دنيز من جديد:

«ما رأيك في قضية بورغات إذاً؟ يعني لماذا ترك المرأة؟»

«هكذا يفعل الرجال. مجرد لباقة.»

«دعك من هذا الآن. لماذا ترك المرأة؟»

وقف زياد أمام بوّابة بير لاشيز:

«أنت لا تعرفين الخوف أليس كذلك؟ لو تعرفينه لكنتِ حكيت.»

صمت.

«تعالي لنرى هؤلاء الموتى.»

صمت.

قالت دنيز مطرقة: «أنا أخاف الضياع. الضياع والزوال...» ولم تُسمع تقريباً. ولم تفكر أن هذه الجملة المحزنة ستفتح الطريق أمام قهقهة في اللحظة نفسها.

Twitter: @ketab_n

«كيف؟ هل أنت مجنونة؟ هل هناك أجمل من الضياع؟ تعالي لكي نضيع!»

وهكذا بدأا يتجولان بين القبور. لم يكن في المقبرة أحد. بدأ مرفقاهما وكتفاهما وحتى أيديهما أحياناً تلامس بعضها البعض بلا قصد.

«ما هذا المكان! مثل الحيّ. إذا أرسلت طرداً إلى بيتي في بيروت بواسطة دي إتش إل، لا يصل، ولكنك هنا تستطيعين طلب البيتزا المجانية، وإذا لم تصل خلال ثلاثين دقيقة... هل نطلب يا ترى؟»

ضحكا من جديد. ضحك زياد أكثر، لأن دنيز الآن تتفرج على وجهه.

«قضية بورغات تلك» قال زياد وعلى وجهه جدية رجل العلِم:

«أنا أسألك يا حضرة الآنسة. طالما أن السيدة بيرغمان تُقَبِّل كثيراً، وتنتهي، لماذا لم تبحث عن الرجل طوال هذه السنين؟ يااا... ما دامت تموت عشقاً لماذا لا تخبر زوجها الأشقر بهذا؟ طبعاً هناك هذا أيضاً: لنقل إن المرأة لم تعرف، لم تستطع أن تفعل هذا، هناك أسباب كثيرة. حسنٌ، لماذا لا تقول في تلك اللحظة: «أنا لن أذهب يا زوجي العزيز. هيا، الله ييسّر لك...»؟»

«زياد، أعتقد أنني بعد قليل سأقبّلك.»

كأن رجلاً آخر خرج من داخل زياد، وذراعاً أخرى بدلاً من ذراعه طوّقت خصر دنيز، وبين أحجار القبور... ضاعا.

تركض حيواناتٌ ومهرجون وأقزامٌ وكلُ مشاعر الفرحِ مع الغرابة من خيمة سيرك لا تعرف أنها في داخلها، وتهرب في الاتجاهات كلها. ويجب أن يكون واحد من الأشياء التي تخرج من قفصها الصدري حصان استعراض مالت غرّته، وتذكّر الجري. كان الحصان يشم هذه

Twitter: @ketab_n

البشرة السمراء باستمرار. يحاول أن يتذكر. كانت تلك رائحة أشياء ما، أشياء كثيرة.

مكانٌ كدكّان عطّار. مخزنُ روائحِ تفوح فيه رائحة القرفة دائماً. رائحة في أكياس خيش صفراء خشنة تَلدغ الأغشية المخاطية، رائحة تبغ مرفقة في الوقت ذاته برائحة تعب، ورائحة بهارات غير معروفة مع رائحة عطر تركه همس النساء مرفقة برائحة همّ في الوقت ذاته أيضاً. . .

ولكن الحصان لا يشبع، ولا يقتنع أنفه، يتمرد، ويستنشق بفضول من أجل إخراج اسم الرائحة من بين ذكرياتها. وتبحث دنيز في عقلها، وبحركة تلوّ وسقوط واهتزاز ولقاء كامل، ووجود أحدهما في حضن الآخر تجد اسم الرائحة.

كانت تفوح من زياد رائحة مكتبة أطفال. ليست رائحة كتب قديمة بل رائحة كتب أطفال قديمة. مثل كتاب صغير جلده أزرق. . . كانت تفوح من زياد بالضبط رائحة كتاب «أطفال شارع الحمام» نسيت في داخله قطعة قِرفة. حين وجدت اسم الرائحة برد مكانٌ في داخلها، وطار الحصان واختفى. وهكذا تدخل من أنفها وفمها، وتبقى في داخلها. وتسجّل في عقلها بوصفها رائحة لا مثيل لها. ويُعالج جرح لا تعرف أين هو من بين فخذيها برطوبة وتدليك لذيذين.

حين انهارت الرقبتان إحداهما على الأخرى، ارتاح نَفَسُ دنيز وضحك، وأخذت تدور في عينيه ألوان أجمل دحل «كسبه»:

«We will always have Paris!»(*)

لم يكن ممازحاً. كانا يضحكان متعرقين ونظيفين تماماً، كأنهما التقيا أخيراً. كانا واقفين هكذا هناك.

(*) «ستكون باريس دائماً لنا» الجملة الأخيرة في المشهد الأخير التي يقولها همفري بورغات لإنغريد برغمان من فيلم «كازا بلانكا/ الدار البيضاء»

Twitter: @ketab_n

طفحت عينا دنيز، وداهم السيل بير لاشيز. وضعت إبهامها على الحفرة/ الجرح الذي يقع تحت قوسي الكتفين بقليل لدى زياد. يملأ طرف أصبعها تلك الحفرة ويضغط عليها وهي تنزل وتصعد رطبة، وتنظر تارة إلى الحفرة وتارة إلى وجه زياد. وبينما كان السيل الذي يملأ عينيها يتدفق بسهولة لم يُر مثلها على خديها، وتبتسم شفتيها كأنهما تتكسران بالشد من كل أطرافهما، تتكلم:

«أنا أجهضت طفلاً.»

كان الذي خرج من بطنها وسال بين فخذيها مهما كان هو خلاص الطفل.

أمسك زياد بالأصبع الذي يُدفن في جرحه، ودفعه، وأنفاس الكلمات تطن في رؤوس أصابع دنيز:

«هذا يعني أنني لن أستطيع تقبيل ذلك الجرح!»

ضحكا، وصمت.

قالت دنيز: «هل نتناول البيتزا؟ لنأكل بيتزا ضخمة. أنا جائعة كثيراً جداً!»

استجمعا نفسيهما كطفلين يريدان اللحاق بلعبة. وقبل أن يتركا باريسهما التي لا تظهر أبداً من تقاطع القبور، أصلح زياد شعر دنيز، وانحنى إلى أذنها:

«أنت تحركين وركك بشكل ظريف جداً أثناء المسير...»

وهكذا تشكل ورك دنيز. ومهما كان حديثهما أثناء خروجهما من بونت سالي فقد كانت دنيز تفكر بوركها وكيف تحركه... وكانت مضحكة مثل فتاة صغيرة عندما تلتفت وتنظر إلى طرف ثوبها الذي يدور، وحين تنظر إليه لا يدور، ولكنها عند النظر إلى حذائها الأحمر المصنوع من الجلد الطري تفرح في كل مرة. وعلى الأقل لم تكن تعرف كيف تنظر إلى نفسها مثل تلك الفتاة...

Twitter: @ketab_n

«انظري إلى هذا!»

كان يشير زياد إلى مسند أحد الكراسي الحمراء والصفراء التي تتشابه في كافتيريات باريس كلها:

«انظري، انظري... اسم الصانع، ومكان الصنع، والتاريخ، ورقم الهاتف إذا أردت... أي إذا لم يعجبك عندما تجلسين اتصلي فوراً: «ألو! السيد لا أدري من صانع الكراسي؟ مؤخرتي لم تُسرّ من كرسيكم أبداً... نعم، نعم... نعم، هكذا بالضبط. نعم؟»...»

ضحكت دنيز كثيراً أثناء إجراء زياد المكالمة الخيالية مع صانع الكراسي، فنظر الجميع إليهما. ولكي يفهم الجميع ما يقوله زياد، تابع بالفرنسية:

«كيف؟ سأعطيك العنوان حالاً، أرجو أن ترسل أحدهم... نعم، رجاء... أشكرك سيدي! ولكن حبيبتي أيضاً...»

حبيبتي؟

«نعم يا سيدي، هي أيضاً لديها رجاء منكم. أرجو من الآن فصاعداً أن تضعوا رقميْ هاتف. لأننا نتصل منذ ساعة وخطكم مشغول دائماً. نحن بالانتظار يا سيدي!»

حبيبتي؟!

حين أغلق زياد الهاتف، لم تفهم دنيز مدى الجد بقوله: «حبيبتي» لأن ذراع النادل الذي جلب البيتزا كانت تغطي نصف وجهها. حين ارتفعت كؤوس «Cotes du Rhone» كان الوقت قد تأخر على السؤال:

«نعم سيدة بيرغمان، كما قلت لك من قبل: We will always have Paris!»

«طالما أننا نتحدث بعبارات الدار البيضاء سيد بوغارت، لأسأل هذا السؤال إذاً: «What about us?»»

«What about us حبيبتي؟ كل ما تريدين؟»

Twitter: @ketab_n

أجابت دنيز دون تفكير مقررة في تلك اللحظة أن تستمع لصوتها ماذا يقول:

«الضياع!»

«تفضلي إذاً. لنضيع!»

وتابع زياد عن الكراسي كأن هذا لم يُحك، وهذا الحوار مجرد حوار طبيعي:

«هذا هو الشرق الأوسط يا حبيبتي: كراسي بلاستيكية، وضوء نيون. ويمكن أن يكون هناك بعض الأزهار البلاستيكية المغبرّة... أنا أريد أن أكتب شعراً عنها. شعر لم يكتبه أحد. لأن هناك...»

أثناء طنين خطاب الشرق الأوسط كانت دنيز قد بدأت تعد الخطط دون إذن زياد أو الحياة. الكتلة المنصهرة في بطنها تتحرك، وتؤسس دنيز عالماً تضيع فيه وحدها اليوم فوراً دون أن تُعلم أحداً بما في ذلك الجبال والبحار والأشجار والسناجب. وتدس بضع الأسئلة التي تلزم من أجل هذه الدنيا بين طيات حديث زياد:

«... مثلاً قضية «Free Hugs»(*) التي رأيناها اليوم في نوتردام... أفكر، يا ترى هل العالم كله منح الغرب الحق في أن يكون طفلاً؟ يعني: «أيها المعلمون أعطونا الحروب، واستمتعوا أنتم!» أو بالعكس تماماً...»

«متى ستذهب إلى بيروت؟»

«بعد ثلاثة أيام... إذا كان العكس تماماً، فهذا يعني أنهم يقولون: «خذوا هذه الألعاب، واقتلوا بعضكم البعض...»»

«أنا أفكر بالذهاب إلى بيروت. كنت أفكر بهذا الأمر من قبل...»

(*) اسم حركة بدأها ناشط أسترالي، وانتشرت في العالم كله. تشجع الحركة على العناق «دون مقابل» لمن يمر في الطريق.

Twitter: @ketab_n

«سيكون هذا جيداً. ولكن ستكون هناك كراسي بلاستيكية ونيون. الشِّعر يغيّر مكانه في الشرق الأوسط يا عزيزتي. بقي الذين ينظرون من الغرب عند الكوفيّة، ولكن القضية باللحى والعمامات. وجوه المؤمنين متشابهة أصلاً. تلك النظرة تكون تحت الكوفية وتحت العمامة أيضاً...»

«هل أذهب معك أنا أيضاً؟»

«ممكن... هل سيقرر الساحق كيف على المسحوق أن يقاوم؟ تأمرون: «لا تقاوم هكذا، بل هكذا!»؟»

«أنا كنت ذاهبة... يعني، في الحقيقة لديّ بطاقة. لبعد غد.»

«بطاقتي لليوم الذي بعده! جميل إذاً، تذهبين، وتنزلين في بيتي، ألحقك بعد ذلك... كما يلفظ الفرنسيون: «Cool!» يا حلوتي، هيا لنشرب! كأس وركك، باريس، بيروت، أي مكان تريدين!»

كل شيء يحدث كأن شيئاً لم يحدث.

لم تسأل دنيز لماذا يتم الأمر بهذه السهولة. لو سألته لما قال زياد لها إنه اتخذ قراراً بأنه سيحب واحدة قبل أن يراها، وأنه بدأ يخاف من الضياع إذا لم يحب، ولا يستطيع البقاء في الحياة إلا متمسكاً بإحداهن. لو لم تؤمن بيروت بأن أشياء جميلة ستحدث لما بقيت واقفة على قدميها. ستغدو بيروت رماداً وتتبعثر لو لم تؤمن بجنونها أنه لن يحدث أي سوء...

في تلك الليلة رأت دنيز صندوقاً خشبياً في غرفة زياد. وفُتح الصندوق، وصُبّت الحصى، وسألت دنيز عن نهايتها ونهاية فليبينا. كانت ليلة طويلة، طويلة جداً.

Twitter: @ketab_n

١١

في ذلك الصيف، أي هذا الصيف، كانت ستغدو بيروت باريس الشرق الأوسط. ستغدو. هذا ما يجب أن يكون ما دامت إيفانا ترومب قادمة مع مستثمرين سعوديين إلى بيروت، وشمّرت عن ساعديها من أجل منتجع إيفانا ترومب. يمكن أن تأتي في أي لحظة. علاوة على ذلك فقد كتبت الجرائد التالي:

«أخذ اللبنانيون نفس راحة بالنتائج الإيجابية لجلسة الحوار الوطني التاسعة للزعماء السياسيين. ويبدو أن صيفاً مضيئاً وهادئاً سيرفع معنويات اللبنانيين ودخلهم.»

الإيجابية الوحيدة لاجتماع الحوار الوطني الذي يعقد دائماً لبحث المواضيع المطروحة، ولا يتم بحثها، هو قرار القادة السياسيين بعدم الحديث بسوء عن بعضهم البعض. ستعرفون بطريقة ما تفاصيل هذا الموضوع. ولكن الأخبار الأجمل هي إعلان تآخي بيروت ولوس أنجلوس دون علم أحد، وعودة فرقة «Bliss Street» التي عزفت في السبعينيات في بار The Father Moustache لفندق نابليون البارحة. شاخ قائد الفرقة غراند، وسَمِنَ. وعندما قيل: «كانت بيروت في السبعينات مثل بيركلي» ثارت شجون بعضنا.

في هذه الأثناء ضربت إسرائيل غزة، وفصل تفجير سامراء في العراق بتاريخ ٢٢ شباط/ فبراير الأحياء مذهبياً، واستمر بناء الجدار

Twitter: @ketab_n

الذي يقضم أراضي الفلسطينيين. قتلت الولايات المتحدة الزرقاوي، والعالم يقول إن وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس مدانة للتزلج على الجليد بجمال ساقيها. كأس العالم يُلعب في ألمانيا، ورونالدو يلعب كالشِعر. إننا ندوخ إعجاباً برونالدو كأنه منا. إنه يلعب «بفن». ولد يُحب خبله كلما ضحك. الناس يشترون أعلام الدول التي يشجعونها بثلاثة دولارات. أرخص من العلم اللبناني. وهل هذا عملٌ يُعمل في دولة تعيش مرحلة تأسيس هويتها الوطنية؟ ولكن رياحَ الحدادِ الوطني هبت على بيروت حين خسرت البرازيل واحداً لصفر أمام فرنسا. ولم يفهم أحد سبب مرور المشجعين الملوحين بالعلم الألماني، وليس بعلم المغلوبة البرازيل أو الغالبة فرنسا مساء. يمكن أن يكون السبب هو تغلب ألمانيا على الأرجنتين أربعة لاثنين. ولابد أن مفجري الألعاب النارية بجوار مستشفى رزق في الأشرفية هم مشجعو ألمانيا. ولأن زيزو لم ينطح اللاعب الإيطالي مازارتي بعد فإن هذا الموضوع لا يُناقش. تحدث أشياء في جنوب لبنان، ولكن لم يُحكَ عنها بعد. ستأتي ديب بروبل إلى مهرجان بعلبك، هناك من يتكلم عن ذلك. وهناك مجموعة من الشباب المهمومين يفكرون منذ البارحة بما يمكن عمله للاحتجاج على قصف غزة. مثل ماذا مثلاً؟ اعتصام في الداون تاون! برأينا فكرة جيدة. لعل الحياة تدب في المقبرة الفخمة.

تقف السيدة زينب على طرف بيروت، على أقصى طرف، لكي تفكر. تجلس على كرسي بلاستيكي أبيض، وتعقد ذراعيها بقوة على الغضب، وفي الحقيقة لم تصبح بعد في وضع يمكنها من معرفة سبب غضبها، وتهز نفسها فقط. تجلس عند مدخل البناء، وتنظر باستمرار إلى ساعتها. تمر الساعة على الثمانية ببطء أشد من تراكم غضبها.

«أنتظرُ هادي أفندي. مرة أخرى مفقود. ومروان غائب عن الساحة.»

Twitter: @ketab_n

تُعيد السيدة زينب هذه العبارة الكاذبة أربع مرات بالشكل نفسه دون تحريك ذراعيها اللتين تشبكهما بقوة في حضنها ولو مليمتراً واحداً. لأنها. . .

ستانيك أول القادمين إلى البناء:

«يأتي بعد قليل. إنه في هذه النواحي. أنا قادمة من طريق الجديدة. . . كان عرضنا هناك اليوم. تعبت كثيراً. وكم كان الجو حاراً! لو تهبّ نسمة. في ذلك اليوم داخ واحد من المهرجين الإيطاليين، أما حكيتُ لك؟ المهرج لا يحتمل هذا الحر! ولكن صحيح ما يُقال: «الحق عالطليان»».

يجب أن تضحك السيدة زينب. لأن هذه عبارة قديمة. تعني «كل ما حل بنا بسبب الطليان». غير كسب الطليان كأس العالم قبل بدء الحرب الأهلية اللبنانية ليس ثمة دليل علمي على مشاركة الطليان قدر البيروتيين. هذا ما يجعلها هزلية أصلاً. كما تعرف السيدة زينب، إذا حدث أمر سيئ في لبنان فمن المؤكد أن هذا عمل أناس في الخارج، وكل الصراعات تنشب بسبب «طرف ثالث مجهول». لهذا السبب يجب أن تضحك السيدة زينب، ولكنها لا تضحك. لأنها لن تسمح بتشتت غضبها الذي تحافظ عليه كتلة واحدة بأشياء يومية تافهة حتى يأتي السيد هادي، ومروان، وفليبينا قبل الجميع.

سيبدو شعر السيدة زينب واقفاً كالقنفذ عندما تعيدت جملتها على عائشة العائدة إلى البيت، وتحرّك ذراعيها.

«بعد قليل يظهران. . . ما أحرّ الجو اليوم. منذ أيام أنوي الذهاب إلى الضاحية، ولم أجرؤ بأي شكل. ها! ست زينب، سمعت أن الخبازين سيضربون. أرسلي الفيليبينية غداً إلى الفرن لتجلب خبزاً احتياطياً. . .»

يكاد شَعر السيدة زينب يهجم على عائشة:

Twitter: @ketab_n

«وهذه مختفية عن الساحة! صارت الساعة ثمانية!»

لم يعد أحد يستطيع سلب غضبها منها. لأن جملة ناصر «لا تشغلي بالك على السيد هادي» صفعتها أيضاً وتدحرجت عن الكرسي البلاستيكي الأبيض:

«هل أدور على السيد هادي؟ المتحف مغلق يوم الأحد. سيأتي أيضاً! ما أحر هذا اليوم. وسوس لي الشيطان اليوم أن أترك السيارة في منتصف الحمرا... يقولون إن الجو سيبرد قليلاً في الأسبوع القادم.»

أخيراً أُعلم جان بكذبة السيد هادي:

«مروان قادم، إنه تحت. والبنت تبعكم أيضاً... هناك من يخرّبنا غير الحر. تارة حر، وتارة برد... يقولون إن الحر سيزداد أكثر في الأسبوع القادم.»

عاشت السيدة زينب عمرها على القيل والقال بوصفه طريقة التخابر الوحيدة مع المدينة حول الحرب والطقس وإضراب الخبازين. لا تستطيع الآن الاهتمام به.

مروان رأى سيارة جان قبل قليل. وفكر أن جان سيخبر السيدة زينب، وغضب لأنه سيخبرها بالتأكيد أنه رآهما، ولكن مروان وفليبينا سينفصلان في أول الشارع قبل الدخول إلى الحي، وسيؤجل غضبه إلى ما بعد، إلى سريره. عليه الآن أن يَعِدَ فليبينا. النساء يُصدقن الوعود. النساء فقط يُصدقن الوعود غالباً:

«سأقرأ الرسائل حتى يوم الأحد القادم. بعد ذلك نذهب إلى بيروتي أنا، إلى الضاحية... هناك شاتيلا الحالية!..»

إثر لفظة شاتيلا أخذ نفساً طويلاً:

«ثم نجلس في مكان في الضاحية...»

ضحك مروان برخاوة لا يريدها، مثل متسوّل. ولملم نفسه بسرعة

Twitter: @ketab_n

مثل الأولاد المتسوّلين الذين يقطعون ضحكتهم عندما لا يقبضون النقود:

«اذهبي أنت الآن. أنا قادم خلفك.»

أمسك مروان بالورق كالذين لم يمسكوه منذ فترة طويلة، كأنه نسي كيف يحافظ عليه دون جعلكة. ذهبت فليبينا وراحت تصعد الطلعة ببطء شديد. هل يأتي الأحد المقبل؟ لو يأتي الأحد المقبل دون أن يحدث شيء...

رتبت السيدة زينب جلستها على كرسيها البلاستيكي كأم ظالمة تربي أولادها على الشعور بالذنب. ظهر شعر فليبينا، ثم رأسها، فبلوزتها البيضاء، وأخيراً تنورتها من قسم طلعة الجعيتاوي من الكرة الأرضية:

قالت: «الساعة ثمانية وثلث» ورسم حاجباها تحت جملتها خطَ حقدٍ عميق.

«مساء الخير مدام.»

قالت السيدة زينب متكبرة: «ولكن يا بنتي، نحن لم نقل هذا، أليس كذلك؟»

الفيلة، لينتا، «الديّ فيليبينيتان»، المنشدات، أمها، «سأكون سعيدة»، «I'll survive» البحر، النوارس، مروان، وأكثر شيء العرق، ارتفعت من بطنها نحو الأعلى، وخرجت بهذه الكلمات:

«ست زينب، أين جواز سفري؟»

«جواز سفر ماذا؟» الكرسي البلاستيكي يهتز الآن. هل يُعمل هذا مع عجوز؟

«جواز سفري. أين وضعتِه يا ترى؟»

«بماذا يلزمك الجواز؟»

تعبت فجأة فليبينا. كُسرت خيول هجوم لم يُخطط له جيداً،

Twitter: @ketab_n

والتف على شعرها، وانهارت عيناها، وسقطتا ميتتين موتاً أفظع من موت الجنود.

«ثم إن السيد هادي مفقود.»

«السيد هادي ليس هنا من البارحة ست زينب. ألست منتبهة؟»

فتحت السيدة زينب ذراعيها أخيراً: «مروان ليس موجوداً!» وسقطتا إلى الجانبين، كأوفيليا تماماً. صعدت فليبينا الدرج الآن متكبرة ومهزومة مثل زيزو الذي نطح مازارتي رغم أن الحادثة لم تقع بعد، والسيدة زينب من ورائها بالروماتيزم كأنها كسانتشو بانتشو. السيدة زينب خلف فليبينا وهي تتكلم بالعربية وتنظر إليها مثل ثور أصيب واقتلعت أظافره ثم أُطلق إلى الحلبة. بعد صعود السيدة زينب أربعة طوابق قالت ملكة الحكاية الشريرة في النهاية:

«كيف يسير تعلّم العربية؟»

قالت فليبينا: «جيد» مثل الأميرة المنتصرة في نهاية الحكاية.

مر قط مروان الشيعي من جانبهما نازلاً إلى الأسفل كأنه يناكف.

قالت السيدة زينب الملكة المنتهية صلاحيتها بعد الحكاية: «قولي إذاً... مثلاً ماذا يعني قط بالعربية؟»

قالت فليبينا الأميرة السائمة من الحكاية: «قط!»

بعد غضب صامت يتردد صداه على البلاط، ويرن في بيت الدرج، جلس شعر السيدة زينب الأسود على عرشه بأحدّ سيف من سيوفه:

«أين مروان؟! احكي، أين مروان؟!»

لم تقل فليبينا شيئاً بسرعة. دخلت غرفتها بسرعة. ونامت بسرعة. جُنّ جنون السيدة زينب، يجب أن تجد جواز السفر بسرعة، ويجب أن ترى مروان فوراً، ترى هل تدخل غرفتها ليلاً بالسكين... وتدحرجت في كابوس.

Twitter: @ketab_n

كانت السيدة زينب تُصعِّد كوابيسها في الطلعة في الليلة نفسها.

هل تضاجعا يا ترى؟ ماذا لو حبلت البنت؟ إذا حبلت، ستذهب فوراً إلى الوكالة! لن تعذب نفسها معها! لن تعذب نفسها أبداً! نعم! إنه يتجلى أمام عينيها: هل عند مروان في الأسفل، أم هنا؟! لا يمكن أن يحدث هنا، كيف يحدث؟

تتجلى أمام عينيها مضاجعة الفقراء، على السوائل، وفوق الأرائك. لا يمكن أن يحدث هنا، كيف سيكون يا روحي!

مسكينة فليبينا، لا تعرف كم تشمئز المرأة النائمة في الغرفة المجاورة الآن منها. كما لا تعرف أن السوريين فقط يقولون قطاً. سيكون الجواب الصحيح: «بسينة» ولكنها لو عرفت الجواب الصحيح لما قالت لها السيدة زينب صباح اليوم التالي «صباح الخير» بفرح غير محدود وطمأنينة وكأن السيد هادي ليس مفقوداً، ولم تحدث أحداث البارحة مساءً، واقترحت عليها الخروج معها، لأنها ستفهم أن أموراً سيئة حدثت.

* * *

تشنج القسم الأمامي من عضلات رجلي فليبينا لأن السيدة زينب مضطرة للمشي ببطء شديد في النزلة التي تبدأ عند مستشفى الجعيتاوي، وتنحدر بشدة من أمام بنائهم وصولاً إلى النصب الذي يحيي فيه بشير الجميل شجرة الأرز رمز لبنان تحية نازية. لم تتكلم، وابتسامة الشك المرسومة على شفتي السيدة زينب تعرض أكثر فأكثر. كل سبع عشرة أو ثماني عشرة خطوة تلتفت نحو فليبينا، وتنظر نظرة حب خطيرة، وقالت لها ثلاث مرات على الأقل:

«قلت لنمش إلى الجميزة. حتى لا نتعذب بسيارات الأجرة الآن. لو كان ناصر موجوداً لأوصلنا، لم أحسب أنه سيخرج اليوم باكراً...»

رجلا فليبينا ترتجفان مثل أي فيليبينية أو سيرلانكية أو أثيوبية ترعى

Twitter: @ketab_n

المسنين في بيروت، لأنها تقصر ساقيها وخطواتها. مع الزمن تقصر خطواتها نهائياً. مثل الآلات التي تشغّل بشكل خاطئ دائماً. . .

لأن فليبينا تنظر إلى قدمي السيدة زينب لم تستطيع النظر في ما حولها. لكي لا تغضب، ولأن جواز سفرها معها. كانت تنظر دائماً إلى قدميها لأنها تشعر شعوراً غريباً بأنها لن تستطيع استرجاع جواز سفرها إذا ما سقطت السيدة زينب.

«هه، ها قد وصلنا.»

وقفتا، ورفعت فليبينا رأسها ورقبتها التي آلمتها من النظر إلى أسفل أول مرة.

«الباس بودكيان الموحّد.»

كانت السيدة زينب سعيدة لأنها ستعيد فليبينا فتاة نظيفة. فم فليبينا مفتوح. فمها مفتوح وتنظر إلى نموذج «الفيليبينية» المرتدية بزّة تحت اللوحة. تلبس بزة، وفوقها صدرية لها كَشكَش. تقف شابكة يديها تحت بطنها. ليس لديها رقبة، مُطرقة برأسها. ليس لها وجه أيضاً. لديها رجلان ضخمتان. حذاؤها الأسود وجوربها القصير يجعلانها غريبة كالأطفال. شعرها مفروق من الوسط، ومعقوص من الخلف. كأنهم ضربوها كثيراً قبل أن يلتقطوا صورتها. كأنها لم تعد تعرف اسمها. تقف كأنها واحدة «من الفيليبينيتين اللتين عندها»، وبالتأكيد ثمة فيلة في بلدها.

بعد ذلك، صارا في الداخل فجأة. بِزّات زهرية وخضراء وبيضاء وزرقاء. حدث هذا بسرعة كبرى. السيدة زينب تعرف أن فليبينا تحب اللون الأبيض أكثر من الألوان كلها. ألا تعرف الأمهات؟ الأمهات تعفو أليس كذلك؟ وناسبتها أيضاً. «صرتِ كالممرضات، هكذا أفضل.» أي أن فليبينا لم تعد تشبه الخادمة. «ما أجمل هذا!!» لا تعرف هذا السيدة زينب، ولكنها تقول فجأة ما تقوله كل «مدام»، لأن طريق العقل واحد.

Twitter: @ketab_n

«هكذا لا تتسخ ألبستك.»

فليبينا أيضاً لا تعرف هذا. بعد فترة، تعيد الفيليبينيات الجملة نفسها كأنها خاصة بهن، مثل ما يعدن الأدعية والأغنيات بين الكنيسة ولامستا.

حين خرجتا من الدكان، صار هناك كيس يضرب ركبة فليبينا، طب، طب، طب... تتناهى إلى أنفها رائحة زغب قماش طازج. أين جواز سفرها؟

قالت السيدة زينب: «لنجلس في باول، نرتاح قليلاً.» وصارا في تلك اللحظة في كافيه باول.

«واحد قهوة وسط لو سمحت!»

«لدينا قهوة إكسبريس مدام، لا توجد قهوة تركية.»

«مليح، مليح. هات منها. فليبينا، اشربي شراباً مثلجاً على الأقل.»

كان الشراب المثلّج يكبر أمام فليبينا إلى درجة أنها لا تستطيع التغلب عليه. لن تستطيع التغلب على الشراب المثلّج، ستصبح على وشك الاختناق وهي تبتلعه. نظفت السيدة زينب كل شيء، وهي مسرورة. أليست مسرورة؟ ستمازحها:

«يُلبّسون النادلين هذه القبعات شبيهة الطاقيات، لهذا يصبحون عصبيّي المزاج هكذا.»

مزاحها هذه المرة لم يعجبها أيضاً. نعم، ستعودان بسيارة أجرة. كل شيء سيكون أفضل. سيكون يا روحي!

عند المساء كانت فليبينا على الدرج في مدخل البناء وبجانبها كيس زبالة، وتلبس البزة، ولا تستطيع البكاء. أين مروان؟ رأتها عائشة عندما رجعت من الخضري. فهمت أن لديها همّاً. ولكنها لا تعرف أبداً كيف

Twitter: @ketab_n

تحكي مع الفيليبينيات. ليس بسبب الإنكليزية، ولكن هل يحكى معهن؟ تصعد إلى البيت.

تراها ستانيك فيما بعد، فتجلس بجانبها.

«انظري، أنا أيضاً أرتدي هذا أثناء العمل»، وركبت أنفها الأحمر. حاولت فليبينا أن تضحك. أشعلت سيجارة، وحكت لها عن الأحداث التي نشبت بعد السخرية من نصر الله في برنامج تلفزيوني منوّع. وقالت لها: «لم يتكلم الزعماء بغير هذا»، وضحكت:

«اسمعي: «لن نتكلم بسوء عن بعضنا البعض!» مثل الأولاد. لو أن عند الشيعة قليلاً من روح الدعابة...»

هذا ما ضايقها.

«لو صار حزب الله أكثر قليلاً، هكذا يعني، لا أدري... منفتحاً. سيُفهم أكثر.»

تحاول، وفمها في مكانه، تحاول الضحك.

مروان لا يأتي، إنه يبحث عن السيد هادي. والأصح أن الجميع يعرف هذا، لكنه يتحدث مع جان. كانا في أسفل الشارع قليلاً. ولكنهما لا يظهران بسبب ميل الدنيا وطلعة الجعيتاوي:

«ماذا تفعل مع تلك الفتاة؟»

«ما علاقتك؟»

«ماذا يعني: ما علاقتك؟»

«أنا أفهم مشكلتك.»

«...»

«لا تتمنيك.»

«إذا كنتُ منيوكاً، فأنت منيوك المخابرات. سأخبر السيدة زينب بهذا. عنك وعن تلك الفيليبينية. سأراك وقتها هل تستطيع أن تنتاك في ورشة البناء؟»

Twitter: @ketab_n

«أقتلك ولاه.»

«لماذا؟ هل تعشق الفتاة؟»

«قلت لك أقتلك. اسكت يا انعزالي سافل!»

كلاهما يضعان أيديهما في جيوبهما. مرت عربة مصفحة بجانبهما، في طريقها لتأسيس نقطة تفتيش إلى الأمام قليلاً. ذهب مروان لكي لا يقتل «المنيوك». بكى جان. ولكن انحدار الطلعة... لا أحد يراه.

رمت فليبينا الزبالة بداية، ثم صعدت إلى البيت. نهايات أكمام البزة تُجرّ على الأرض. هل يجب أن تقصّر؟

«آآآآآ! أوووووو!»

زيزو ينطح مازارتي على صدره. تهب الحارة كأنها إيطاليا، ونُطحت. فليبينا تصعد الدرج مثل زيزو. كأنها صارت رماداً. ويُهزم الإيطاليون. انتبهوا!

Twitter: @ketab_n

١٢

«احك معي عربي...»

في غرفة الفندق التف غطاء الفراش وانعقد وتجعلك وصار قطعة واحدة في مكان ما داخل الزمن حين همست دنيز على صدر زياد بهذه العبارة. أرادت أن تسمع لغة الرجل الأم الذي تسمع تنفسه. خلقت هذه العبارة فقاعة وسط المضاجعة، ومع نمو الفقاعة ابتعدت دنيز وغابت. عدّت الكلمات العربية التي تعلّمتها خلال بضعة الأيام الأخيرة بهمس المضاجعة:

«حبيبي... طيب... خلص...»

صمتت قليلاً حين انتهت الكلمات التي تعرفها. ولكنها تريد أن تتكلم بلغة هذا السرير الأم. ولهذا السبب قالت بفكرة غريبة انطلقت من داخلها:

«سبحانك اللهم ويحمدك وتبارك اسمك وتعالى...»

«ماذا تفعلين يا هذه؟!»

بدأت دنيز تضحك:

«ماذا أفعل! عندما لم تتكلم العربية أنت، تكلمت أنا. هذه عربيتي!»

«هل أنت مجنونة يا امرأة؟»

Twitter: @ketab_n

تاها بين أزقة السرير الداخلية وهما يضحكان. سألت دنيز وسط الضحك المتحوّل إلى لُهاث:

«هل هناك حرمان في هذا؟»

«لا أعتقد يا عزيزتي. لم يخطر ببال كتبة الحرام أن يكتبوا شيئاً جنونياً كهذا.»

لف زياد غطاء الفراش على بطنه الضاحك، وقالت دنيز أثناء ذهابه إلى الحمّام:

«مبارك إسقاط الحدث الأكبر حبيبي!»

«حقيقة أنت لا تعرفين شيئاً أبداً، أليس كذلك؟ ماذا يعني مبارك إسقاط الحدث الأكبر؟ ماذا يعني؟!»

التفت عائداً، وأمسك بركبتي دنيز المحنيتين وبدأ يضغط عليهما، فرنّ صوت دنيز:

«ماذا يقال؟»

«والله لا أعتقد أن شيئاً يقال يا حبيبتي. المرأة المسلمة لا تتكلم مثلك أصلاً.»

سار زياد إلى الحمام وهو يحك رأسه. ليس ثمة غرابة في سيره، ولكن ظهره يشبه بجعة سوداء مكسورة الظهر. سأل أثناء انبعاث صوت الماء الرطب من الداخل:

«احكي بجد، ألا تتلقون تعليماً دينياً أبداً أنتم؟ كيف لا تعرفين أي هُراء؟ ومثلما لا تعرفين، الاحترام صفر، والخوف صفر!»

الأغنية التي بدأت تدندن فيها دنيز وهي تتمايل في السرير وتدس أصابعها في شعرها تنساب مع طبطبة الماء... ضجيج ليلة قديمة جداً استدعى ابتسامة ناصعة البياض إلى وجهها:

* * *

Twitter: @ketab_n

«سبحانك!»

«سبحانك!»

«اللهم...»

«اللهم...»

«وبحمدك...»

«وبحمد... ماذا؟»

«حمدك! حمد - ك!»

«جدتي الكبرى، أنا نعست. وبردت قدماي أيضاً.»

«أدخلي قدميك بين فخذي لأرى. مشى الحال؟ حسنٌ. أي! إنهما مثل الثلج، مثل الثلج. هيا لننه الدعاء، وسترين ما سأعلمك بعد ذلك.»

«جدتي الكبرى، هل لله لحية؟»

«هل حفظت الدعاء؟»

«...»

«سأسمعه منك مساء غدٍ.»

«...»

«المهم! هيا، لنبدأ الدرس الجديد.»

«جدتي الكبرى!»

«نعم؟»

«برد أنفي.»

«أدخليه تحت اللحاف. هل أدخلتِه؟ أحسنتِ. الآن اسمعي ما سأعلمك إياه. آه منك يا مفتّحة! كيف صحتِ عندما انتهى فصل الدعاء.»

في تلك اللحظة بالضبط كانت الجدة الكبرى تنثر شعرها المحبوك ناعماً من الخلف على المخدة. من المحتمل أن عيني دنيز كانتا

Twitter: @ketab_n

واسعتين جداً، أي قبل أن يكبر وجهها كل هذا الكبر. ومن المحتمل أن جدتها الكبرى - نُسي اسمها بعد أن مات كل من كان يذكرها باسمها - عند هذه النقطة من الدرس تتذكر عينيها قديماً. بالنتيجة قامت بمهمتها، وعلّمت دنيز الدعاء الأول الذي ينبغي أن تتعلمه. عيناها الآن زرقاوان بشكل عجيب. بما أن العينين الزرقاوين غير موجودتين عند أحد في العائلة غيرها... غدا كل ما حكته حكاية. بسبب عينيها الزرقاوين القادمتين من أرض مجهولة وزمن مجهول.

«يشعل مصباح القصر الأخضر يا فؤادي/ ولا ينتهي صراع قلبي هذا يا فؤادي... رددي وأسمعيني.»

«يشعل المصباح الأخضر...»

«مصباح القصر الأخضر!»

«لا ينتهي الصراع أبداً...»

«صراع قلبي هذا! هيا أعيدها من البداية.»

كانت تغمض الجدة الكبرى عينيها حين تصل إلى لحن الأغنية. كان هذا سر الليلة الهامسة؟ وبسبب هذا السر الهامس لم تنجح بالخوف من الله، ولم تستطع أن تكون امرأة لا تقطع المضاجعة بالمزاح. فكرت بأن تحكي هذا لزياد ذات يوم، وابتسمت.

لعلها تحكي له هذا ذات يوم. من أجل الضحك. في أحد الأيام التي خبأها للمستقبل...

بقيت تعانق زياداً، وتستنشق الرائحة التي تذكّر بشخصه مطولاً، ونامت حتى موعد الذهاب إلى المطار. على أي حال كان لديهما وقت طويل للحديث بكل شيء، وقص كل القصص.... رأت حلماً جميلاً، كانت تحمل اسم زهرة في كفها خلال الحلم...

* * *

Twitter: @ketab_n

«لا تركبي السيارات الواقفة عند باب المطار عندما تخرجين. انزلي إلى الأسفل قليلاً. هناك يخوزقونك. اعرضي عشرين دولاراً، ولا تدفعي أكثر.»

ينتظر زياد. إنهما في المطار. القهوة أمامهما. قهوة دنيز لم تُشرب، وبردت من الانتظار. لأن دنيز تنظر إلى الهاتف بعد أن مشت قليلاً، و تكلمت فيه، ثم أغلقته.

«ستقولين لسائق التكسي... لا يوجد عناوين في بيروت، تعرفين هذا. لذلك ستدلينه. انتظري لأكتب لك ما ستقولينه له...»

«زياد...»

«تجدينه، تجدينه. لا تشغلي بالك. ما هو أسوأ احتمال؟ تذهبين إلى فندق. سأكون غداً مساء هناك.»

«زياد، أنا قبل قليل... يعني على الهاتف، تركت طونتش.»

كأن عبارة كهذه لها إجابة عند الرجل، تركت دنيز وجهها لوجه زياد مثل يدين سقطتا مفتوحتين في حضنها.

«بسببي أنا...»

العبارة التي حاول بناءها زياد، انعطفت فجأة كسيارة على طريق مزدحم كادت أن تقتل الناس! وأطلقت دنيز الزمور، وبعد كثير من الهمهمات هدأت دركسيونات السيارات كلها، وهدأا أيضاً:

«مبروك يا روحي!»

رغم كل روائح النساء التي انهالت على رأس زياد دُهش من نفسه كيف أخرج بورغات وقال: «مبروك يا روحي!» وأطلقها. أراد أن يتوّج هذا المشهد الحالم فجأة:

«يعني... كيف تشعرين بنفسك؟»

«والله... لا أشعر بشيء أبداً.»

Twitter: @ketab_n

«يعني... هل أنت على ما يرام؟ جيدة يعني؟ وإلا، يعني...»

قالت دنيز: «زياد، اخرج! مرة أخرى سقطتَ في «يعني». اخرج من هناك يا حبيبي!» ودهشت من نفسها، وضحكت من لامبالاتها، ومن عدم تألمها نهائياً، ومن شعورها الغريب بالقوة، وقولها لرجل آخر فوراً «حبيبي».

حوّل زياد وجهه للسخرية قائلاً: «يعني لا، إذا كنت ستبكين فيما بعد...»

«انظر إليّ يا زياد أفندي، ليس إلى هذا الحد! إذا قلت إنني لا أشعر بشي، فليس إلى هذا الحد. احترم الحالة، أنا تركت حبيبي.»

ضحكت دنيز من جديد. هل صارت فتاة ظالمة؟ هل كانت هكذا؟ ثم لم تهتم. إذا كانت قصة ورجل ومدينة تجعل منها شخصية أخرى فمن هي إذا لم تستطع إخراج شخصية لا تجرؤ على البوح لها بمن هي!..

صمتا قليلاً. تلفتت دنيز في ما حولها. ونظر زياد إلى الطرف الآخر. إذا فكر بمدى خوفه، سيخاف أكثر، لذلك لم يفكر. حين قالت له دنيز: «انظر، انظر!» نظر لعل ما سينظر إليه يخرجه من حفرة هذه الطاولة بسرعة.

«إلى هناك!»

بدأ الناس يتجمعون بجانب جدار وسط مطار شارل ديغول. نساء محجبات وملتفات بالملاءات في المؤخرة، ورجال بالجلابيات والطاقيات في المقدمة. تزايدوا تدريجياً. اجتمعوا عند الجدار بصمت كأنهم يُنادون. فُتح السجاد على الأرض. بحركة موحدة كأن شيئاً ينتقل من يد إلى يد دون أن يُسقط إلى الأرض، يستمر، ويتكامل، وعندما انعقدت الأيدي على البطون من أجل الصلاة غطى الجمع صمت سميك كأنه غطاء غير مرئي. القادمون المارون، يقفون ولا يمرون،

Twitter: @ketab_n

والجالسون على المقاعد يتفرجون، يديرون رؤوسهم بصمت. الناظرون إلى المجموعة المؤلفة من ستين شخصاً تقريباً وتؤدي الصلاة يحاولون ألا يتبادلوا النظر في ما بينهم، ولكي يهربوا من «عدم اللباقة» يدفنون رؤوسهم بأشياء أمامهم كالحقائب أو الكتب أو الجرائد المطوية بصمت.

«هناك أمر ما في هذه القضية يا زياد. شيء أبعد من الدين. شيء أبعد بكثير من الظاهر! هناك شيء يتعلق بالإنسان. ما هو؟»

فكر زياد بإمكانية أن يحب هذه المرأة لأنها تركت رجلاً من أجله قبل قليل، وأنه لا ضرورة للخوف، وإمكانية أن يحبها كثيراً. وهكذا نظر إليها بحب مهموم. أليس هذا هو الحب أصلاً؟ السير جنباً إلى جنب، وعرض أحدهما على الآخر بعض الأشياء؟ إذا كانت هاتان العينان ستستمعان لكل قصة هكذا، ويدفعهما الفضول لمعرفة ما سيقوله...

قال: «بسبب هذه الابتسامة»، وتَرَكَ الفضول يتخمر داخل دنيز مثل خميرة الخبز، لكي تطلب تتمة الكابوس والقصة:

«الابتسامة؟»

«اسأليهم عن هذا. ستتلقين ابتسامة كجواب. ابتسامة تسامح. تشبه ابتسامة نبيل رداً على تصرفٍ غير لائق لشخص من طبقة أدنى. وابتسامة أخرى عندما يبدؤون بالشرح أن كل شيء يتعلق فيكِ، وأنك أنت التي تبالغين... حينئذ تؤسس من جديد تلك القبة المقدسة. هكذا يقفون منتصبين. وابتسامة... ما لن يتخلوا عنه إذا ضغط عليه سادة العالم كلهم ليس الله، بل تلك الابتسامة. إذا لامس فم الإنسان طعم تلك الابتسامة مرة... يبتسمون، لأن لديهم إجابة. إنهم يحاولون سلبهم هذه الابتسامة التي كسبوها بدمهم، ويدافعون عنها بأسلحتهم. ماذا سيعطونهم مقابلها؟ ديمقراطية؟ سيعطونهم مقابلها

Twitter: @ketab_n

أسئلة فقط. وهم يعرفون هذا، لذلك لا يتركون جوابهم. تلك الابتسامة... هناك أناس كثيرون يموتون في سبيل تلك الابتسامة.»

حين يقول زياد أشياءً كهذه، ليس ثرثرة، بل من صوته المركّز، تبقى دنيز دون أذرع، ودون فم، تبقى عيناً فقط. هكذا هي الآن. وهكذا يُعجن العشق. قليل من الصوت، وقليل من الرائحة، ثم قليل من الصمت أيضاً، وقليل من الرائحة أكثر... بالنسبة إلى دنيز يتخمر العشق بسرعة وينتفخ مثل الخبز داخل الإنسان.

انتهت الصلاة. بدأ الناس يقفون بالدور من أجل طائرة دنيز. كأن دنيز قالت شيئاً ما، فرد عليها زياد:

«كما قلت... أصلاً أنا قادم غداً مساء.»

حاولا أن يضحكا. كتب تعريف الطريق على ورقة بسرعة. حدثت عدة محاولات ضحك هزيلة. قال زياد: «قولي لأرى!» وجعلها تكرر تعريف العنوان. وحين جعلها تعيده عدة مرات لتقرّبه أكثر من العربية، ولم تستطع قوله دنيز، قالت:

«اذهب أنت، صار الأمر هنا غريباً.»

قال زياد: «هكذا هي المطارات. لا يعرف الناس أين ينفصلون. لو كانت حافلة أو سفينة مثلاً، يلوّح الناس بأيديهم. ولكن بما أننا سنجلس هكذا متقابلين، ولا يلوّح أحدنا للآخر...»

قالت دنيز: «نعم» من أجل أن تختصر الوضع الذي غدا أغرب.

ذهب زياد، بطريقة غريبة. فجأة. كانت دنيز تعتقد أنه لن يذهب، ولكنه ذهب.

كأنها سحبت بعض الأشياء من بطنها، وأخرجتها. بداية انحنى جسمها، واحدَوْدب. لأن بطنها كان فارغاً. هكذا شعرت بالشوق وغياب زياد. سحبت أحشاءها، وكأنه لم يبق شيء في قفصها الصدري وبطنها، وحتى أمعائها. أرادت أن تلتفت لتستردّ أحشاءها، ولكي

Twitter: @ketab_n

تستطيع الوقوف منتصبة، لكي تستطيع السير. بقيت الجرائد والمجلات في يدها كأكثر الأشياء خواء من المعنى. كانت تريد أن تنظر إلى داخل بطنها فقط، إلى الفراغ هناك. حين تنغرز السكين باللحم يبدو للإنسان اللحمُ لحماً أول مرة، وتعرف أن حياة وعالماً في بطنها حين غادر زياد المطار.

كانت ذاهبة وحدها إلى قلب قصة بدأا معاً بتخيلها، وهذه باردة.

عاد زياد إلى الفندق. لم يعرف ماذا سيعمل. ليس ذهاب دنيز، بل الرحيل جعله لا يسمع صوته، وملأ الصمت كل شيء. يعرف من تجارب عديدة أن التلفزيون اخترع من أجل حالات كهذه، لكي يملأ الصمت الخطير على نفس الإنسان بصخبٍ آمن. فتح التلفزيون. لم يكن في حالة تمكنه من الاستماع إلى الأخبار. حين تذكر ماذا سيحدث في تلك الليلة فرح مثل طفل ضاع في الزحام، ثم رأى أمه فجأة.

حين بدأت تصدر من غرفته أصوات: «آآآ، أوووه!» نهض على قدميه، وسفح البيرة التي بيده على الأرض. كان فرحاً إلى حد أنه بدأ يصرخ:

«أمش يا عربي! يا سبعي أنا!»

نطح زيزو مازارتي بقوة على صدره.

Twitter: @ketab_n

١٣

لا تحتمل هذه القصة إلى الأحد القادم. لهذا فإن مروان وفليبينا ينتظران الأحد دون سبب. يا ليت قصص بيروت تحتمل إلى الأحد. لو أن كل شيء لا يقصر عمره مثلما يدوخ الصعتر بتأثير الحر حينما يضعه الخضري في الصناديق.

هكذا ستكون الدنيا أيضاً في النهاية. على الأقل نحن نعرف هذا. «بيروت ستكون العالم ذات يوم». لعل الكاتب أيضاً يعرف إلى حد ما أن قدر العالم بيروت، ولن يكون هناك عندما يقص قصته...

سيكون الناس دائماً كالبيروتيين بانقسامهم على آلهتهم، ثم بانقسامهم على آلهة أصغر. وحين تنقسم الآلهة إلى حدٍ كافٍ، ويُنسى أن الرصاص ليس من عند الآلهة، لن تبقى سوى قصص مقطّعة ومجزّأة. وسيُجذب الناس بالقصص.

بيروت مكان/ لا مكان سيغدو العالم مثله. نحن نستطيع رؤية ما يحدث من بيروت. بيروت ليست مكاناً، بل صراعاً ينام ويفيق بين الناس ونقاشاً لا ينقطع. هكذا سيغدو العالم ذات يوم. سيتكلم الجميع مثلنا بخليط لغوي. وسينسون أي لغة من هذا الخليط لغتهم.

بيروت هي الهمُّ المطلق بين حربين، وهكذا سيكون العالم تماماً، انتظاراً بين قنبلتين... لأن الحرب عندما تندلع يكون السلام مجرد انتظار للحرب القادمة. مكان/ لا مكان يكون فيه الجميع لا أحد،

Twitter: @ketab_n

وتُستخدم الآلهة من أجل أن تبصق دماً في أفواه الناس، ويستخدم الناس رصاص بعضهم بعضاً. عند انتهاء الصخب، تبقى مجرد حرب نائمة. زحام يتخيل نفسه، ومنذ لحظة إفلات طرف الخيال يقفز إلى حلم آخر. قرار بيروت بحبِ أحد أو حبِ نفسها يأتي إلى اليد كالحليب المقطوع قبل أن يدرّ. نحن هكذا نرى بيروت من هذا الطرف، ستسيطر على العالم ذات يوم.

لأن العالم سيرغب دائماً في أن يكون بيروت. ستكون أحياؤه كأحياء بيروت من آلهة وقصص ملفّقة عن الآلهة... والناس سيصبحون بيروتيين في النهاية، يضيعون في قصصهم، ويبحثون لأنفسهم عن قصص لكي يضيعوا فيها... لا يؤمنون بذاكرتهم الخاصة بل بقصصهم... ولن يبقى من الأسئلة سوى الأجوبة. وسيبقى أناس لديهم أجوبة فقط. هذه هي قاعدة الصراع، ينتصر من كان غضبه أكبر.

مروان ينتظر الأحد رغم معرفته بكل هذا، ويدفن نفسه برسائل الدكتور حمزة وشاربيه. سيجارة وراء أخرى! لم يجد المقابل الإنكليزي لبعض الكلمات العربية، وتضايق، وفرح، وتخيل ما يمكن أن يقع لفليبينا في الضاحية من أشياء مضحكة، وأثناء ذلك يقفز على الجمل. لأنه لا يعرف بعد بلباس فليبينا الموحد، ودون معرفته بأنه يجب أن ينتبه قال: «واخ!» من الفرح، ورمى قطه الشيعي في الهواء وأغضبه أحياناً. ولم يؤمن بأنه يُمسك بقلب امرأة، أو بالقصة التي وقع فيها، دون أن يكون هناك أحد يقول له: «واخ». هل يصعد إلى البناء الذي هو قيد الإنشاء مقابلهم؟ انتظر، الرسالة الأخرى.

لم يكن منتبهاً أنه أحب القصة أكثر من فليبينا. مثلما أحب كاتبنا امرأة في باريس لأنه يؤمن بالقصص التي يرويها. ولكن القصص التي سنضيع فيها شيء نادر الحدوث، يفكر أن الجميع سيقعون في الحب في تلك القصص. ولعلكم تقعون أنتم أيضاً...

Twitter: @ketab_n

ولكن رغم هذا سيقع مروان أكثر من الجميع. ينجرف في القصة، ويقع متعباً، ولا يصعد إلى البناء قيد الإنشاء. مع أن فليبينا كانت على الشرفة. ببزّتها... حتى إنها تدخّن سيجارة، وتبصق كدراً بالقطران. الزمن يتدفق بطريقة مختلفة مع المرأة، بسرعة ظالمة. مروان لا يعرف ما يتركه الرجال ليلاً، ويستردونه، وأي مياه ستتجاوز أي جبال في داخلهم من أجل أن يحيوا الآخرين في الزمن الواقعي.

إنه رجل محظوظ! حين رأى فليبينا صباحاً في مدخل البناء تحمل أكياس شجرة الخبز، لم يكن يعلم من أي عذاب خرجت «صباح الخير» تلك، ولا يعلم بالكيس الذي بيد فليبينا الأخرى، ولا يعلم بقراراتها أو جنونها... لا علم له بشيء أبداً. ما أنحس مروان هذا!

«صباح الخير، ما هذه البزة؟»

مروان يضحك. ألصقت فليبينا أكياس الخبز على صدر مروان:

«خذه هذه، وعلقها على شجرة الخبز، أو في المكان الذي تريد. وبعد ذلك...»

كم تشبه أمها!

«بعد ذلك خذني إلى الضاحية أو إلى حيث ستأخذني. لنذهب اليوم. اليوم!»

الآن وقت أن يكون الدكتور حمزة. يعني... غالباً.

علّق مروان أكياس الخبز وهو ينظر إلى خلفه، وفليبينا تتلفت يميناً ويساراً. كأنما سيُقبض عليها. الخبز يغدو هُراء بيده، ومع غدوه هراء لا يعلق بالأغصان.

«استعجل، ستأتي الشرطة الآن.»

«أي شرطة؟»

«السيد هادي. اتصلت الست زينب بالشرطة أخيراً. سيأتون. يا الله! أسرع!»

Twitter: @ketab_n

«ماذا يوجد في هذا الكيس؟»

لم تسمع فليبينا. نظرت إلى الأعلى. جان في الأعلى. حين تعلقت رقبتها هناك، رأى مروان جانَ أيضاً. ترك الخبز:

«هيا لنذهب.»

لأن جان كان يضحك. بيده سيجارة، ومن خلفه حديث امرأة بالفرنسية:

«ما هذا؟ لماذا يعلق الرجل الأكياس على الشجرة؟»

لم يرفع جان عينيه عن مروان، وهو يسند مرفقيه إلى إطار النافذة، ويضحك، وهذه ليست إشارة جيدة. يمد سيجارته نحو المرأة، بشهية، وسوء أكبر.

هربت فليبينا من النظرات الجنائية لا لعدم معرفتها العربية، بل لأن حالة تبادل الرصاص بالنظرات الصامتة بين رجلين نادراً ما تراها النساء، لعدم صدور أي صوت. مثل ذلك الصمت الصادر عن القرية التي قصفتها إسرائيل في جنوب لبنان في تلك الأثناء... ماذا سيحدث إذا انطلق صوت؟ مروان شخص غير مهم، والبيروتيون لا يعرفون اسم تلك القرية أيضاً.

* * *

حين نزل مروان من سيارة الخدمة عند مفرق الطريق قال ضاحكاً:

«إنهم يجابهون إسرائيل، ولكنهم لا ينجحون بحل أزمة المرور. ولكن المرور في الضاحية لا يشبه إسرائيل. هذا جيش غير نظامي! انظري، إنه يهاجم من كل الجهات.»

بينما كان مروان يمسك بيد فليبينا مثل ما يمسك مرفقها أو يدها، ومرفقها من جديد، ويدها مرة أخرى ليقطعها الشارع، نادى شرطي مرور حزب الله الذي يأكل منقوشته على تقاطع الشارع تحت أشعة الشمس. ضحك. ضحك مروان فور نزوله في الضاحية كما تضحك

Twitter: @ketab_n

الفيليبينيات عندما ينزلن إلى الحمرا تاركات وجوههن الخدامة على باب البيوت التي يعملن فيها، ولابسات وجوههن الحقيقية:

«عباس! حبيب، انتبه كُلْ دون أن تشرّا!»

كان عباس يحاول شد بنطاله الواسع، وفي الوقت نفسه يحاول المحافظة على صفّارته، وعدم إسقاط المنقوشة التي يتناولها على الأرض. ولأنه يجادل كل سيارة تمر، تبرد المناقيش، ولم يكن عباس محافظاً على وقاره كشرطة مرور حزب الله الآخرين. وتتحرك وجوه السائقين وأفواههم مع سياراتهم، ويغضبون، ويكلمون هياكلها. وحين يصعب على عباس ضبطهم يتحرك من حيث يقف، ويغلق المساومون والمدركون ما سيخسرونه أفواه هياكل سياراتهم. كانت رِجلُ عباسٍ في مكان ما من البقاع، تحت التراب، ويدير المرور في الضاحية.

«ترين الدولة الحقيقية في شرطة مرورها. فهي لا ترد على أحد... هل أنت جائعة؟»

«يبدو أنني هربت من البيت يا مروان. يعني...»

ما أشبهها بأمها! يا ليت مروان يصبح الآن الدكتور حمزة، كان يمكن أن يشغّلها.

«لنعمل كالتالي الآن إذاً. بداية نأكل شيئاً ما...»

مروان خائف، يجب أن يكسب وقتاً:

«سآخذك الآن لتناول أفضل مناقيش في لبنان كله.»

مكان يضيع فيه الفتاة؟ ولكن كيف؟ لو تدور الدنيا بالعكس الآن. فجأة. لو يصبح كل شيء مختلفاً. وتكون فليبينا عالماً يدور منذ زمن طويل بالعكس، ودون مقدمات. في شعرها صهيل خيل خرجت من الصف قبيل إصدار أمر الهجوم. أما مروان فيجب أن يكسب وقتاً:

«انظري، هل ترين الرسوم الملصقة على الجدار؟ هناك، هناك!»

أشار مروان إلى الأوراق البيض الملصقة على الجدار. عليها كلها

Twitter: @ketab_n

كاريكاتير طفل يضع كوفية ويدير ظهره، في يده اليمنى كلاشنكوف، ويرفع ذراعه إلى الأعلى.

«ما اسم ذلك الرجل يا هذه؟ ناجي لا أدري ماذا... اسم ذلك الولد «حنظلة». إنه فلسطيني. وهو في الحقيقة كاريكاتير. ولكن قديماً، أي أنه في الأصل لم يكن يحمل كلاشنكوفاً. يشاهد كل ما يحدث واضعاً يديه خلف ظهره. هناك كاريكاتيرات كثيرة هكذا. الرجل الذي رسمها مات. ما اسمه يا هذا؟ ناجي لا أدري ماذا... ولكن فيما بعد، أنا أيضاً لا أعرف متى، بدأ البعض يرسمون كلاشنكوفاً بيده. هل فهمت الان؟»

* * *

أشعل ناصر سيجارة أخرى في غرفة مركز الأطفال في شاتيلا الذي أسسه أبو غسان لأنه بعد كل تلك الحروب التي خاضها لم يعد يؤمن بغير الأطفال. ويرسم الأطفال بالطبشور الذي يسرقونه من غرفة الصف دوائر على الأرض في الباحة الضيقة ويلعبون بالقفز، وتمّحي تلك الخطوط مع كثرة النط فيما بعد.

«لا تقلها يا هذا! الوضع سيئ إلى هذا الحد؟»

أراد أبو غسان أن يرفع رأس ناصر المتدلي حتى صدره من الضيق. عينا ناصر رُسمتا بضغط قلم أسود شديد، وسقوط قطرة لون أخضر داكن خطأ من فرشاة تحملها يد شاردة.

«أخي خلص! هل سنترك هؤلاء على هواهم؟ لا تضايق نفسك. إنهم يترددون عليّ. يقولون: «ليس جيداً تخلّفك عن صلاة الجمعة». «لماذا لا تأتي إلى صلاة الجمعة؟» أخيراً، البارحة أيضاً هذا ما حدث. كما قلت لك: «سنأخذ الأولاد إذا لم تذهب إلى صلاة الجمعة». ماذا ستفعل يا حبيب؟ صارت الأسلحة بيدهم. والنقود أيضاً. هذا هو الوضع يعني.»

Twitter: @ketab_n

عدّد الشيوعيان القديمان أسماء المجموعات الدينية والسياسية في المخيم، ثم رتّباها حسب ما لديها من نقود وأسلحة وأعضاء. في الباحة الضيقة من شاتيلا، واحد... اثنان... ثلاثة... قفزوا قفزة إلى الأمام، وأخرى إلى الخلف في دوائر مرسومة بالرصاص والبارود.

قال ناصر: «طبعاً، يريدون أن يكونوا أقوياء فقط. انتظروا كثيراً. نظروا، لا يوجد دولة وما دولة. لم تترك لهم هذه الدنيا الملعونة غير الله.»

«ولكنني أرى يا ناصر... يعني هذا أيضاً عجيب... هل تعرف أمثالنا؟ كما كانوا. ليس لديهم قضية إله، بل قضية ثقة. الثقة ببعضهم البعض. البنات مثلاً يتحجبن، ولكنهن يشبهن رفيقاتنا، يتكلمن مثلهن بحدة. كأنهن...»

«تقول أي إنهن حيث تركنا نحن؟»

«لا أدري، أحياناً هذا ما يخطر ببالي. يضيفون إلى البداية «بسم الله الرحمن الرحيم» فقط. يا الله! الأسلحة هي نفسها.»

«هذا يعني أن نهايتهم ستكون كنهايتنا. يعني... ممكن.»

رفع أبو مجاهد الأطراف المقلوعة من الرسم الملصق على باب خزانة معدنية فضية، وأعاد لصقها. في الرسم الكاريكاتيري حنظلة، عقد يديه وراء ظهره، وينظر إلى الفلسطينيين الذين ينهشون بعضهم البعض:

«ممكن. ويمكن لا. ولكن إذا كانت القضية بالأممية فهؤلاء أكثر منا أممية يا حبيب! ما الذي يخوّفني، هل تعرف يا معلم؟»

تشتّتت القطرة الخضراء المهمومة التي في عين ناصر.

«لا يضحكون أبداً يا ناصر. هذا ما يخيفني.»

كان طرف حنظلة ذاته يُقلع بالطريقة نفسها:

Twitter: @ketab_n

«أفكر بالقائد علي كلما نظرت إليها. وكتيبة الطلاب. ما أجمل أولئك الأولاد يا ناصر! كم كنا نضحك!»

سيفان بشعبتين من الجليد شقا صدريهما، وذابا. ولم يضحك إلا صدراهما وهما ينحنيان إلى قهوتهما، لم يتحركا كثيراً، فقد هزّهما جرح السيف.

«ولكن أولئك النساء سوف يَكُنّ بليّة على رؤوسهم يا حبيب! اسمع، خذها مني، ستقول قال لي! النساء لا يبالين بالله وغيره بعد نقطة معيّنة. يحرقن نَفَسَ الرجل. يطرحن الأسئلة، ولا تعجبهن الأجوبة. وقتها سترى تلك الأسلحة، ومواقف الرجال ذوي الإيمان الفولاذي... خذها مني. هذه القضية تحلها النساء.»

ضحكا، وذاب الجليد، واهتز بطناهما من الضحك.

غادر طرف حنظلة المعدن الفضي مرة أخرى. لم يعد الرسم يريد البقاء هناك. قال ناصر: «ممكن» وضحك أكثر، «من يعلم؟..»

* * *

قال مروان: «نصر الله في الحقيقة رجل طريف» وأشار إلى صوره المتوردة الخدين وهو ملتحٍ يرفع أصبعه ويشير إلى كل مكان في الضاحية. كان يصرخ أكثر بسبب الضجيج والغبار، وتقرّب فليبينا وجهها من وجهه لتسمع بشكل أفضل. لهذا كان يصرخ بشكل أخف أحياناً، لأنه حتى وسط دخان السيارات تتناهى إلى أنفه رائحة عرق طفل ممزوجة برائحة صابون.

«في ذلك اليوم ألقى كلمة. بدأ بتعداد المجموعات في لبنان: الدروز، الروم الأرثوذكس، الأرمن، الموارنة... توقف. بدأ يضحك. «كلها فيها راء يا هذه!» نصر الله يلثغ بالراء! الجميع ضحكوا...»

Twitter: @ketab_n

«مروان!»

برقت عظام حنك مروان. لأن فليبينا لفظت اسمه أول مرة. هذا يعني أنها لم تلفظه طوال هذا الوقت! حين سمع اسمه، نفخ طفل في داخله على فرّارة.

«ماذا حبيبتي؟» وذاب الصوت.

«ماذا سنفعل نحن؟ أي أنا. . .»

نحن؟ مروان الآن وسط الضاحية، سيقطع حيله من الانفعال والخوف وسط الصخب والغبار:

«لا تفكري الآن بهذا. سأجد حلاً! عندما قرأت رسائلك. . .»

أخرج هذه مثل الدكتور حمزة تماماً. كانت هذه جميلة. صارت بطولية. خلعه الشحاطة البلاستيكية ولبسه الحذاء جيداً. مثل بطل. مثل رجل. وضعت فليبينا كيسها تحت أبطها، كأنها جاهزة للذهاب.

«انظري إلى هذه، أي الأبنية الجديدة. كلما أرسلت إيران نقوداً، يرفعون أبنية. إي، إذا كان عند أتباع الحريري سعودية، نحن لدينا إيران. يعني عندما أقول «نحن». . .»

* * *

بما أن ستانيك صفقت باب السيارة قائلة: «يكفي، يعني يكفي!» هذا يعني أن سائق سيارة الأجرة لم يكتفِ بالأجرة، ويجب أن يكون قد طلب خمسة عشر ألف ليرة لبنانية. وحين طال الجدل وسط ورشة البناء في الحر، وأخرجت ستانيك خمسة آلاف وصفعت وجه السائق بها، فهي تسرع لتبتعد عن الغبار والصخب فقط. وبينما كانت تتلفت لتحدد إلى أين تتجه وقعت عينها على الصور الملصوقة على الحواجز المعدنية المحيطة بورشة البناء. ضحكت. في وسط الضاحية، التي يقال في كل خبر عنها «إنها قلعة حزب الله»، أضيف أناس إلى الرسوم

Twitter: @ketab_n

الرقمية التي تعرض حال الضاحية عندما تنتهي. المرأة الشقراء نفسها على كل حاجز من اثنين بتنورتها القصيرة تنزه كلبها. شارع هزلي، يتجول فيه شباب وفتيات يمسكون بأيدي بعضهم البعض، مثل الأوربيين تماماً. ضحكت أكثر ستانيك، وأخيراً، رأت وهي تضحك اللوحة الخضراء والصفراء للمكان الذي تبحث عنه: «المكتب الإعلامي لحزب الله.»

صعدت بشكل حازم إلى الطابق الثاني من البناء المتساقط طلاؤه والملتوي درجه. حين دخلت، استقبلها بهدوء وجدية حزب الله رجلان ببنطالين واسعين رافعين أكمامهما من أجل الصلاة. يلبسان شحاطتين بلاستيكيتين ولكن وجهيهما يوحيان برجاحة العقل:

«تفضلي؟»

«سأقابل الدكتور عبد الله. لدي موعد.»

«انتظري في الداخل قليلاً. . .»

دُفنت ستانيك في واحد من الأرائك الكثيرة المزخرفة المحفورة والمزهرة القماش. ثمة فخامة فات طرازها ولا معنى لها في الغرفة، وعلى الأرض ملصق لنصر الله والخميني معاً. هناك علمان لحزب الله ولبنان على طاولة صغيرة كثيرة الحفر والزخرفة تبدو من الثمانينيات.

«تفضلي، الدكتور عبد الله ينتظرك.»

امرأة ذات وجه ضحوك كأنها تمسك قهقهتها ملتفة بالسواد من رأسها إلى كعبها اصطحبت ستانيك، وأدخلتها. حيّا الدكتور عبد الله الذي يرتدي طقماً أنيقاً ستانيك بوضع يده على صدره. ستانيك تتلعثم كلما تكلمت مع رجال لا يصافحون المرأة. تلعثمت وهي صامتة. لم تعتد بعد على التعارف دون مصافحة. في كل مرة تمر الدقائق الأولى بصمت عبثي متردد. نهض الدكتور عبد الله من مكانه، وجلس مقابلها على أريكة من الجلد الصناعي. في الملصق المعلق وراء رأسه يظهر

Twitter: @ketab_n

نصر الله من وسط الورود. وعندما وصل الشاي الكثير السكر، دخلت ستانيك في الموضوع:

«كما قلت لك، نحن نقوم بهذا العمل منذ فترة طويلة. والآن إذا كان هذا العمل يناسب حزب الله، فقد جئت لأعرف ما الممكن عمله من أجل تقديم عروض مهرجين للأطفال هنا. وفي ذهني أمر آخر أيضاً، ولكن...»

حين قطع الدكتور عبد الله ضحكة ستانيك المترددة التي طالت بابتسامة، لم يبق أمامها إلا أن تُكمل كلامها:

«يعني، في الحقيقة أنا أريد أن أسأل هل أستطيع أن أنتسب إلى الحزب.»

أسند نفسه السيد عبد الله إلى الخلف. ونظر إلى سُبحته وهو يرفع حاجبيه، وصمت طويلاً بشكل طاغٍ:

«أنت تعرفين يا آنسة ستانيك، الانتساب...»

«طبعاً أعرف، ولكن ألا يوجد بعض التسهيلات...»

ابتسم الدكتور عبد الله بمعنى «هذا غير ممكن».

«حسنٌ، ما رأيكم بأمر عرض المهرّجين؟»

السبحة لا تنتهي بأي طريقة:

«طبعاً يجب أن أراجع في هذا الموضوع. أنت تعرفين أن هذه المواضيع...»

بينما كان الحديث يمتد إلى ما لانهاية مع التسبيح، شردت ستانيك بالشقراء حول الأبنية والنساء ذوات الكلاب، وتخيلت كيف يكون عالم «المقاومة». كل هذه الصور لنصر الله، وفي كل مكان. لماذا يحب الناس في الشرق الأوسط صور قادتهم إلى هذه الدرجة؟ لماذا يحملونها حتى في محافظهم؟ وفي أكثر الأمكنة احتراماً... كالحبيبات. إذا لن تكون هناك نساء شقراوات ينزهن كلابهن، فكيف ستكون صورة

Twitter: @ketab_n

الضاحية؟ صور من ستكون هناك غير القادة؟ لأن سبحة الدكتور عبد الله تعرف كل هذا، فقد كانت هادئة وغير متناهية.

* * *

«تعالي انظري، تعالي، سأريك شيئاً. انظري!»

كأن مروان في بحر لا يعرفه غيره، ويعدد للحورية أسماء الأسماك كلها. بدا الدكان الذي يبيع الهدايا الخاصة بحزب الله فقط مثل محل ألعاب للكبار. نسيج يبرق من وبر الليف، ساعات تعزف موسيقى، موازين حرارة يمر من وسطها كلاشنكوف أصفر وأخضر، ومختلف أنواع العقود، وربطات معاصم، وأشياء عليها نصر الله، وأشياء، وأشياء. . . أرادت فليبينا الحاملة كيسها تحت أبطها أن تذهب بين هذه الأشياء لرؤية الكتب. في كل مرة تدرك أنها تمسك الكتب التي لا تفهم لغتها بالعكس، وتحاول فهم ما تشرحه من خلال الصور. وعندما أدركت أخيراً أنها لا تستطيع أن تنظر إلا إلى الأشياء ذات الرسوم، نزلت إلى مجلات الأطفال. كانت تستطيع الفهم من الرسوم. والد طفل في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره يُقتل في عملية تفجير. يذهب الطفل إلى الأخوة الكبار في حزب الله. الطفل يقرأ القرآن. الولد يتعلم. الولد يلبس لباساً من الكاكي فوراً. يحمل الطفل بيده قنبلة. يركض الولد، ويُفجر القنبلة. تخاف فليبينا، وترمي المجلة من يدها. يقول مروان من فوق كتفها نحو أذنها:

«المجلة التي أصدروها بمناسبة عاشوراء للأطفال!»

غضبت فليبينا فجأة:

«ولكن الطفل يموت!»

وأشارت فليبينا لمروان نحو القصة المرسومة. تعلق مروان بشاربيه. كيف سيشرح لها؟

«كيفما كان سيموت الولد في النهاية يا فليبينا. . .»

Twitter: @ketab_n

ازداد غضب فليبينا.

«أعرف أنك لا تفهمين، ولكنك ستفهمين. ستفهمين ذات يوم. لعلك تغضبين مرة أخرى، ولكنك ستفهمين.»

* * *

عندما نزلت عائشة من البناء في الضاحية شدت رؤوس الأكمام التي اشترتها في الصباح الباكر فور فتح الدكاكين من تحت معطفها لأنها متوترة. كلّما تعرّقت، تتوتّر أكثر، وكلما توترت، تتعرق أكثر. لأن الآنسة رنا التي قالت إنها ستنضم إلى القاعدة عشقت أحدهم اليوم. قالت إنها ستتزوج، وتنجب أطفالاً. كأنها لم تكن تعرف؟ أتت إلى الضاحية على لاشيء، وفي حر الله هذا أيضاً. تشد غنيمتها الوحيدة رؤوس الأكمام لتوصلها إلى بداية الأصابع. تفكيرها بجمال دانتيل رؤوس الأكمام يجعلها تتحمل هذا المعطف والحجاب في هذا الحر. البنت المجنونة تعلّق صورة أسامة أيضاً!

«أنزلي صورة هذا الوسخ عن الجدار!»

«ماذا فيها خالة؟ الرجل وسيم!»

«(السافلة تفعل هذا من أجل أن تغضبها أكثر!) هل أنت مجنونة يا بنت؟ أي وسامة؟ الرجل مجرم. قاتل مأجور!»

«دخلك أنت أيضاً! خطيبي أيضاً يحبه.»

«منذ متى صار عندك خطيب آنسة رنا؟»

«أنتِ لا تفهمين بهذا يا خالة.»

لن تبقى جالسة هناك بعد هذه العبارة، وخرجت حتى دون أن تشرب قهوة. لم تستطع أن تقرر من ماذا تغضب أكثر. من قرار رنا المفاجئ بالزواج خلال يوم واحد مثل قرارها بالانضمام إلى القاعدة، أم من ذلك الملصق الجنوني، أم... عدم انضمام رنا إلى القاعدة! سحبت رؤوس الأكمام المتدلية إلى يديها نحو الداخل. لم يعد الناس

Twitter: @ketab_n

يموتون من أجل عالم مختلف، إنهم يموتون من أجل الخلود فقط. لم تعد عائشة تعرف العالم الذي يموتون من أجله، أو العالم الذي يتخيلونه للموت من أجله! سحبت رؤوس الأكمام إلى بداية الأصابع. حسنٌ، بماذا سيؤمن الأولاد الذين سيجلبونهم إلى الحياة؟

* * *

«من هؤلاء؟»

كانت تشير فليبينا إلى صور الشباب المعلّقة في منتصف الشارع على عمود كل عشرة أمتار، وقد شحبت وجوههم تحت الشمس وسط الغبار والضجيج، ويتطلعون إلى الناظرين إليهم. صور بعضهم قديمة جداً، وشعرهم قديم جداً، شعر بعضهم مدهون بالجِل. بعضها صور من أجل التقديم للحبيبة، وبعضها من أجل التسجيل في المدرسة. لعل أياً من هذه الصور لم تُصوّر من أجل التعليق على هذه الأعمدة.

«شهداء حزب الله.»

نظرت فليبينا إلى الصور الممتدة على طول الشارع، ويخبو بريقها ويعلوها الغبار كلما دخلت الشوارع الفرعية. فهمت شيئاً، ولكن ماذا؟ فهمت شيئاً فقط.

«لماذا صور الموتى فقط؟ لماذا يوجد صور موتى بكل هذا العدد هنا؟»

مرت بجانبهما فتاتان محجبتان تلبسان حذاءين بنفسجياً وأحمر وبنطالي جينز ضيقين. ومكتوب على تي شورتيهما بالبَرَق: «I can take it all»، «Give me some more».

«كي لا ينسوا... سحقاً! أليس هذا السيد هادي؟»

* * *

عندما رأى السيدُ هادي الأعلام الإيرانية قال لنفسه: «لعل إيران احتلت هذا المكان». ومثلما كانت أعلام إيطاليا وفرنسا وألمانيا

Twitter: @ketab_n

والبرازيل ترفرف في بيروت الشرقية، فقد اختارت الضاحية أن تشجع إيران في كأس العالم، وهُزمت، ولكن أعلامها لم تُنزل. حسن، من هؤلاء الأولاد المعلّقون على الأعمدة؟ علي؟ هل الآخر علي؟ الذي هناك علي؟ علي! كلهم علي. حين تعلّق السيد هادي بواحد من الأعمدة قائلاً «ابني!» أمسكته شرطة مرور حزب الله، وأجلسته في الظل. حاول السيد هادي أن يشرح لهم. قال: «الأولاد ينادونني، الأولاد ينادونني يا بني!» وكان السيد هادي يتكلم من عالم آخر. رجل عباس آلمته من وادي البقاع. كان يريد أن يقول: «تأخرت كثيراً. حتى من أجل الذين لم يولدوا بعد. طلبوا». ركّبوا السيد هادي في سيارة ليسلموه إلى شرطة بيروت. في واحدة من سيارات الجيب التي أهدتها أمريكا للشرطة اللبنانية... سأل السيد هادي الذين في الجيب: «هل انتهت الحرب؟»... لولا أن فيروز تغني في المسجلة: «أنا وشادي» لكان يستطيع تقدير الزمن بالنظر إلى يديه.

* * *

«المهم، إنهم يأخذون السيد هادي إلى البيت... هل تعرفين، تستطيعين معرفة الانتماء السياسي لكل شخص من سيارته. المرسيدس والفولفو يستخدمهما حزب الله. جماعة أمل يركبون بي إم دبل يو. المخابرات السورية يركبون بيجو ٥٥٤ مثلاً. المخابرات اللبنانية يركبون الرينو بالتأكيد. الدروز يقودون تيوتا ونيسان. انتبهي إلى الدروز، لأنهم لا يعرفون كيف يتوقفون، يقودون كالمجانين.»

«مروان!»

طفل داخل مروان، نفخ على نبتة السونة وطيّرها باتجاه الشمس:

«ماذا حبيبتي؟»

«لنجلس الآن. الرسائل... أنا جائعة.»

«أصلاً وصلنا.»

Twitter: @ketab_n

فتاتان محجبتان خرجتا من دكان صغير تلبسان شحاطتين وتنزلان إلى الأسفل حاملتين مفاتيح تخشخشان بها:

«معلم، هل نأتي بعد ساعة لأخذ المناقيش؟ تكون جاهزة حتى ذلك الوقت، أليس كذلك؟»

«إن شا الله أختي!»

أبو حسين رجل ضخم إلى حد أن الدكان لا يتسع له. وهو أحبُ شخص إلى مروان. وأعز صديق لأبيه. لهذا يجلب فليبينا إليه... سيطلب دعاءه بالخير مع منقوشة، في داخله.

«أوه، مروان!»

وقفت فليبينا إلى جنب، والكيس تحت أبطها. سألت عن الحمّام فوراً. دخلت. سأل أبو حسين: «مَنْ ابنتنا؟» تخرج فليبينا، ولم يكن الكيس بيدها، وعليها كنزة صفراء وبنطال أسود. وركها لم يملأ البنطال. طرف الكنزة إلى أعلى، وطرف إلى أسفل. حين رآها مروان على هذا النحو، تشكّل فراغ خلف بلعومه من العجب:

«ميشيلا! لا، يعني... فليبينا! لعلنا...»

أبو حسين يضحك من خبل مروان، ومروان أيضاً يضحك، ولكن من الدار البيضاء العجيبة التي وقعت على رأسه. مع أن مروان لا يعرف الدار البيضاء. عينا مروان كبيرتان كعيني عملاق إلى حد أنهما تستوعبان الدنيا داخلهما. جلسا إلى الطاولة الوحيدة في الدكان. أخرج مروان الرسائل. بدأت العجّانة تدور بين ذراعي أبو حسين.

كل دورة للعجّانة تتعثر في مكان، ولكنها لا تتوقف. يأتي أبو حسين كل برهة لتفقد قوام العجين، وأثناء ذلك يتفقد بطرف عينه المناقيش التي تنضج متخيلاً طعمها، ويضيف إما قليلاً من الماء أو من الدقيق إلى العجانة. في يدي أبي حسين كيمياء الخبازين، يخلط العجين برؤوس أصابعه دون أن يراه أحد. ثم يقف وراء البسطة. أينما

Twitter: @ketab_n

ذهب يرافق العجين يديه. ويصل إلى كل نقطة من الدكان كأنه سحر مركّز. مثل البركة... العجين يلف صورة ابنه الوحيدة شهيد حزب الله، على حافتها بالضبط، يسيل قليلاً جداً، نحو خده في الصورة. يصل إلى التقويم، وينتشر الزيت على الزمن. ثمة صورتان لابنه الشهيد ونصر الله إحداهما بجانب الأخرى، كلاهما يضحكان، ويصل إليهما العجين. وإلى الثلاجة ذات الواجهة الزجاجية الباقية منذ السبعينيات، ومقابض موقد الغاز الصناعي التي تنشر رائحة معدنية، وإلى غطاء صندوق النقود... وهكذا يتمرغ الحجر والمعدن والموت بالعجين...

لا الموت يبقى، ولا الدم، كل شيء يُغطى بالعجين. هو الذي يدير الضاحية. ليس الموت من يدير العَجَل، بل العجين. شفاء الخبز القديم. الوحيد الذي يعرف هذا الأمر هو أبو حسين، ولا يتكبر، ولا يخبر أحداً. مهما كثرت الجروح في دكان أبي حسين هناك بين يديه عجين يكفي لشفائها كلها. حتى لو صارت الضاحية كلها جرحاً... رائحة العجين النظيف والبارد تلحقه أينما ذهب.

شرح مروان الرسائل واحدة تلو أخرى. فليبينا تبكي. تبكي فليبينا عليها واحدة تلو أخرى، على أمها حسب تسلسل الزمن. وتمسح مخاطها بكنزتها، وتشد خديها إلى ياقتها، ويداها على البنطلون الأسود الذي لبسته كأنه فخذا أمها.

الآن يضع أبو حسين منقوشة دافئة ذاب جبنها أمام فليبينا. ستذهب يداه الآن إلى بطن فليبينا مع العجين، وستلف الضاحية، وبيروت، وحتى رِجل عباس التي تركها في البقاع. سيتحسن كل شيء بعد قليل. ستأكل فليبينا المنقوشة التي تبكي عليها الآن بلقيمات مثل الشهقات، ثم تأكلها بلقم أكبر. بعد ذلك، ستتخذ قرارات أكبر، وستكبر. لأن أبا حسين ساحر الناس الذين يحملون قطع الخبز عن الأرض ويقبلونها،

Twitter: @ketab_n

ويرفعونها إلى الأعلى، أو إلى جنب من أجل ألا تدوسها الأقدام. إنه يُنضج المقدّس بشكل دائم. يعجن العجين بمواجهة الموت، وينتج مرات ومرات أكثر مركّبات سحرية اسمها بركة. تنهي فليبينا منقوشتها، ويتراكم داخلها طيب دافئ، وتنام المنقوشة بداخلها. يد حنونة تطلي داخلها بالعجين، داخلها كله.

أشعل مروان سيجارة، وبعدها سيجارة أخرى. بقي خائفاً حتى سألته فليبينا: «هل يصدر الموز أصواتاً حقيقة؟» بعد ذلك... حين كان أبو حسين يعانق مروان، قال له: «انتبه ها، إذا وقعت في مشكلة - ويشير بعينه نحو فليبينا - نحن هنا». حصل مروان على المسامحة الآن، يسأل أبا حسين: «هل تريد شيئاً؟» أبو حسين لا يريد شيئاً.

ذهبا. يدها بيده في سيارة الخدمة. هما أيضاً ذاهبان إلى البيت مثل كل الناس. إلى بيت. ولكن ليس ثمة أجوبة لدى الجميع، هما فقط لديهما أجوبة. في أيديهما.

Twitter: @ketab_n

النهاية

في الأمكنة المنطقية من العالم، والقصص المنطقية التي تجري فيها، إذا أراد رجل أن يقبّل امرأة يقترب منها، وإذا كانت هناك مدينة ستهدم تتشقق أولاً، وإذا كان ثمة سلاح سيُطلق يُرى أولاً. ولكن هذه ليست مدينة من هذا النوع، وليست قصة كهذه، وليس عشقاً كهذا. يا ليتها كانت كذلك...

لو أن الأمر على هذا النحو لما كان مروان وفليبينا يسيران الآن ببطء شديد مع هبوط المساء صاعدين أقسى طلعة في الأشرفية والتي تمر بحذاء مستشفى الجعيتاوي، ويعرفان ما سيفعلانه. ولكن المهم أن هذه المدينة والحكاية، وهذا العشق، على هذا الشكل. لا داعي لأن يعرف أحدٌ شيئاً. لو أن الحكاية منطقية، وتجري في مدينة منطقية، لكان على مروان وفليبينا أن يعرفا ما سيفعلانه حين أشارت السيدة زينب للشرطة نحوهما أمام السيد هادي وأهالي البناء المجتمعين كلهم بوجهها ذي الملامح التي تظهر عند نشوب حريق في مكان ما...

«أرجوك يا مدام، هذا ليس عملنا. نحن لا نشرف على الفيليبينيات، ولكن إذا تقدمت بشكوى...»

حاول الشرطيون الشباب بأحذيتهم الطويلة أن يشرحوا للسيدة زينب ببطء شديد كما يتكلم الناس مع المسنين بطريقة إفهام الأطفال من أجل تهدئتها.

Twitter: @ketab_n

تقول فليبينا: «ماذا يحدث؟»

كان مروان ممسكاً بذراعها، لأنه لم يعد لديه ما يخاف عليه:

«إهدئي، لا تخافي!»

لم تكن فليبينا خائفة. إنها ترتدي كنزتها الصفراء في حر الصيف، وفي جيب بنطلونها الأسود قصة تعرفها.

«ها هي، انظروا، انظروا! وقد علّقت مروان أيضاً بذراعها!»

وهل يضحي سكان البناء بالسيدة زينب التي أمضوا معها كل هذا العمر من أجل فيليبينية؟... ولماذا؟ حتى إنه ليس لديهم وقت للتفكير في هذا، لأن السيدة زينب تصرخ، وصوتها يتمزق بشكل لم يحدث من قبل. هذا الشارع يسمع صوتها هذا أول مرة. الجميع خجلون، لا أحد ينظر إلى السيدة زينب، ينظرون إلى فليبينا فقط...

«أما أرسلتك إلى دروس اللغة العربية؟ لكي تتسكعي مع مروان؟.. لكي تتسكعي؟»

كانت السيدة زينب تصرخ مندهشة لأنها لا تجد جملة أخرى، ومستغربة من مكان صدور صوتها بهذه الجملة، وشاعرة بالاشمئزاز، ولكنها تستمر بالصراخ خوفاً من حدوث ما لا تُحمد عقباه إذا أفلتت درجة الصوت هذه:

«أين بزّتك؟ أين بزّتك؟»

مروان صامت الآن. ينتظر بصمت حادثة تبادل إطلاق النار بالكلمات بين المرأتين كما يفعل الرجال في أوقات كهذه. فليبينا، تخطو خطوة إلى الأمام، وتملص ذراعها من مروان. لديها في هذه الدنيا كنزة صفراء وبنطلون أسود، وتتعرق:

«أين جواز سفري؟!»

«جواز سفر ماذا أيضاً؟.. أقول لكم ستهرب، امسكوها!»

ازداد خجل الجميع الآن. لأن الشرطة لن تعذب نفسها مع هذه

Twitter: @ketab_n

العجوز الشمطاء، سيتركون السيد هادي، ويذهبون. ليذهبوا، وبهذا تبقى السيدة زينب وحيدة مع صوتها. وبقيت. لهذا السبب فهي مضطرة لنقل صوتها إلى قلعتها، إلى بيتها. وتبدأ بالصعود إلى البناء. وتستند إلى البناء:

«جواز سفر! أقول لكم ستهرب! لعلها سرقت نقودي. لعلها...»

تبادل ناصر وعائشة النظر في ما بينهما. لم يبق غير ناصر ليمسك بذارع السيدة زينب. عائشة متوترة. سرقة نقود؟ لا يجوز كل هذا! والصراخ للشرطة، امسكوها... نهض كتفا ناصر بإشارة استفهام إلى الأعلى: هل يترك المرأة العجوز الآن؟ ينظر إلى مروان كأنه يعتذر منه، والسيدة زينب تصعد إلى الأعلى.

شعر السيدة زينب المتصب كالشوك يصرخ بقوة أشد:

«جاءت حديثاً. فوق هذا تستيقظ متأخرة. نعم، تستيقظ متأخرة!»

عيناها تبحثان في مكان ما عن عين، عن وجه يتبنى صوتها. الوجوه كلها مطرقة نحو الدرج، ما عدا جان. يصعدون كلهم إلى الأعلى. فليبينا تصرخ:

«أين جواز سفري؟»

«أنت أين بزتك، بزتك؟ كم دفعتُ ثمنها، هل تعرفين؟»

تنظر السيدة زينب إلى ستانيك، كأمل أخير:

«اشتريتها بيضاء أيضاً. ومن أفضل الأنواع. كالممرضات!»

ستانيك تعض على شفتها، ووسام يمسك بذراعها. هل اتفق الجميع ضد السيدة زينب؟ هل الجميع ناكرون للجميل؟ صوت السيد زينب مثل أظافر تخدش الخشب يدخل نفوس الجميع:

«الناس يضربون الفيليبينيات، ويحبسونهن في البيوت، ويقصون شعورهن. هل فعلتُ أنا شيئاً من هذا؟ هل فعلت؟ ها هم الجميع هنا، احكي!»

Twitter: @ketab_n

فليبينا تستوحش أكثر كلما صعدت طابقاً، لهذا لم تسأل مرة أخرى عن جواز سفرها، صارت تتكلم:

«أعطني جواز سفري! أعطني جواز سفري يا ست زينب!»

إلى أين يجب أن يذهب مروان؟ لنقل إنهما أخذا جواز سفرها. إلى أين سيأخذ الفتاة؟ لم يعد يستطيع البقاء هنا. هل يوجد معه نقود؟ يوجد القليل. ولكن إلى أين؟ ينظر إلى ناصر. اعتقد ناصر أن هذا كله كان سيحدث صباحاً عند تعليق الخبز.

يغمز بعينه بمعنى: «لا تهتم!» ينظر مروان إلى الخلف بمعنى: «هذا أمر لا يمكن ألا تهتم به». ينظر ناصر: «هل الوضع جدي إلى هذا الحد؟» ينظر مروان: «نعم يا معلم. عليك أن تساعدني.» ينظر ناصر بمعنى: «حسنٌ» لم تعد يده تترك السيدة زينب، ولكنها لا تمسكها بقوة كما كانت.

السيد هادي يمشي وراء الجميع كشبح. مَنْ هذه المرأة التي تصرخ، وينظر إليها. ليست خارج ذاكرته، ولكنه لا يعرفها. جان يمسك بذراعه. في الحقيقة إن السيد هادي يصعد الدرج وحده. جان يريد أن يرى المشهد كاملاً فقط، لهذا بقي آخر الجميع.

عائشة تعرف الوجه الذي على وجه فليبينا. هذا وجه تخلى عن حالته، وجه رأته من قبل. في تلك اللحظة تتحول فليبينا إلى امرأة، امرأة تعرفها، أو نساء. رأته من قبل بكثير، وجه يحب لأنه لم يبق لديه ما يخسره، وخائف، ورفيق للناس. أرخت حجابها، وانقبض قلبها على نحو مؤلم.

«معناها «أعطيني جواز سفري». سأرميك في السجن يا بنت! هناك تأخذين جوازك الغالي. لا أدري وقتها أين ستضاجعين مروان!»

كاد مروان يفتح فمه، ولكنه سمع صوت ضحكة فلتت خلفه. . . رأى جان ممسكاً بذراع السيد هادي، ومطرقاً بوجهه إلى الأرض،

Twitter: @ketab_n

ويضحك. نظرة مروان بمعنى: «أقتلك يا منيوك!» سقطت على الدرجة، وضحكة جان بمعنى: «انتظر أنت، سترى ما سيحدث!» سقطت على درجة أخرى.

قال مروان: «ست زينب...» وبعدها فراغ. نظر الجميع إليه. يخرج صوته مقطعاً. وليته لم يكن كذلك:

«عيب هكذا!»

«أنت لا تحكِ أبداً يا مروان... لو فكرت بهذا عندما خدعت هذه العاهرة.»

الخيوط تنقطع. كما تنقطع خيوط الدمى، كما تفلت حبال السفن لحظة إنزالها إلى البحر، كما تُقطع خيوط بالونات الهالوجين، كما تُقطع قُطب الجروح التي شُفيت... هكذا يمكن لصوت مروان أن يخرج، لأن خيوطه انقطعت:

«لُمّي لسانك ست زينب!»

«هكذا إذاً مروان أفندي، هكذا إذاً!»

لماذا يصعدون جميعاً الدرج؟ لأن السيدة زينب ستعطي فليبينا جواز سفرها. في النهاية هي السيدة زينب! لن تمسك جواز السفر عن المسكينة بعد أن أسمعتها كل هذا الكلام. لا يا عزيزي، ليس إلى هذا الحد! لهذا يصعد الجميع الدرج. الجميع يصعدون الدرج هكذا.

«صعب أن تأخذوا مني جواز السفر هكذا! هيا لأرى.»

يقفون الآن أمام الباب. يلج السيد هادي باب الطابق الأخير كأن شيئاً لم يحدث، وكأنه كان بمهمة مؤقتة في عالم الأشباح، ونفذها وعاد. دخل إلى الصالون، فتح التلفزيون، وجلس.

«لا يمكنكما الذهاب إلى أي مكان! ألست أنا التي أدفع نقود الاثنين؟ هيا لأرى. لا يمكنكما التحرك إلى مكان!»

Twitter: @ketab_n

يخرج مروان إلى الأمام. سينقذ فليبينا. يصبح ضخماً، أو هكذا يعتقد، كبيراً إلى درجة لم يعد يستطيع أن يصغر مرة أخرى. انقطعت خيوطه، وسيبحر، لم يعد له مكان آخر يذهب إليه. سيفتح أشرعته تماماً...

قال جان: «ست زينب، لا تشغلي بالك أبداً.» وكانت يداه في جيبيه، يستمتع بملء الصمت الذي أحدثته جملته:

«عندما تعرف البنت أن هذا منيوكاً ستعودا!»

انكسر عمود مروان. غدا لا أحد. لم يدرك ما بعد ذلك، وليس بالضرورة أن يدرك. هل يقفز فوق جان، أم يتدحرجان عن الدرج، نعم، هل ينزلان؟ نزلا، هل تسقط رجلاهما إلى أسفل؟ هما في الأسفل الآن. كم طابقاً نزلا هكذا؟ هما في أسفل البناء. بما أنهما صارا أمام باب بيت مروان... بما أنهما دخلا إلى شقة مروان، بدأ الخبط... شَعَر جان بوجه مروان وبصاقه في فمه. يبدو جان سعيداً. لأن رجلاً يمسّه، مهما كانت الطريقة. كأنهما يمارسان الجنس، بما أنهما متقاربان إلى هذا الدرجة. بما أن اللحم يلصق باللحم... على وجهه شهوة مخيفة، كأنه في حالة قبيل الولوج... في تلك اللحظة رأى صدر مروان عبر فتحة قميصه يصعد ويهبط... هما الآن على سرير مروان، ويترطب وجه الفراش وداخله حين دُفنا فيه، وعندما قلبه على بطنه، وصار وجهه متجهاً نحو الجدار... لم يقاوم مروانَ، ترك نفسه لكي يلمسه. مروان يشخر وراء رقبته، يمس معدن نهاية شعر جان...

السيد هادي في الأعلى يقول أمام التلفزيون: «طائرات. طائرات حربية! إسرائيل!»

الجميع يسمعون هذا. ولأن الجميع يسمعون صوت السيد هادي لم يُسمع الباقي. يستمعون إلى الأسفل، هل سيصدر ضجيج؟ ثم

Twitter: @ketab_n

تخرج الطائرات الحربية من شاشة التلفزيون، وتأتي إلى فوق الأشرفية من الغرب. كل طائرة تخرج من الشاشة، تعبر بصوت شفرة مثلمة من فوق مستشفى الجعيتاوي. تخرج من الشاشة، وتتراكم فوق بيروت. يخرج ناصر إلى الشرفة. ستانيك تركض مع وسام. حجاب عائشة يعلق بباب الشرفة، فتنفك عقدته. السيدة زينب تهرع إلى الخارج، عين السيد هادي على الشاشة.

يقول: «الطائرات. جاءت مرة أخرى! مرة أخرى إلى المطار!»

يقول ناصر: «المطار. يقصفون! حرب! حرب! حرب! حرب!»

يوجه الكلمة كل مرة لأحدهم. تبدأ الحرب في وجه كل واحد منهم. تنسلّ القنبلة من إحدى الطائرات بصمت. صغيرة كأنها تجمدت في الجو، صامتة كأنها ستطير وتغيب. وبعد ذلك... يصل الصوت إلى رئاتهم موجات موجات، ويصل إلى أمعائهم، وإلى عضلاتهم جميعاً. تنسل القنبلة من إحدى الطائرات بصمت. كانت صغيرة كأنها تجمدت في الجو، صامتة كأنها ستطير وتغيب... في كل مرة تكون صغيرة هكذا، وفي كل مرة تكون صامتة، وفي كل مرة تكون ناعمة هكذا، وأمل قصير جداً داخل الإنسان. وبعد ذلك... دخان من المطار يتصاعد سحابات سحابات... ثم مرة أخرى، ومرة أخرى، ومرة أخرى، وأخرى...

طاخ! صوت مخنوق أسفل البناء...

لعلّ هناك قنبلة تتجمد في الجو وهي نازلة... يمكن أن تطير وتذهب...

طاخ! صوت آخر أسفل البناء...

في كل مرة دعاء قصير في صدور الجميع...

وصل الصوت الجاف من خلف رقابهم مرتين، من الأسفل. لا أحد يلتفت لينظر إلى ما وراء رقبته. لأن الدخان الأسود صار طبقة

Twitter: @ketab_n

سميكة فوق المطار. لأن الحرب في بيروت مرّة أخرى. تعبوا منذ الآن. تبدأ القصة بالنسبة إلى فليبنا فقط. لهذا السبب تنظر إلى الباب المفتوح إلى الأسفل. فليبينا فقط ترى أن أحداً لا يلتفت وينظر إلى خلف رقبته حيث تنتهي يداه... إلى صوت الرصاص.

قبل انطلاق زمامير الخطر، يصعد وقع قدمين خلف رقابهم. تنتهي الأصوات عند رقابهم. أصواتُ لهاث. لا أحد ينظر إلى مروان الواقف بالباب. إذا كانت فليبينا قد رأته فهي تخبئه لتتذكره في يوم ما مستقبلاً. لا تعيش في تلك اللحظة. لا أحد يريد أن يعرف صوت اللهاث ذاك حتى تكلّم:

«ناصر!»

ثمة شيء مكتوب بالدم على صدر مروان. باختصار يُكتب شيء ما على صدر مروان. طاخ، طاخ! صوت رصاصتين، وعلى قميصه آثار حمراء رطبة. حين قال مروان: «ناصر!» مرة أخرى، يعرف ناصر أن عليه أن يسدد ديناً قديماً...

«ناصر!»

يلتفت مروان إلى فليبينا، ويمسك بذراعيها، ازدحم ما سيقوله في صدره، ولا يقول منه سوى عبارة واحدة، ليس لديه وقت:

«هل ستأتين معي؟»

ستقول فليبينا: «إلى أين؟» لا تستطيع. لأن مروان سيبكي. لأنه قال، وقال، ولم يستطع أن يقول إن هذه لم تعد قصتها.

التفت ناصر إلى السيدة زينب، وأيمسك بذراعيها. تزاحم ما سيقوله في صدره، ولا يقول منه سوى عبارة واحدة:

«ست زينب، أين جواز البنت؟»

تريد السيدة زينب أن تبكي، ولكن ليس لديها الوقت. لم يبق وقت أبداً في الدنيا. بما أن الحرب قد اندلعت. مرة أخرى، مرة

Twitter: @ketab_n

أخرى، مرة أخرى... كم حرباً يستوعب العمر؟ كم موتاً يستوعب العمر لعنه الله؟ كم مرة؟

قال مروان، وقال، ولم يستطع أن يقول إن هذه لم تعد قصته...

«إلى أصوات الموز!»

لا أحد يبكي، ليس هناك وقت. كل شيء يحدث هكذا، كأنه بسيط، كأنه مخطط له، مقطّع، وغريب.

تنهار السيدة زينب في مكانها. تريد أن تموت، أن يموت الجميع. لتنته. حرب مرة أخرى، مرة أخرى... صارت في بلد آخر، وفي مدينة أخرى لا تنشب فيها الحرب أبداً. السيدة زينب في مكان تستطيع الذهاب إليه بسرعة. أصوات القنابل تريهم وجه ناصر فقط، يبتلع صوته:

«ست زينب، جواز سفر البنت.»

عندما لا تعود السيدة زينب من المدينة التي ذهبت إليها، يصرخ ناصر:

«جواز السفر المنيوك...»

تنهار عائشة بجانب السيدة زينب، عند طرف المدينة التي ذهبت إليها:

تقول: «زينب، بدأت الحرب.»

تمسك عائشة يد السيدة زينب كما يمسكون الأموات عندما يغسلونهم. ترعيان إحداهما الأخرى قليلاً في مدينة بعيدة. تقفان هناك، ولا تريدان أن تعودا. ولكن هذه بيروت، وتقذف قنبلة أخرى، وتنظر السيدة زينب إلى الخزانة.

فليبينا الآن كورقة تنزلق على الماء. تمشي وسط الضجيج إلى الخزانة في الصالون. لا يمكن أن تكون هي التي تعمل هذا، لعلها كنزتها الصفراء، ويمكن أن بنطالها الأسود يقوم بتلك الحركات. تكسر

Twitter: @ketab_n

القفل بصمت وسط أصوات القنابل كورقة تسبح في الماء. تأخذ جواز سفرها. لماذا تغلق الدُرج؟ لأنها ورقة سابحة في الماء...

ينهض ناصر من مكانه. عيناه تقولان لمروان: «الدين يدفع في يوم كهذا». يقول مروان بنظره: «شكراً». فعلت فليبينا ما يجب أن تفعله، وليس لها حيل أن تفعل شيئاً آخر أو تراه. لا ترى ما يحدث. لم يعد لديها مكان ترى منه. لم تسمع صوت خشخشة المفاتيح، تأرجحت المفاتيح لوقت قصير في الهواء، بين القنابل. حين أمسك مروان مفاتيح السيارة، كانت يداه ويدا ناصر في الهواء:

«هل رآك أحد؟»

«...»

«مروان! هل رآك أحد... تصعد إلى هنا؟»

«واحدة...»

تأكل بقية جملته أصوات أولاد يحاولون حفظ أسماء القنابل من أصواتها في أحياء بيروت. وأصوات رجال يتكلمون بأنواع الطائرات التي تخرج من الشاشة، وتطير فوقهم، أصوات نساء تدعوهم للعودة إلى الحرب، وأصوات من في الضاحية يرفعون الدعاء إلى السماء وهي تمطر قنابل فوق رؤوسهم، وأصوات تلفزيونات تُفتح تباعاً، وكلما فتحت تستدعي طائرات أكثر، وانفجارات أكثر... جملة مروان، انسلت من شق بين كل هذه الأصوات دون أن يسمعها أحد، وذهبت.

* * *

الجدران تهتز. حين أدخلت المفتاح في الباب الخشبي الأزرق، ولحظة دخولها، اهتزت الجدران. تقول: «يبدو أنهم يطلقون المفرقعات النارية في مكان قريب جداً. ما أقربه!»

هذا ما قالته دنيز في داخلها حين وجدت البيت الذي بحثت عنه طوال النهار، وضحكت لأنها وجدته. تضحك لأنها لم تستطع المجيء

Twitter: @ketab_n

إلى هنا بسبب عدم لفظها كلمة جتاوي بشكل صحيح. تراجعت عن الأمر مرة، وتجولت في المدينة. تجولت، وحين حل الظلام وجدت سائقاً يتكلم الإنكليزية أخيراً، وصارت تلفظ كلمة جتاوي بشكل صحيح. أخيراً.

«إنهم يطلقون المفرقعات النارية في مكان قريب...»

لحظة إغلاقها الباب، وقفله، التفت إلى الوراء...

* * *

«من رأى مروانَ؟!»

المفتاحان بيده. لا لأن ناصراً لا يريد أن يعطيه المرسيدس، بل لأنه يريد أن يعرف من رآه فقط.

قال مروان: «بنت.. أجنبية.»

ترك ناصر المفاتيح في كف مروان. لأنها أجنبية... يجب أن يعانق مروان أحدهم، يعانقه ناصر. ستانيك تمسك السيدة زينب على الأرض، وتحاول بعينيها المغشاتين إيجادها في المدينة التي ذهبت إليها من الخريطة. عائشة تمسك بذراع فليبينا، ليس كما تمسك فيليبينية. نزعت غطاء رأسها، يجب أن تعطي شيئاً للذاهب، وخاصة لمن يذهب هكذا، كأنه ذهاب إلى الموت. لفت إشاربها على رقبة فليبينا.

خرجا، وذهبا. في مدينة يصبح فيها الجميع لا أحد مع انفجار كل قنبلة، وهؤلاء يعرفون أكثر من الجميع ماذا يعني لا أحد. تسقط قنبلة أخرى على الضاحية، وينزلقون داخل قصة كما ينزلق الدم إلى الجرح...

* * *

سمعت دنيز وقع زوجي أقدام يهبطان الدرج، وأغلقت الباب خلفها فزعة مما رأته. أصبحت تسمع، ولم تكن المفرقعات تهز الجدران، صارت أذناها ورئتاها المهتزتان بأصوات الضجيج تفهم هذا

Twitter: @ketab_n

أيضاً. قبل أن تصل إلى ذلك الباب، يذوب وقع زوجي الأقدام في الأسفل. يُفتح الباب. الجدران ترتجف مرة أخرى. تصعد الدرج ببطء شديد، نحو الأصوات التي في الأعلى... الجدران ترتجف مرة أخرى.

لم تخف أبداً. تستغرب عدم خوفها. تسير إلى داخل البيت، نحو أصوات أناس تنطلق من داخل البيت. كان على الشرفة شيخ، وثلاث نساء، ورجلان. بيروت تمتد خلفهم. لم تخف أبداً. لماذا تخاف؟ ها هي الآن تقف داخل قصة... كما يجب أن تكون... وحدها. لا أحد ينظر إليها، حتى هي.

يُغلق مطار الحريري الدولي في بيروت أمام كل الرحلات الجوية. وأمام الكتّاب الذين في باريس كلهم... وأمام الرجل بقميصه المدمى والمرأة المرتدية كنزة صفراء وبنطالاً أسود... جق، جق، جق... وأمام أصوات الموز. تسقط قنبلة أخرى، تسند بيروت أذنها إلى قلبها، في مكان بعيد، في مدينة بعيدة، أمام الشاشة... جق، جق، جق... تفتح نافذة قصة، يمتلئ المكان بهواء له أيدٍ لا تُحصى. تخفق أوراق القصة... جق، جق، جق... تتدحرج حصى كتب عليها قدر أناس من علبة خشبية في يد بيروت. الآن تُكتب قصة معقولة في مدينة معقولة. ولكن أصوات الموز تُسمع أيضاً في ذلك الضجيج الذي يجعل الجميع لا أحد... جق، جق، جق.. وسط الجرح بالضبط.

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

ترك ناصر المفاتيح في كفّ مروان. لأنها أجنبية... يجب أن يعانق مروان أحدهم، يعانقه ناصر. ستانيك تمسك السيدة زينب على الأرض، وتحاول بعينيها المغشاتين إيجادها في المدينة التي ذهبت إليها من الخريطة. عائشة تمسك بذراع فليبينا، ليس كما تمسك فيليبينية. نزعت غطاء رأسها، يجب أن تعطي شيئاً للذاهب، وخاصة لمن يذهب هكذا، كأنه ذهاب إلى الموت. لفّت إشاربها على رقبة فليبينا.

خرجا، وذهبا. في مدينة يصبح فيها الجميع لا أحد مع انفجار كل قنبلة، وهؤلاء يعرفون أكثر من الجميع ماذا يعني لا أحد. تسقط قنبلة أخرى على الضاحية، وينزلقون داخل قصة كما ينزلق الدم إلى الجرح...

@ketab_n

تصميم الغلاف للفنان : أكرو ملو